محمد الباز

زعماء وعملاء

الخيانة والفساد على فراش الحكام العرب



زعماء..
وعملاء

محمد الباز

زعماء..
وعملاء

محمد الباز

الناشر
كنوز للنشر
والتوزيع

الطبعة الأولى يوليـــة ٢٠٠٤
الطبعة الثانية ينـايــر ٢٠٠٥
الطبعة الثالثة أغسطس ٢٠٠٥

زعماء وعملاء

OO

المؤلف

محمد الباز

OO

OO

الإشراف العـــام

ياسر رمضان

OO

التنفيذ الفنى

عفت إبراهيم

OO

جرافيك

صابر على صابر

OO

حقوق الطبع محفوظه

OO

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٤٧

الترقيم الدولى: 6-19-6106-977

OO

الناشر

كنوز للنشر والتوزيع

٣٧ شارع قصر النيل

تليفون: ٥٣٣٤٤٥٨ ٠١٠ ـ ٧٣٥٢٢٣٩ ٠١٢

مجـــرد ملاحظـــة

يحـاول الحـاكم العـربى - أى حـاكم عـربى - أن يصـدر نفسـه لأبناء شـعـبه على أنه راعيهم وحـامى حـامهم، فهـو يحـافظ على مـصـالحهم ويرعى شئونهم ، لا حاجـة لأن يعملوا فهو يعمل بالنـيابة عنهم، ولا حاجـة لأن يفكروا فهو يفكر بالنيـابة عنهم، ولا يتم هذا كله لوجـه الله ، ففى النهـاية تصبح الشعوب العـربيـة لا حاجـة لديهـا لأن تريح، لأن الحاكم يريح بالنيابة عنـها، ولذلك كله فنحن نسرق دون أن نعترض، تسلب حقوقنا أمام عيـوننا دون أن ننطق ، وهـذا أمـر طبيـعى للغـاية، فمـا دمنا تنازلنا عـن حقـوقنـا، فنحن نستأهل كل ما يجرى لنا .

البـــاز

مقدمة
هزلية جدا

نكت على فراش الحكام العرب

لم يقل أعظم الساخرين فى تاريخ العرب نكتة أشد ألما وأعمق مرارة، من النكتة التى رأيناها جميعا فى اللحظة التى سقط فيها تمثال صدام حسين فى ميدان الفردوس فى وسط بغداد، كان المشهد عبثيا حتى الثمالة.. جعل كل الذين حاولوا أن يتحدثوا بجدية عن تفاصيل ما جرى سخفاء دمهم ثقيل.. أبطال من ورق.. وكان لابد أن تخرج السخرية العربية اللاذعة من قبوها الذى حوصرت فيه ووقف على بابها الجلادون العرب بسياطهم التى لا ترحم.

لم ينتظر كتاب النكتة العربية أن تهزم العراق حتى يخرج عن قذائفه الساخرة، بل إنه تنبه مبكرا لنظام صدام حسين الديكتاتورى.

جمع الرئيس العراقى صدام حسين مجلس قيادة الثورة وقال لهم : إنه اكتشف مؤامرة ضده يقودها واحد من الجالسين أمامه يبدأ اسمه بحرف الطاء وكان بين الأعضاء ثلاثة تبدأ أسماؤهم بحرف الطاء هم طارق عزيز وطه ياسين رمضان وطه محيى الدين لكن هؤلاء الثلاثة بقوا فى أماكنهم ثابتين لم يهتزوا.. الذى اهتز وارتعش عضو فى المجلس لا يبدأ اسمه بحرف الطاء بل لا يوجد الحرف فى اسمه على الإطلاق فسأله صدام حسين: لماذا أنت خائف رغم أن اسمك لا يبدأ بحرف الطاء، فرد المسئول العراقى قائلا: أعرف ذلك ولكنك تناديني دائما لقب طرطور.

ولأن القهر كان قد تمكن من الشعب العراقي وأصبح القمع هو القانون السائد.. فقد سخرت النكتة العربية ليس من النظام العراقى هذه المرة لكنها أخذت فى طريقها الجوع السوادنى والفقر المصرى.

سألوا مصريا وغراقيا وسودانيا عن رأيهم فى أكل اللحمة؟ فرد السودانى : يعنى إيه أكل وقال المصرى : يعنى إية لحمة.. أما العراقى فتلفت حوله ثم قال : يعنى إيه رأى.

قبل حرب العراق التى جاءت على الأخضر واليابس كان موقف الحكام العرب صادما للجميع بدا الجميع مسلوبى الإرادة غير قادرين حتى على التصريح بالرفض.. ولذلك اقتربت النكتة من أثوابهم وأشعلت فيهم النار ولم تدع أحداً ليطفئها.

القذافى قرر يجوز ابنه الساعدي.. وفى ليلة الفرح أطلق صواريخ نووية فى الفضاء الخارجى، فهو رغم أنه لا يكف عن الكلام والتصريحات لم نر منه شيئا حتى الآن سوى صواريخ الكلام ولذلك جاءت السخرية فى مكانها المضبوط.

ياسر عرفات كان عند مرمى النيران.. استدعاه الرئيس الأمريكى بوش إلى البيت الأبيض وقال له: ياباخد الأقصى لشارون يا بـ«...» وبعد دقائق خرج عرفات من البيت الأبيض وهو يرفع بنطلونه قائلا: قال عايز يأخذ الأقصى مننا قال.

لم يكن حكام الخليج بعيدين عن السخرية اللاذعة بعد أن وقفوا مكتوفى الأيدى ولم يمنحوا شعب العراق سوى أدعيتهم التى من المؤكد أنها لم تصل إلى السماء..

أحد حكام الخليج ذهب إلى مكتب العمل بعد أن خرج بيل كلينتون من البيت الأبيض وطلب أن يغير الكفيل من كلينتون إلى الرئيس الأمريكى الجديد جورج بوش الصغير.

قالت النكتة رأيها بصراحة فالشعوب لا تحب حكامها ولا ترحب بهم ولا تفتح لهم ذراعيها بل تدعو عليهم كل صباح وترجو من الله أن يستجيب لدعائها :

● حاكم عربى وجد مصباح علاء الدين ولما خرج له العفريت قال له الحاكم: عاوزك ترجع لى أبويا اللى مات من عشر سنين فقال له العفريت هذا صعب جدا فقال له الحاكم طيب أنا عاوز أكون حاكم محبوب كل الشعب يسبح بحمدى رد عليه العفريت ساخرا: لا أجيب لك أبوك أسهل.

لا تثق الشعوب فى حكامها فهم يعرفون أن الحاكم عندما ينظر فى المرآة لا يرى سوى نفسه وأن كلامه عن مصالح شعبه واهتمامه بهم مجرد كلام فارغ للاستهلاك المحلى ليس إلا ولا يختلف الوضع فى أخطر القضايا وأهونها.

● زعيم عربى رسم وشما على ذراعه يصور خريطة فلسطين المحتلة فلما سئل عن السبب قال : حتى لا أنسى. قالوا له : لكن ماذا ستفعل لو تحررت فلسطين والوشم لا يمحى فقال ببساطة: اقطع دراعى، ولم ينس صانعوا النكتة أصحاب الشعارات الضخمة، على عبد الله الصالح الرئيس اليمنى لا يكف عن التصريحات التى يستعرض من خلالها عضلاته هو أكثر الرؤساء العرب حديثا عن ضرورة الحرب والضرب.. رغم أنه لا يفعل أى شىء إيجابى يؤكد كلامه ولذلك فهو لم يسلم.

جلس على عبد الله صالح يناقش مع أحد وزرائه المشكلات الاقتصادية الرهيبة التى تواجه اليمن فقال له الوزير : عندى حل مذهل.

رد صالح : قل بسرعة.

قال الوزير: علينا أن نعلن الحرب على الولايات المتحدة وبعد أن نخسر الحرب سوف ينفق الأمريكيون آلاف الملايين لتعمير بلادنا تماما كما فعلوا فى ألمانيا واليابان ويفعلون الآن فى العراق هز على عبد الله صالح رأسه وقال للوزير وماذا تفعل لو انتصرنا على الأمريكان.

عنف الحكام العرب وسطوتهم وبطشهم بمعارضيهم أفرز بدوره نكتا لاذعة ولأن صدام حسين كان الأكثر بطشا أو هذا الذى نتفق عليه الآن بعد أن زادت فضائحه وفضائح نظامه فقد ألحقت به معظم النكت التى تتحدث عن العنف والبطش.

طارد رجال الأمن العراقيون لصا فخاف أن يقتلوه اعتقادا منهم أنه ليس بعثيا فأخذ الحرامى يصيح قائلا أنا حرامي.. والله العظيم حرامى.

الغريب أن هذه النكتة نفسها قيلت فى العراق أيام عبد الكريم قاسم وبدلا من أن يطارد رجال الأمن الرجل على أنه ليس بعثيا طاردوه على أنه بعثى لكن الثابت فى كل مرة أن المواطن العراقى كان يصرخ فى المرتين بأنه حرامى فأن تكون لصا فى بلد عربى أهون بكثير من أن تكون معارضا للنظام وتجهر بذلك.

القهر ليس سياسيا فى الدول العربية فقط.. فالقحط الذى يعيشه السودانيون والجوع الذى لاقوه لم يدفعهم إلى الثورة ولكن دفعهم إلى التنكيت:

« أضرب العمال السودانيون فاجتمع بهم الرئيس عمر البشير لمعرفة شكواهم قالوا له: فيه أزمة فى كل حاجة.. ما فى زيت ولا سكر ولا لحم.. سلع فى السوق ما فى، قال لهم ومطالبكم إيه، فقالوا له زيادة الأجور.. فرد عليهم ساخرا وبتعملوا بيها إيه.

حالة الضنك هذه التى يعيشها المواطنون العرب جعلتهم يتمنون الخلاص من حكامهم بأية طريقة حتى ولو صلبوا.

● أحد رجال الأمن السريين اقترب من بائع صور يفرش بضاعته على أرض أحد الميادين العربية وسأله :

- بكم صورة السيد المسيح هذه ؟

- بخمس ليرات.

- وبكم صورة رئيسنا المحبوب؟

- بنصف ليرة.

- هل هذه معقولة تبيع صورة المسيخ بخمس ليرات وصورة الرئيس القائد بنصف ليرة.

فقال البائع غاضبا: اصلبوه وأنا أبيع صورته بخمسين ليرة.

لم يترك الشعب المصرى أحدا إلا وجرحه بالنكتة حتى الذين أحبهم.. لم يفرق فى ذلك بين جمال عبد الناصر وأنور السادات. بين فيفى عبده والشيخ الشعراوى، بين هزيمة ١٩٦٧، وانتصار ١٩٧٣، وهو ما جعل عبد الناصر نفسه يتوتر، فبعد أن أعلن أنه سيتنحى ألهبه الشعب المصرى بالنكتة للدرجة التى دفعته لأن يطلب من المصريين أن يخففوا من التنكيت، وكما سجل أنيس منصور فى كتابه «عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا»، فإن عبد الناصر قال: احنا من غير ما نعرف بنسمع الإذاعات ونرددها. ونقول مفيش فايده، الشعب المصرى يسمع أى حاجة وينكت عليها، تعرفوا موجة النكت التى طلعت فى الأيام اللى فاتت.. أنا عارف شعبنا. شعبنا طبيعته كده، وأنا لم أخذ

الموضوع بطريقة جدية وعارف الشعب المصرى كويس، ما هو أنا منه واتربيت فيه، كل واحد يقابل واحد يقول له سمعت آخر نكتة ويحكى.

وكأن عبد الناصر أعطى تصريحا للشعب المصرى، لأن ينكت عليه وعلى كل ما يقابله، ولذا مرمطت النكتة برجال المرحلة الناصرية الأرض.

● عبد الحكيم عامر قال لشمس بدران: مدير مكتبى ده شخص غبى ! فقال له شمس إزاى ؟ أشار له عبد الحكيم قائلا استنى.. واستدعى مدير مكتبه وقال له: روح بيتى شفنى هناك أو لا، فخرج الضابط وغادر المبنى وبعد فترة عاد ليقول للمشير للأسف يافندم سيادتك مش فى البيت، ثم أدى التحية وانصرف فالتفت إلى شمس بدران قائلا: مش قلت لك إنه غبي.. كان ممكن يوفر المشوار ويسأل عنى فى البيت بالتليفون.

وقيل: ثلاثة لا يدخلون الجنة، شمس بدران، وعبد الحكيم بن عامر وجمال بن عبد الناصر، الأول ترك الجيش بدون عدة والثانى مات حبا فى وردة، والثالث تنحى وقت الشدة.

- عبد الناصر كان يلقى خطابا عندما عطس أحد الحاضرين فتوقف قليلا وسأل : مين عطس؟ فلم يرد أحد فأمر بإطلاق النار على الجالسين فى الصف الأول وسأل : مين عطس، فلم يرد أحد فأطلق النار على الصف الثانى وسأل: مين عطس، فرفع رجل أصبعه وهو يهب واقفا وقال : أنا يا ريس، فرد الرئيس يرحمكم الله.

- التقى صديقان أيام عبد الناصر فبادر أحدهما الآخر: هل علمت أن فلانا خلع ضرسه من أنفه، فرد عليه ولماذا لم يخلعه من فمه؟ فقال له هو حد يقدر يفتح فمه.

- عثر على تمثال فرعونى احتار علماء الآثار فى تحديد أصله، فاقترح جمال عبد الناصر إرساله إلى المخابرات لكشف غموضه، وبعد ساعات قالوا له: لقد تأكدنا أنه تمثال رمسيس الثانى، فقال لهم كيف، فقالوا اعترف بنفسه يا فندم.

- سأل رجل عجوز أحد الشباب، إيك رأيك فى الثورة، فأجابه : الثورة.. الله يا سلام؟ فرد الرجل العجوز للدرجة دى بتحب الثورة! فقال له الشاب بسرعة: طبعا دا أنا من كتر حبى فى الثورة نفسى فى ثورة ثانية.

وهذه النكتة مسجلة باسم عبد الحميد جودة السحار الكاتب الروائى تقول: إن رجلا كان يشترى صحيفة كل يوم، ثم ما يكاد ينظر فى الصفحة الأولى حتى يرميها على طوال ذراعه، فسألوه: بتعمل كده ليه، فيقول: كفاية إنى قريت الوفيات، فيردوا عليه، بس الوفيات مش فى الصفحة الأولى، فقال لهم: اللى مستنى وفاته، حيموت فى الصفحة الأولى.

ربطت النكتة بين عبد الناصر والسادات.. وكأنها كانت تريد أن تنتقل من الأول إلى الثانى بنعومة. وقد يكون الكاتب الساخر محمود السعدنى له دور كبير فى ذلك، فقد لخص الموقف كله فى عبارة واحدة: عبد الناصر موتنا من الرعب والسادات حيموتنا من الضحك، الربط كان بهذه النكتة.

- جاء عبد الناصر للسادات فى المنام وقال له : ياأنور، فرد عليه أفندمياريس، فقال له إنت بتقول إنك عملت تنظيم الضباط الأحرار ماشى، وبتقول إنك اللى عملت الثورة ماشى، وبتقول إنك الوحيد اللى حاربت الفساد ماشي، لكن قل لى بذمتك أنت كنت تقدر تقولى يا جمال.. كده حاف؟».

هذه النكتة سارت على هديها نكت أخرى كثيرة.. تشير إلى أن السادات لم يكن يقول لعبد الناصر إلا حضرتك وسيادتك.. لدرجة أنه حضر معه حفلا لأم كلثوم.. ولما سأله عبد الناصر عن الأغنية التى ستغنيها ثومه فقال له السادات: حضرتك الحب يا أفندم، فى إشارة إلى أغنية أنت الحب!

أطلق المصريون كما هائلا من النكت على السادات، لكن النكت التى طاردته لم تؤثر فيه، ولم يكن قادرا على حل شفرتها وفهم معانيها، ومن ثم كان لابد أن يستعمل الناس أسلوبا آخر كى يفهم وكان هذا الأسلوب على النقيض وهو المظاهرات.

ولأن المصريين لم يرحموا حكامهم من التنكيت عليهم حتى الذين أحبوهم منهم، فإنهم لم يتركوا أحدا من الحكام العرب فى حاله، وكانت حرب العراق التى كشفت عورات الجميع فرصة لهم ليمارسوا هواياتهم المفضلة، لكن المفاجأة أن الناس كادوا يفقدون قدرتهم على السخرية.. النكت خرجت باهتة بلا لون ولا طعم ولا رائحة، حتى رسوم الكاريكاتير التى نشرتها الصحف العربية والمصرية.. عكست مزاجا مضطرابا.. فيبدو أن الألم كان أكبر من الاحتمال.. ولذلك لم يستطع أحد أن يسخر منه بحرارة.. فخرجت النكت بطعم العبث ونكهة العدمية.

إننى لا أتفق مع الذين يقولون إن النكتة سلاح قوى ومؤثر.. فهى دليل العجزة الذين لا يستطيعون الفعل فيكتفون بالكلام، صحيح أن النكت أرقت الحكام العرب، وأقلقت منامهم، واقتحمتهم حتى وصلت إلى فراشهم ومخادع نومهم.. لكن ماذا حدث.. مازالوا قابعين على صدورنا.. ويبدو أنهم سيظلون على هذا - لامؤاخذة - الوضع كثيراً.

■ ■ ■

مقدمة
جادة جدا

قرارات السيد الرئيس

فى فيلم «ناصر ٥٦» صاغ محفوظ عبد الرحمن عدة مشاهد متلاحقة لجمال عبد الناصر وهو يصنع قرار تأميم القناة، قراءات فى التاريخ والجغرافيا، مطالعة خرائط ومناقشة مثقفين وصحفيين وعلماء ورجال سياسة ومسئولين فى هيئة القناة ودراسة للأوضاع العالمية، ثم فى النهاية أخذ ناصر القرار وأعلنه بتحد وثقة.

وفى فيلم «أيام السادات» رأينا كيف كان السادات يصنع قراراته، فهو يعلن قراره الخطير بسفره إلى إسرائيل على أعضاء مجلس الشعب، وكان هو الوحيد الذى عرف القرار، لم يستشير أحدا ولم يخبر أحدا، انفرد بالتفكير والتخطيط وأخذ القرار وحده.. وأعلنه وحده.. وتحمل نتيجته فى النهاية وحده..

وعندما سأل مكرم محمد أحمد الرئيس مبارك فى الحوار الطويل الذى نشرته مجلة «المصور» قال له : سيادة الرئيس: بعض الأقباط كانوا يتعجلون صدور قرار إدارى بغلق النبأ، رد الرئيس قائلا: عندما اتصل بى د. يوسف والى يسأل عن إمكان صدور قرار عسكرى بوقف الصحيفة طلبت منه أن يتشاور مع رئيس الوزراء الذى كان موجودا فى الأقصر وقتها، وصرح هناك بأن الحكومة تفكر فى إصدار قرار بإغلاق الصحيفة، لكننى رأيت أن صدور القرار سوف يكون سابقة خطيرة خصوصا أن القرار سوف يصدر يوم الأربعاء، على حين تحدد يوم الأحد لنظر قضية صحيفة النبأ على وجه الاستعجال، كانت الحكمة تقضى بأن ننتظر قرار المحكمة مادامت المحكمة تنظر القضية فى جلسة مستعجلة.

معنى هذا أنه كما لكل شيخ طريقة فإن لكل رئيس طريقة فى اتخاذ القرار، والسؤال المنطقى هو : لماذا يختلف كل رئيس عن الآخر فى طريقة اتخاذه للقرار والمفروض أنها دولة واحدة؟ الدراما لا تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال فهى تجسد ما حدث فقط.. ولأنه ليس بالدراما وحدها يحيا الإنسان، فإننا سنعتمد على دراسة علمية بحثت ونقبت ووصلت فى النهاية إلى الفروق بين ناصر والسادات ومبارك فى طريقة وصول كل منهم لقراره.

الدراسة يقدمها د. صلاح بيومى أستاذ الاجتماع السياسى بجامعة طنط.

يعرف د. صلاح صنع القرار بأنه العملية التى تفترض أو تواجه فعلا مشكلة أو أزمة ما تتطلب قرارا ما، ويتم طرح مجموعة من البدائل لاختيار أحدها باعتباره الأنسب أو الأكثر ملاءمة للحل أو العلاج، ومن ثم يتم وضع هذا القرار موضع التنفيذ، دراسة د. صلاح تضع لنا مدخلا مناسبا لنعرف كيف كان كل رئيس من الثلاثة يأخذ قراره. فهو يرى ضرورة أن ندرس البيئة النفسية والاجتماعية لصانع القرار لمعرفة أثر التنشئة الاجتماعية والثقافية وأثر سمات شخصيته على محتوى القرارات التى يتخذها.

بهذا المدخل نستطيع أن نعبر إلى الرؤساء الثلاثة..

فعبد الناصر كان ينتمى إلى أسرة ريفية صعيدية من الطبقة الوسطى وعايش أفراد هذه الطبقة خلال تنقله مع والده موظف البريد بين مدن مصر المختلفة، اشترك جمال فى المظاهرات ضد الاحتلال فى شبابه يؤكد بذلك انتماءه وحبه لوطنه، وتعلم دروس الوطنية الأولى على يد عمه خليل الذى شارك فى ثورة ١٩١٩ وسجن بسبب ذلك، انخرط جمال فى سلك الجندية وأصبح ضابطا واشترك فى حرب ١٩٤٨ فزادته خبرة وحنكة، كما زادته إيمانا وولاء لوطنه، وفى ذات الوقت كرها لنظام الحكم القائم وسيطرة الاحتلال الإنجليزى.

كان لابد لجمال أن يستجيب لظروف عصره فكون تنظيم الضباط الأحرار ليخلص وطنه من فساد الحكم وطرد المستعمر الأجنبى وتغيير المجتمع لصالح الطبقات الاجتماعية الكادحة التى نشأ وتربى بينها، وقد حقق ذلك عن طريق الثورة.

لقد قرأ عبدالناصر كتب التاريخ والسياسة والاقتصاد، كما قرأ سير الشخصيات التاريخية الكبيرة الأجنبية والوطنية وتأثر بكثير منها، وقد أكد ذلك الكثير من الشخصيات التى عرفته عن قرب وكذلك معظم الكتاب والسياسيين الذين كتبوا عنه، ولعل فى ذلك دليلاً على عدم دراية بعض الذين ادعوا أن عبدالناصر لم يقرأ التاريخ من أمثال أنيس منصور الذى قال فى كتابه «عبدالناصر المفترى عليه والمفترى علينا» أن عبدالناصر لم يكن يقرأ شيئاً من أساسه.

على ضوء هذه النشأة تحددت مميزات وعيوب عبدالناصر، فقد كان يتميز بالذكاء والقوة والصبر وتحمل المشاق والقدرة على التنظيم والسرية فى العمل والتدين وموهبة القيادة أو الزعامة التى توهجت بعد القضاء على العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، وتتحدد سلبيات عبدالناصر فى وضعه للثورة فى مقابل الديمقراطية أثناء أزمة مارس ١٩٥٤، وحتى تجاربه الديمقراطية فى التنظيم السياسى الواحد فشلت جميعها واحدة تلو الأخرى، وغابت الديمقراطية الحقيقية فى عهده، رغم إنجازاته الأخرى العديدة لدرجة أن البعض يرجع هزيمة يونيو ١٩٦٧ إلى غياب الديمقراطية.

ركزت الدراسة على ثلاثة قرارات كبرى فى حياة عبدالناصر فرضتها ضرورات سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية وأمنية وهى قرار تأميم شركة قناة السويس ١٩٥٦ وقرارات يوليو الاشتراكية ١٩٦١، وقرار سحب قوات الطوارئ الدولية ١٩٦٧.

لكن كيف كان يأخذ ناصر قراراته؟ لقد كان يعتمد فى قراراته السياسية الكبرى على شخصيته الكاريزمية الملهمة وحب الجماهير له وإيمانها بزعامته مصريا وعربيا ودوليا، وكان أسلوبه فى صنع القرار يعتمد كثيراً على القراءة التفصيلية الدقيقة لكل ما يصل إليه من بريد، إضافة إلى حرصه على الاستماع إلى إذاعات العالم المختلفة وقراءة الصحف المصرية والأجنبية ومناقشة الموضوعات المختلفة مع القادة العرب وزواره الأجانب، كما أنه كان حريصا على تعدد مراكز صنع القرار، بأن يطلب من أكثر من جهة دراسة الموضوع الذى هو بصدد اتخاذ قرار فيه مثل التنظيم السياسى والمخابرات

ومجلس الوزراء وبعض المختصين المقربين إليه ويثق فيهم، ثم إعادة الموضوع إليه بعد دراسته لاتخاذ القرار المناسب بشأنه.

كان عبدالناصر إذن يأخذ القرار ثم يدفعه إلى أكثر من جهة لدراسته وإبداء الرأى فيه وإعادته إليه، وكان يناقشهم أحياناً فى القرار إذا اختلف معهم فيه، ولكنه كان يصر على رأيه ويعلن تحمله المسئولية بمفرده، ثم يختار الوقت المناسب لإعلان قراره، كما لو كان قد اتخذه فجأة وبطريقة فردية، ويؤكد ذلك القرارات الكبرى فى حياته ومع ذلك يعتبر عبدالناصر أول رئيس ينشئ سكرتارية للمعلومات إلى جانبه تصب عندها كل المعلومات والحقائق التى يستند إليها الرئيس بعد ذلك فى صنع القرار.

الرئيس السادات كان ينتمى إلى الطبقة الوسطى الريفية وقد أثرت تنشئته الاجتماعية والثقافية كثيراً فى شخصيته، كانت حياته درامية بدأت فى القرية ثم فى بيت بكوبرى القبة وفصله من الخدمة فى الجيش واشتغاله ببعض المهن الشاقة، واشتراكه فى بعض التنظيمات السياسية السرية والاغتيالات السياسية وإعجابه ببعض الشخصيات المصرية والأجنبية، انعكس كل ذلك على سمات شخصيته التى كانت تتسم بالدهاء والخشونة وقوة الاحتمال وحب المغامرة والخداع والتخفى والتنكر والسرية وقد أثر ذلك بدوره فى كثير من أعماله وسلوكه وقراراته التى كان أهمها قرار حرب أكتوبر ١٩٧٣ وقرار الانفتاح الاقتصادى ١٩٧٤ وقرار زيارة القدس ١٩٧٧.

لكن كيف كان السادات يتخذ قراراته؟

اتسم أسلوب السادات بالفردية أحيانا والصدمة أو المفاجأة أحيانا أخرى، وقد يكون ذلك بسبب المتغيرات أو الظروف الاجتماعية والثقافية التى تأثر بها وأثرت فى شخصيته، ويعكس أسلوبه فى صنع القرار رؤيته لذاته كأب للعائلة المصرية التى كان يرددها كثيراً فى خطبه وأحاديثه وأن يفرض عليه - كأب - أن يرسم ويخطط لهذه العائلة ما يراه هو فى صالحها ومنفعتها.

ورغم أن السادات كان يحيط نفسه بمجموعة من المستشارين إلا أنه لم يكن يستجيب لأرائهم، بل إنه كثيراً ما كان يتخذ العديد من القرارات دون الرجوع إليهم أو بالمخالفة لأرائهم، ويشهد على ذلك الرئيس الأمريكى نيكسون الذى زار مصر أيام السادات، يقول: «كثيراً ما كان السادات يتجاهل وزراءه ويتخذ قرارات بنفسه» ووفقاً لرواية الرئيس الأمريكى كارتر أثناء محادثات كامب ديفيد فإن الرئيس السادات كان يتخذ قرار مصر بنفسه، ولم يكن يحب أن يوجد أحد معاونيه معنا، أما بيجين فكان لا ينفرد بالقرار ولكنه كان دائماً يطلب الرجوع إلى أعضاء الوفد المرافق له لاستطلاع رأيهم، وإذا اختلفوا فإنه كان يطلب وقتا للحصول على رأى مجلس الوزراء.

ولم يكن السادات يتجاهل فقط مستشاريه، ولكنه كان أيضاً يتجاهل وزراءه والمؤسسات السياسية والدستورية ويؤكد ذلك منصور حسن الذى كان وزيراً لإعلامه وموضع ثقته حيث يشير إلى أن عملية اتخاذ القرارات كانت تتم على صعيد المستوى الأعلى، أما وظيفة المؤسسات السياسية فكانت قاصرة فقط على تأييد ما يتخذ من قرارات، ومع ذلك كان السادات يؤكد على ديمقراطيته فى صنع القرار، ويدعى أن الشعب يشاركه الحكم، على الرغم من أن الشعب لم يكن سوى مجرد متلق لقراراته أثناء أحاديثه لوسائل الإعلام أو خطبه فى مجلس الشعب!

ويقول «محمد حافظ إسماعيل» مستشار السادات للأمن القومى: لقد اختار السادات أن يكون وحده السلطة السياسية العليا فى البلاد، ومن ثم المسئول عن القرارات الجوهرية فى مسائل السياسة العليا والاستراتيجية العسكرية، ولم يكن ذلك يعنى أنه لا يستمع إلى المشورة أو أنه يسعى إليها، فقد وجد فى مجلس الأمن القومى وفى مجلس الوزراء الإطار الذى يناقش فيه بعض قراراته قبل اتخاذها إلا أن أياً من المجلسين لم يكن معنياً بالتصويت لإقرار سياسة مستقبلية، وصل السادات فى النهاية إلى أن أصبح صاحب القرار سلماً أو حرباً، بينما يوفر المجلسان التعرف على نبض الرأى العام والإسهام فى بلورة الخيار الأفضل وتنظيم تنفيذه!

ونصل إلى الرئيس مبارك..

تمتد جذور الرئيس مبارك إلى الطبقة الوسطى الريفية، وهو فى ذلك يشبه الرئيس السادات، والده كان موظفا حكوميا فى محكمة شبين الكوم بمحافظة المنوفية، تفرغ لدراسته، وكان مجتهدا فيها بشهادة زملائه وأساتذته، وقد تفتح حسه الوطنى أثناء صباه وانتمى إلى إحدى الجماعات الوطنية فى المدرسة الثانوية، أعجب بشخصية روميل ومعارك الطيران أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان ذلك دافعه للالتحاق بالكلية الجوية التى تخرج فيها ضابطا طيارا.

تفرغ لعمله برز فيه وسافر فى بعثات تدريبية إلى الاتحاد السوفيتى، كان من أبطال حرب أكتوبر ولذلك أختاره السادات نائباً له فى الحكم وفى الحزب الوطنى، وكلفه بمهام داخلية وخارجية أثبت فيها قدراته واكتسب منها خبرة وتجارب سياسية كانت ذخيرته عندما تولى الحكم.

هذه التنشئة الاجتماعية والثقافية انعكست على شخصية الرئيس مبارك ويحدد د. صلاح بيومى صاحب الدراسة سمات الرئيس على ضوء هذه التنشئة يقول: تتسم شخصية مبارك بالهدوء والاتزان والثقة فى النفس والصبر وقوة التحمل، وحب العمل وتقديسه وحب الحرية والانتماء الوطنى.

وتحمل شخصية مبارك بعض السمات العامة للشخصية الكاريزمية، فالملامح أو السمات للزعيم أو القائد الكاريزمى تبدو فى ثقته بنفسه وتقديره لذاته، ورؤيته أو تعبيره عن حاجات وقيم وآمال تابعيه، فهو يبدو واثقا فى نفسه وفى قدرته ورغبته فى العمل من أجل تحقيق آمال الطبقة الكادحة التى يسميها دائماً طبقة محدودى الدخل، ويتجلى ذلك فى موقفه من مطالب صندوق النقد الدولى للإصلاح الاقتصادى بمراعاة البعد الاجتماعى فى هذه الإصلاحات، حتى لا تظلم الطبقات الشعبية التى تتحمل معظم تكاليف مسيرة الإصلاح الاقتصادى.

وترى الدراسة أن أهم قرارت مبارك هى الإفراج عن معتقلى سبتمبر ١٩٨١ وقرار التحكيم فى قضية طابا ١٩٨٦ وقرار إدانة الغزو العراقى للكويت ١٩٩٠.. لكن كيف أخذ

الرئيس مبارك قراراته.. تؤكد الدراسة أن أسلوب مبارك فى صنع القرار السياسى يقوم على الدراسة الموضوعية العقلانية المتأنية من مستشاريه المتخصصين وطرح البدائل لاختيار البديل أو القرار المناسب للأزمة أو المشكلة، ويعبر عن ذلك د. أسامة الباز مستشار الرئيس للشئون السياسية بقوله: الرئيس يرفض تماما - خصوصا فى أوقات الأزمات - أن تكون المواجهة انفعالية وقتية لأنه يرى أن ضغط الوقت يمكن أن يحجب عن الإنسان عواقب المستقبل، وأنه من الممكن أن تخرج من الأزمة خروجاً مؤقتاً، ولكن الأزمة تصيبك بآثار لاحقة وأخرى جانبية تتجاوز كثيرا المزايا التى حققتها بخروجك المؤقت من الأزمة.

لا يحب مبارك الرأى الواحد فى أى موقف تواجهه مصر سواء داخلياً أو خارجياً فلابد أن تكون هناك بدائل، وكلها من إطار علمى وتستند إلى أدلة، ويكون دوره فى معظم الأحوال المفاضلة بين البدائل التى تحظى جميعها بموافقة وإقرار قاعدة عريضة من المتخصصين.

ومجمل سياسة مبارك فى اتخاذ القرارات أنه يستند إلى التأنى وتدفق المعلومات من أجهزة ومؤسسات الدولة، والتى تصب عند هيئة المستشارين التى يتعامل معها بموضوعية وطبقا للأهداف القومية، ثم تقدمها له فى صورة مجموعة من البدائل أو الاختيارات، وتترك له حرية اختيار البديل المفضل الذى يصبح هو القرار السياسى المناسب أو الصحيح للموقف أو المشكلة، ومن هنا كانت نظرته متوازنة للأمور والأزمات أو المشاكل وتميل إلى الاختيارات التوفيقية أو الحل الوسط.

لا تكتفى دراسة د. صلاح بأن تؤكد أن مصر شهدت اندفاعية ثورية فى عهد عبدالناصر وصدمات كهربائية فى عهد الرئيس السادات، وعقلانية وواقعية فى عهد مبارك، ولكنها تقارن بين العهود الثلاثة.

فمن حيث تصور كل رئيس لأبعاد قراراته نجد أن عبدالناصر كان يريد تحقيق أهداف وطنية سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية أحيانا، أما السادات فقد كان

يرغب فى تحقيق أهداف وطنية وسياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية أحيانا، وكان يأخذ قراراته بمفرده دون الرجوع لمستشاريه، أما مبارك فيريد تحقيق أهداف وطنية سياسية واقتصادية واجتماعية ولا يأخذ قرارا إلا بعد مناقشته مع مستشاريه.

كان عبدالناصر لا يستجيب للضغوط الشعبية وإن كان قد استخدمها مرة لمحاكمة قادة الطيران بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ومرة أخرى عندما عدل عن قراره بالتنحى وهو القرار الذى جعله هدفا للشائعات التى أشارت إلى أنه كان وراء مظاهرات الشعب، السادات كان عنيدا ولا يستجيب مطلقا للضغوط الشعبية، لكن الشعب أجبره أن يستجيب بعد مظاهرات ١٨ و١٩ يناير التى أصر هو على أنها انتفاضة حرامية بينما كان يراها الجميع انتفاضة شعبية، مبارك يستجيب مع الروية والهدوء أحيانا.

لم يكن عبدالناصر وهو يتخذ قراراته يستغنى عن وسائل الإعلام وأجهزة الدولة والمخابرات والتقارير والاتحاد الاشتراكى، ولما جاء السادات استعان أيضاً بوسائل الإعلام وأجهزة الدولة والمخابرات، لكنه زاد عليها بعض الجهات الأجنبية التى كان يحصل منها على المعلومات، الرئيس مبارك يعتمد فى جانب كبير من قراراته على وسائل الإعلام وأجهزة الدولة والحزب والمخابرات والأمن والمستشارين.

أهم المقارنات فى هذه الدراسة جاءت فى سؤال مهم هو.. هل كان لدى الرئيس بعد نظر فى قرارته.. وتتوالى الإجابات، الرئيس عبدالناصر كان لديه بعد نظر فى كثير من قراراته، لكن خانه بعد نظره فى بعضها مثل الوحدة مع سوريا وحرب اليمن وسحب قوات الطوارئ، السادات كان بعيد النظر فى كل قرارته، ولكن خانه بعد نظره فى بعضها مثل قرارات رفع الأسعار فى يناير ١٩٧٧، واعتقالات سبتمبر، أما الرئيس مبارك فلديه بعض النظر فى معظم قرارته.

وتبقى قرارات الرئيس ضد معارضيه، كان عبدالناصر يهادن أحيانا لكنه كان يستخدم العنف والسجن أحيانا أخرى، السادات كان يغلب المواجهة أما مبارك فيلجأ إلى الهدوء والدراسة!..

هذه الاختلافات بين الرؤساء وضعتها الدراسة فى موضعها الصحيح حين أكدت أن القرار السياسى هو استراتيجية الرئيس أو صانع القرار فى مواجهة الأزمات وقضايا

لوطن والمجتمع على المستوى المحلى والدولى ذلك لأن القرار يتعلق بالغايات أو الأهداف لكبرى للدولة.

وفى مصر أثبتت الوقائع دائما أن الرئيس سواء عبدالناصر أو السادات أو مبارك - كان هو المحور الرئيسى لعملية صنع القرار، وإن اختلفت الدرجة من عهد إلى آخر، خذ عندك مثلا قرار الرئيس السادات بزيارة القدس وقراره باتفاقية السلام مع إسرائيل وقراره باعتقالات سبتمبر ١٩٨١ وكلها كانت قرارات فردية، عبدالناصر كانت معظم قراراته فردية أيضاً رغم ما كان يفعله من مشورة بعض من حوله، فقرار عبدالناصر بسحب قوات الطوارئ الدولية كان قرارا فرديا وهو الذى أدى فى النهاية إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧.

أما مبارك فقد اعتاد أن يدرس ويناقش قراراته ويستشير بعض مساعديه أو مستشاريه، إلا أن ذلك لا يمنع من اتخاذه قرارات فردية فى بعض اللحظات التى تتطلب ذلك مثل قرار الإفراج عن معتقلى سبتمبر ١٩٨١ وقرار إدانة الغزو العراقى للكويت.

حاول د. صلاح بيومى فى دراسته أن يجعل شخص الرئيس هو المحور الذى يبنى عليه تصوراته وآراءه ودراسته، فهو يعتبر الرئيس هو البؤرة التى تبدأ منها وتنتهى إليها عملية صنع القرار حتى تتم صياغته فى شكله النهائى، وأغلب الظن أن الدراسة ركزت على شخص الرئيس لأنه فى المجتمع المصرى تتمثل سلطة صنع القرار واتخاذه فى شخص واحد هو الرئيس حيث يحتكر صنع القرار ويمثل السلطة الآمرة فى المجتمع.

وحتى لا يعتقد أحد أن الرئيس حاكم بأمره ويستطيع أن يأخذ ما يشاء من قرارات فإن الدراسة تذهب إلى أن هناك عوامل عدة تؤثر على الرئيس وهو يأخذ قراراته.

فهناك قيود نفسية تتمثل فى الفروق الفردية بين صانعى القرار سواء فى الأهداف أو التفضيلات والقيم الذاتية والاحتياجات الخاصة والتحيز، فقرارات عبدالناصر تأثرت بانحيازه للفقراء أما السادات فقد تأثرت قراراته بانحيازه للأغنياء الذين فضل أن يكون واحداً منهم.

ضيق الوقت يمكن أن يورط الرئيس، فقد يكون الوقت ضيقا والأمر يستلزم استصدار قرارات عاجلة مثلما حدث فى قرار إدانة الغزو العراقى للكويت، فالغزو حدث فعلا.. وكان لا بد للرئيس أن يأخذ قرارات بالإدانة أو التأييد.. وكلما مرت الساعات.. ازداد الموقف حرجا.. وكان القرار فى النهاية، سلطات الدولة التشريعية والتنفيذية والقضائية قد تضغط أيضا على الرئيس، وإن كان هذا الضغط لا يصل إلى حد إجبار الرئيس على اتخاذ قرار معين، فمنذ تولى الرئيس عبدالناصر السلطة عام ١٩٥٦ وحتى الآن فإن السلطة التنفيذية ممثلة فى رئيس الدولة هى التى تملك زمام الحكم وصنع القرار السياسى سواء فى السياسة الداخلية أو السياسة الخارجية، أما السلطة التشريعية ممثلة فى مجلس الشعب فلا يوجد نص فى الدستور المصرى يشير إلى أى دور له فى صنع القرار خاصة فى مجال السياسة الخارجية، بل إن مهمته فى أحد جوانبها هى التصديق على المعاهدات التى يوقعها رئيس الجمهورية أو الحكومة، حدث هذا عندما صدق المجلس على معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى فى بداية ١٩٧١ وفى مارس ١٩٧٦ صدق المجلس أيضاً على إلغائها عقب اتخاذ الرئيس السادات قرارا بإلغائها، بل أكثر من ذلك فإن مجلس الشعب فى نهاية كل فصل تشريعى يصدر قانونا بتفويض رئيس الجمهورية فى إصدار قرارات لها قوة القانون، ثم يصدق عليها عند عودته فى الفصل التشريعى التالى..

معنى ذلك أن هناك عوامل كثيرة تؤثر على صانع القرار.. لكنها فى النهاية عوامل نظرية لا تلزم الرئيس بشئ ولا تجبره على التراجع عن شئ!..

دراسة «صناعة القرار السياسى فى مصر» قد يراها البعض مهمة لأنها تكشف جانبا خفيا لا يعرف الناس عنه شيئا فى مصر، كان يتم التعامل معه على أنه قدس الأقداس، لكن البعض الآخر يمكن أن يرى فيها دراسة غير موضوعية لأنها تناولت فترة الرئيس مبارك، وهو تناول ليس صحيحا من الناحية المنهجية على الأقل، فالمعاصرة حجاب كما يقولون.. ويمكن أن يكون هناك معلومات لم يكشف عنها بعد.. تعطى الدراسة ثراء وعمقا تفتقده وتحتاج إليه.

■■■


1
زعماء.. وحكام
عبد الناصر
رؤية خاصة

وصلنى عبدالناصر بعد أن أستقر فى كتاب الأساطير الكبير الذى يعكف على تأليفه المصريون منذ آلاف السنين، يضيفون إليه كل يوم ولا يحذفون منه شيئاً، أعجبتنى القصة التى حكاها لى أحد كبار عائلتنا من هذا الكتاب، قال لى بحماس إنه كان يجلس على مقهى فى مدينة المنصورة، وكان عبدالناصر يلقى إحدى خطبه، وعندما وصل عند قوله «ارفع رأسك يا أخى.. فقد مضى عهد الاستعباد» صاح أحد الموجودين فى المقهى قائلاً: الله أكبر الراديو بيهتز يا جماعة.. الراديو بيهتز من كلام الريس.. الله أكبر، انتظرت أن ينفى كبير عائلتنا حكاية اهتزاز الراديو هذه، لكنه أكدها بتأثر بالغ بعد أن زارت الدموع عينيه.. قال: وفعلاً يا ابنى الراديو كان بيهتز!

وعندما كنت عائداً من أحد دروسى فى الثانوية العامة وكانت حرب الخليج الثانية دائرة على أشدها، سألنى سائق الميكروباص: بذمتك اللى حصل فى العراق ده يرضى حد، قلت له: يعنى نعمل إيه؟ فرد علىّ بحماس يشبه حماس كبير عائلتنا: صحيح محدش يقدر يعمل حاجة.. وأدخل يده فى جيبه وأخرج صورة لجمال عبدالناصر وقبلها بحب قائلاً: لكن لو كان البطل ده موجود ما كنش أى حاجة حصلت من اللى حاصل دلوقتى!

حركنى هذا الموقف لأن أقرأ عن عبدالناصر أكثر، فحتى هذا الوقت - كنت قسم علمى فى الثانوية العامة - لم أكن أعرف عن عبدالناصر أكثر من أنه قائد ثورة يوليو التى حررت مصر وأخرجت الانجليز منها، ولا مانع من معرفة بعض المعلومات التى

تناثرت فى الكتب الدراسية عن تأميم القناة ونكسة ١٩٦٧، حتى هذا الوقت كنت أعرف أنها نكسة وليست هزيمة ساحقة، لم ينكسر فيها الجيش فقط، ولكن انكسر بسببها الشعب المصرى كله.

أوقعت الصدفة وحدها فى يدى بعض كتب الاخوان المسلمين التى تحكى عن تعذيب عبدالناصر لهم فى سجونه، شعرت بالمبالغة والتهويل فى بعض ما قرأت، لكنى تساءلت كيف يضع عبدالناصر بعظمته وكبريائه رأسه برأس امرأة هى زينب الغزالى، ويأمر بتعذيبها - كما قالت - حتى لو خالفته الرأى وخرجت على نظامه.

كانت مشاهد التعذيب التى أوردتها زينب الغزالى فى كتابها قاسية، لقد جعلت من نفسها إحدى شهيدات الإسلام، أو كما قال عنها اللواء فؤاد علام فى كتابه «أنا والإخوان»، كانت زينب الغزالى تعتبر نفسها رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى.

وقفت معلوماتى عن التعذيب فى سجون عبدالناصر عند الإخوان وحدهم، لكن الأيام أخبرتنى بأن الإخوان لم يكونوا وحدهم ضحايا عبدالناصر فى السجون، فقد عذب المثقفين الذين أيدوه أيضا، طرد أساتذة الجامعة من مواقعهم، حرم الصحفيين من عملهم وشردهم وحال بينهم وبين أرزاقهم، ووضع كل من يخالفه فى السجن حتى لو كان أعز الناس..

وجدتنى بعد ذلك أقع فى مشكلة تستعصى على الحل، كنت أسمع شهادة الكاتب والمفكر الكبير محمود أمين العالم على العصر، قال أنه كان فى السجن أيام عبدالناصر، كان أحد العساكر يضربه على قدميه بعصا غليظة! وعندما سأله عمر بطيشة الذى يقدم البرنامج «شاهد على العصر» وماذا كان شعورك، قال له حزيناً جدا .. لم أكن حزينا لأنى كنت أضرب بالعصا على قدمى، لكنى حزيناً لأنى لم أشارك عبدالناصر فى الانجازات التى كان يحققها خارج السجن (!!)

علامات التعجب من عندى بالطبع، فأنا لم أستوعب منطق الأستاذ الكبير فى الكلام، وعندما أدركت أبعاده جملة وتفصيلاً رفضته جملة وتفصيلاً، فإهانة الإنسان عندى

جريمة لا تغتفر حتى لو رضى بها الإنسان، وحتى لو كان مرتكبها هو جمال عبدالناصر نفسه، الذى وصلنى على جناح كتاب الأساطير!

لم تكن حكاية محمود أمين العالم وحدها هى التى صدمتنى، فالحكايات كثيرة لا تعد ولا تحصى، صلاح عيسى وقع فى هذه الثنائية فى كتابه «تباريح جريح» يحكى عن أيام سجنه يقول: كان الفصل خريفاً كهذا من عام رقمه ١٩٦٦، عاريا كنت ومصلوبا إلى مشجب حديدى فى الزنزانة رقم ٣ بمعتقل القلعة، وكنت خجلاناً من عريى، نزفت عرقى كله فى وهج كشاف ضخم سلطوه طوال الليل على عينى المجهدتين، بين الحين والآخر يطلقوننى، يعصبون عينى، يسوقوننى بالعصا تنهال على كل مكان من جسدى الذى لم يكن قد عرف الألم بعد، يسحلوننى يمسحون بى بلاط المعتقل من شماله إلى جنوبه ومن مشرقه إلى مغربه.

يكمل صلاح: تتبعثر على البلاط الكتب التى قرأتها والأفكار التى عرفتها، والأحلام التى أتوق إليها، وأبيات الشعر التى ترنمت بها، يسيل الدم من احتكاك جسدى بالبلاط، لكن الألم من القلب جاء، نزف فى صمت كبرياء شاب ريفى يخجل أن يقول آه، ويتعالى أن يتسول شيئاً ولو كان ماء الحياة، يعيدوننى إلى صليبى، عطشاناً كنت وخائفاً لكننى لم أبك، كان الصراخ ينبعث من كل الزنازين فاتوهم فيه وأنا معلق وفى شبه غيبوبة، أدركنى الجفاف فاشتهيت قطرة ماء ولو كان الثمن ما بقى من العمر، عند العصر دخل الرائد «عاصم الوكيل» الزنزانة فى يده زجاجة كوكا كولا يتناثر الثلج على مسطحها قال: ما رأيك فى الكرافتة التى ألبسها؟ قلت له: مش حلوة؟ فسألنى: ليه قلت رأيى كده، ضربنى بحافة الزجاجة أسفل ذقنى، واصل الضرب بقوة حتى كاد يخلع فكى، مدببة فتحة الزجاجة، لم أحس بالألم، انعشنى ملمسها البارد، وملأت رائحتها الشهية خياشيمى، استرددت بعضا من وعيى الغائب نتيجة لضرباته، قال: تعرف أنا رايح فين؟ وأكمل: رايح السينما مع بنت زى القمر، أرجع الاقيك اتكلمت يا ابن «.....».

تذكر صلاح عيسى عندما سمع هذه الكلمة وجه أمه الوضئ، وهى تستيقظ كل فجر لتتوضأ وتصلى، وسمع فى الصمت الذى أعقب رحيل معذبه، صوت دعاء أمه الخاشع فى وقت السحر: يا رب يبارك فى عافيتك يا صلاح يا ابن بطنى ويكفيك شر سكتك!

بعد هذه المرارة.. قرأت لصلاح عيسى كلاما يدعو فيه أن يظهر جمال عبدالناصر آخر، قال فى مقال احتفل به بمولد عبدالناصر الذى يهل علينا فى ١٥ يناير من كل عام، قال: فى صباح يوم ميلاده ابتسموا .. من يدرى، ربما يولد اليوم أو غدا، إن لم يكن قد ولد فعلاً فى حارة ما، من شارع ما، طفل آخر، تلهمه الأمة وتتدافع فى شراعه، تصنع بطولته، تمنحه القدرة على تحدى القهر والهزيمة وتضاؤل الأحلام واسترداد ما ضاع، وما قد يضيع، وختم صلاح مقاله الذى نشره فى جريدة الأهالى فى ١٢ يناير ١٩٨٣ ببعض من قصيدة أحمد فؤاد نجم التى يقول فيها: غنوا اليوم للأم التى ولدته / سلامتك يا أمة يا مهرة / يا حبالة يا ولادة / يا ست الكل يا طاهرة / سلامتك من ألام الحيض / وم الحرمان والقهرة / سلامة نهدك المرضع / سلامة بطنك الخضرة.

هذه الازدواجية الشديدة، رغم أنى فهمتها لكنى رفضتها، فكيف أدافع عن سياسات من أضاع إنسانيتى، وأهان كرامتى وبعثرها على الأرض، هذا ما فعله عبدالناصر ليس فى المثقفين فقط، ولكن فى كل فئات الشعب المصرى حتى الذين أحبوه وقدسوه ووصل الأمر ببعضهم إلى أنهم عبدوه، لم يكن عبدالناصر صادقاً عندما قال فى خطاب المنصة الشهير، لقد علمتكم الكرامة، وإذا مات عبدالناصر فكلكم جمال عبدالناصر، لقد فات على الرجل الكبير أن الكرامة لا تعلم ولا يمنحها أحد لأحد، ولكنها شعور داخلى إما تملكه أو لا تملكه، لم يكن المصريون كلهم عبدالناصر.. فقد كانوا عبيداً له يستمدون قوتهم من قوته وكرامتهم من كرامته، ربطوا أنفسهم به ولذلك عندما انكسر ١٩٦٧ انكسر المصريون جميعاً!

قد يتجاوز جيلى الذى لم يعش عصر عبدالناصر ولا نعم بحماسته، عما حدث فى السجون، ويسلم عقله للشيطان ويصدق أن ما حدث فى السجون كان من وراء ظهر عبدالناصر، لكن كيف نتجاوز عن المهزلة التى جرت على يديه فى ١٩٦٧ .. المهزلة يحكيها محمود الجيار سكرتير عبدالناصر الخاص فى مذكراته التى نشرتها مجلة روز اليوسف فى يناير عام ١٩٧٦.

قال الجيار: بعد أن سددت إسرائيل ضربتها صباح ٥ يونيه إلى جميع المطارات المصرية، خرج عبدالناصر من مبنى القيادة حوالى الواحدة ظهراً وقد تهدل كتفاه وتغيرت ملامحه، ولم يعد يريد أن يسمع أو يتكلم، وفى البيت صعد إلى غرفته فى صمت تام، وأغلق الباب وراءه واختفى تماما، اختفى ثلاثة أيام.

ثلاثة أيام كاملة قضاها الجيار فى بيت عبدالناصر، والرئيس لا يبرح غرفته وكل صلته بالعالم الخارجي عن طريق أسلاك التليفون، ثلاثة أيام جرت فيها أعنف معارك الحرب، وهو لا يغادر حجرته، ولا يقابل أحداً على الاطلاق، وأصبح موقفه هذا لغزاً محيراً، تساءل الجيار: هل انهار عبدالناصر، فها هو معتصم فى حجرته، لا يشارك فى حرب تهدد بلاده وثورته ومستقبل شعبه، عاش سؤال الجيار بلا جواب حتى مساء ٨ يونيو، عندما أمر عبدالناصر فجأة باعداد سيارته للذهاب إلى القيادة.

نزل عبدالناصر من غرفته وقد تحول إلى شخص آخر مختلف تماماً، شخص شديد المرح، مفعم بالسعادة، متشوق إلى المزاح، حتى هذه اللحظة لم يكن الجيار يعرف سر ما حدث من عبدالناصر وسر اعتكافه ثلاثة أيام كاملة، ولما عرف قال: أن عبدالناصر لم يعتصم بحجرته ليهرب من المعركة ولكن ليدبر ضربة مضادة تغير ميزانها (!!) - وعلامات التعجب من عندنا أيضا - فهو قد ترك القيادة العسكرية تواجه مهام القتال وانصرف عن طريق التليفون يتصل بالعالم الخارجى، ويطلب من أصدقائه أن يعينوه بقوة طيران جديدة تقلب الميزان على جبهة القتال.

حصل عبدالناصر من خلال اتصالاته فى فترة اعتكافه على ٤٥ طائرة من الرئيس بومدين، وحصل من السوفيت على قطع غيار تكفى لاصلاح عدد كبير من الطائرات التى ضربت على الأرض، وكان تقدير عبدالناصر - المغيب بالطبع - أن ظهور هذه الطائرات فجأة سيقلب ميزان المعركة، لأنه أولا سيرفع معنويات الجنود المصريين الذين يئسوا من أى غطاء جوى، وثانيا سيربك القيادة الإسرائيلية التى اطمأنت إلى أنها لن تواجه بأى طيران مضاد، ومن هنا كان تفاؤل عبدالناصر ومرحه مساء ٨ يونيو، عندما نزل من حجرته لأول مرة، واتجه إلى القيادة ليبشرها بمائتى طائرة جديدة تحت تصرفها.

عندما وصل عبدالناصر إلى مقر القيادة، كان كل شئ قد انتهى، احتدت المناقشة بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، وخرج عبدالناصر تبدو عليه ملامح صدمة لم يكن يتوقعها.. صرخ فى وجه عبدالحكيم عامر: احنا الاثنين ضحكنا على الشعب واحنا الاثنين لازم نمشى، فهز المشير رأسه وقال: ونجيب مين؟ قال عبدالناصر: ماعرفش لسه ح أفكر، وساد صمت لحظة، ثم قال المشير: ايه رأيك فى شمس؟ فقال عبدالناصر: أفكر، ثم استدار وخرج من الحجرة، لكنه وهو يخرج لم يكن نفس الرجل، كان يجر قدميه عاجزاً عن المشى، كل ما قاله عبدالناصر للجيار وقتها كان: تصور يا جيار «حنقبل وقف إطلاق النار، وكان تعليق الجيار الوحيد هو : الراجل ح يموت الليلة دى.. لازم نشوف طريقة ننقذه، لم تكن هناك طريقة بالطبع.. فقد انتهى عبدالناصر فى هذه الليلة!

انتهى كثورى عظيم وكقائد مهم.. لكن دراويش عبدالناصر هم الذين أبقوا عليه، أن ما حدث من ٥ يونيو إلى ٨ يونيو وبالطريقة التى حكاها الجيار، يجب أن يخضع للمحاكمة.. أن يحاكم هؤلاء الذين عبثوا بالشعب واعتبروه إرثا ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، لقد ظل عبدالناصر معتكفا فى حجرته بعد الهزيمة كأنه نبى ينتظر الوحى، ترك المعركة والضحايا والجنود الذين راحوا قتلى بلا غطاء جوى ليتصل بالعالم بالتليفون، وكأنه ناظر زراعة، وليس رئيس دولة يجب أن يجتمع بمستشاريه ورجال دولته ليبحث عن مخرج، لقد أكد هذا الموقف أنه لم يكن هناك نظام ولا دولة ولا شئ من الكلام الكبير الذى يردده عبدالناصر فى خطبه!

أنصار عبدالناصر سيقولون لنا - نحن أبناء الجيل الذى يحاول أن يفكر بمفرده - أن دولاً كبرى هزمت وامبراطوريات عظيمة تفككت، وأن عبدالناصر لم يكن أول المهزومين ولن يكون آخرهم، ولكن على مدار التاريخ كانت الهزائم بأسباب منطقية، أو على الأقل لها أسباب، لكن هزيمتنا فى ١٩٦٧ التى قادها عبدالناصر كانت عبثية أكثر مما نحتمل، لم تكن هناك أسباب واضحة، مع احترامنا الشديد للمؤامرات الدولية التى أجهضت نظام عبدالناصر، فطوال تاريخنا هناك مؤامرات لتدميرنا.. لكن هذه هى المرة الأولى التى يقدم فيها قائد نفسه لقمة سهلة وسائغة لأعدائه كى يفترسوه.

لقد انكسر عبدالناصر فى ١٩٦٧ بعد أن كسر المصريين جميعاً.. وعندما وقعت هزيمة ١٩٦٧، جاءت على البقية الباقية من الجميع، ولذلك من الحق أن نقول إن عبدالناصر هو الذى أفقد المصريين القدرة على المقاومة، لقد قمع الجميع فى عهده بلا رحمة ولا شفقة، لم يعل صوت فوق صوته، ولم تظهر رأس إلى جوار رأسه، لقد عاش المصريون فى ظل عبدالناصر وهماً جميلاً قاموا منه على صدمة أريكتهم وشتت شملهم، وجعلتهم يزهدون فى مقاومة أى شئ حتى لو كان يهدد حياتهم!

عندما يقف عبدالناصر أمام مرآة جيلى أراه فيها مشوها، قد يكون حرر الوطن لكنه استعبد المواطن وبعثر كرامته، فليس صحيحاً أنه حرر الأرض العربية، فعندما مات عبدالناصر فى سبتمبر ١٩٧١ كانت سيناء محتلة وجنوب لبنان محتلة والجولان محتلاً وفلسطين كلها محتلة. فأين التحرير إذن، وعندما مات كان المصريون مستبعدين، ولعل هذا يفسر خروجهم ليطالبوه بالبقاء!

كان طبيعياً أن يخرج المصريون ليطالبوا عبدالناصر بعدم التنحى، لأنه جعلهم مسلوبى الإرادة لا يستطيعون أن يقاوموا أو يعملوا شيئا بأنفسهم فقد جعلهم اتكاليين، لا يقدرون على حسم شئ.. ولذلك لمن سيتركهم، كان المصريون فى مظاهرات ٩ يونيو التى رفضوا فيها تنحى عبدالناصر مثل الاطفال الصغار الذين قرر عائلهم أن يتركهم فى العراء فبكوا بشدة حتى لا يرحل.

وكان طبيعياً أيضاً أن يشعر المصريون باليتم بعد موت عبدالناصر، فقد اعتمدوا عليه طويلاً وها هو يموت ويتركهم وحدهم دون أن يعلمهم كيف يعيشون أو يتصرفون فى الحياة، كان عبدالناصر يتصرف فى البلد وكأنها ضيعته الخاصة لا يمنع هذا أن يكون الرجل شريفاً ونزيهاً ونظيف اليد، فهذه صفات يجب أن تتوفر فى الحاكم خاصة إذا كان يقدم نفسه على أنه مشروع لتحرير الوطن، فليس ميزة فى عبدالناصر أنه لم يسرق، وليس ميزة فيه أنه لم يكن يحب النساء أو يشرب الخمر أو يعرف الليالى الملاح، هذه ليست سمات فهى ضرورة.

أنا واحد من جيل عرف عبدالناصر من الذين كتبوا عنه.. وأقول أن ما فعله عبدالناصر يحتاج إلى محاكمة، فقد باع واشترى فى البلد، لقد تعجبت عندما قرأت صلاح عيسى عندما كتب: لماذا اختار عبدالناصر أنور السادات دون كل زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة الآخرين لخلافته؟ والإجابة كما يعتقدها صلاح أن عبدالناصر كان سيعلم أن المصريين سيقارنون بين الرئيسين، وكان يعلم بأننا فى النهاية سوف نترحم عليه ونتسامح مع أخطائه، أى أنه اختار السادات لخلافته على طريقة يا ناكر خيرى بكره تعرف زمنى من زمن غيرى، بالذمة هل هذا كلام.. يا أخى (....)!

●●

هل كان عبدالناصر ملحداً؟

حاول كل من اشترك فى المشروع القومى لتشويه جمال عبدالناصر - وهو المشروع الذى بدأ فى عصر السادات - أن يصوره وكأنه رجل غليظ القلب بلا مشاعر، ولا إحساس إيمانى يدفعه لأن يتقى الله فيما يفعله، فعزف بعضهم على لحن واحد تؤكد نغماته أن عبدالناصر كان يعتقد أنه إله.. وليس على من حوله إلا أن يعبدوه ويقدموا له كل صباح قرابين الولاء والطاعة، ومن يعصاه يخرجه على الفور من رحمته.. فمن لم يرض بقضائه فليخرج من تحت سمائه، ولم يكتف بذلك بل كان يعذب معارضيه بطريقة وحشية، أوصلت البعض إلى اعتباره حارس جهنم، وفى مذكرات زينب الغزالى أنها قالت لمعذبيها بأمر عبدالناصر :اتقوا الله فأين تذهبون من حسابه؟ فقالوا لها إن الله موجود فى الزنزانة التى بجوارك يأخذ نصيبه من التعذيب.

وليس عندى شك فى أن جمال عبدالناصر كان يعذب معارضيه، ويذيقهم أشد العذاب، ولكنه كان يفعل ذلك باعتبارهم معارضين سياسيين، وليس عبيداً عصاة ارتكبوا الذنوب فى حق إلههم الذى يجب أن يطاع، رغم ذلك فإن خصوم عبدالناصر الذين حاولوا تجريده من كل ميزة.. وخصم كل إنجاز من سجلاته، صادروا كل المعانى الروحية التى كان يتمتع بها، بل جعلوا منه دجالاً ومشعوذاً وعاجزاً يستعين بالأرواح لتعينه على أخذ القرارات المهمة.

فعل ذلك إبراهيم بغدادى محافظ القاهرة الأسبق.. حيث أكد أن عبدالناصر كان يعقد جلسات تحضير الأرواح فى منزله بشارع الجلالى بالعباسية قبل الثورة واستمرت إلى ما قبل موته، وأنه أى البغدادى كان يحضر هذه الجلسات بعد الثورة وكان يحضرها معه سمير حلمى رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات والذى لقى مصرعه فى حادث المنصة الذى اغتيل فيه السادات، ويذكر موسى صبرى أن الأرواح حذرت عبدالناصر من السادات وأخبرته بأنه يسعى لأن يكون خليفته فى حكم مصر، وكان طبيعياً أن يفكر عبدالناصر ألا يخلفه السادات بعد موته، ويضيف بغدادى أن عبدالناصر كان يعقد جلسات الأرواح ليبعد الأنظار عن نشاطه السياسى وعادة من يحضر جلسة الأرواح لا يتكلم فى السياسة، وأنه شاهد فى الجلسات التى كان يعقدها عبدالناصر جمال العبد وعبدالقادر مهنى وحسنى عبدالنبى.

لم يكتف إبراهيم بغدادى بذلك.. يقول: إن عبدالناصر كان مؤمناً بهذه الجلسات وأهميتها وأنه كان يستعين بالدكتور رؤوف عبيد الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة القاهرة وهو حجة فى هذا المجال وله كتب علمية فى تحضير الأرواح كوسيط وأنه كان يفضل هذه الجلسات على أى اهتمامات أخرى، ليس هذا فقط.. بل إن عبدالناصر - كما يقول بغدادى - كان يبدو فى حالة خطيرة بعد انتهاء الجلسات حيث يصاب بحالة ذهول ودوخة وهذيان لمدة دقائق يستعيد بعدها قواه الذهنية ويبدو طبيعياً.

وحتى لو سلمنا بأن عبدالناصر كان يؤمن بتحضير الأرواح.. فإن ذلك لا يمنعنا من التأكيد على أنه كان مؤمناً مثل كل المصريين.. تدينه كان تدين الشعب المصرى الذى يتعرف إلى الله فى الشدائد.. وقد ظهر ذلك بشدة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى كانت انكساراً عاماً وشاملاً.. وكان عبدالناصر هو المسئول الأول والأساسى عنها، لقد اعتبر عبدالناصر أن الهزيمة إنما هى غضب من الله وعقاب للناس لأنهم ابتعدوا عنه وتخلوا عن الصراط المستقيم الذى رسمه لهم الدين.. ولعل هذا يفسر لنا ما حدث فى اليوم الثانى للهزيمة فقد أرسل عبدالناصر رسالة للملك حسين ملك الأردن قال له فيها: هذه

إرادة الله لعل فى إرادته خيرا لنا، إننا نؤمن بالله ولا يمكن أن يتخلى الله عنا، لعل الأيام القادمة تأتينا بنصر من عنده.

كان عبدالناصر مؤمنا عاديا.. لا يتظاهر بإيمانه.. فلم يحرص مثلا على أن يلقب نفسه بالرئيس المؤمن.. أو يتعمد أن تلتقط له الصور وهو يصلى أو يقرأ القرآن.. بل إن الصور التى يحتفظ بها أرشيفه.. وهو يؤدى الشعائر من صلاة وحج تأتى صورا تلقائية للغاية.. صور رجل يؤدى الشعائر لوجه الله.. وليس لوجه الكاميرا كما فعل غيره.

إن جبروت عبدالناصر لم يمنعه أن يكون ملتزما.. الالتزام الذى يحكم به الناس على الآخرين بأنهم من أهل الله.. والتفاصيل فى ذلك كثيرة.. لقد كان كثير من ذوى الحاجات من الفقراء يذهبون إلى بيته فى منشية البكرى يطلبون ويشرحون ظروفهم المعيشية والأسرية، وكان هؤلاء سواء عن طريق الكتابة أو عن طريق شرحهم لحالاتهم يخاطبون جمال عبدالناصر بتلقائية ومصداقية ويبثون إليه متاعبهم وشكاواهم وهمومهم.

وكثيرا ما طلب عبدالناصر أن يطلع على أصول رسائل أو شكاوى الناس كما وردت من أصحابها دون تدخل من مكتبه لعرضها أو تلخيصها، وكان إذا أحس أن موضوع الشكوى يمس شريحة من المواطنين يطلب بحث المشكلة، ويصدر قراراته بحلها إن أمكن إداريا، أو يطلب صدور قرار جمهورى أو إصدار تشريع لحل هذه المشكلة، وكانت هناك الكثير من المسائل الإنسانية تحل فورا خصوصا إذا كانت واضحة المعالم، أما الشكاوى الأخرى التى كانت تبحث بواسطة الجهات المعنية، ومن تثبت أحقيته كان يصدر التوجيهات باستدعاء صاحب المشكلة ويناقشه فى طريقة حلها ثم يتابع بنفسه طريقة الحل، وكانت المتابعة تشكل جزءا هاما من أسلوب تعامله سواء على مستوى الدولة أو مستوى الأفراد، وكثيرا ما كانت النوتة التى يسجل فيها ملاحظاته تحوى ملخصات بموضوعات وتواريخ اتخاذ القرارات الشخصية منه، وفى بعض الأحيان كانت المتابعة تتم للمرة الثانية والثالثة وهكذا إلى أن تحل المشكلة.

وقد يعتبر البعض أن ما كان يفعله عبدالناصر مع مشاكل الناس جزء من دوره السياسى، فالحاكم لا بد أن يباشر أمور رعيته.. لكن عبدالناصر كان يفعل ذلك بدوافع

إنسـانيـة تؤكد أنه كـان يؤمن بـحق الناس فى أن يعـيشـوا حـيـاة كـريمة.. لا إهدار فـيـهـا لآدميتهم ولا امتهان لكرامـتهم.. ويؤكد ذلك أنه كان يعـيش حياة تجعلنا نصـفه بالزاهد أو الصـوفى.. الذى لم تغره السلطة ولـم تجعله يعيش حيـاة الملوك.. فقـد كانت حياته عـادية للغاية.

أما عن الزهـد فحدث ولا حرج.. لقد رفض عـبدالناصـر بإصرار وإلى أن مات أن يزود بيته بأى أثاث جـديد على حساب الجيش والتـزم بأن يكون كل تجـديد للأثاث من مرتبه، ويحكى محمود الجيار السكرتيـر الشخصى لجمـال عبـدالناصـر أنه يذكر يوما نشب فيه خلاف حـاد بين عبـدالناصـر وبين السيـدة زوجتـه.. وكـان السبب فيـه قطعة أثاث، كانت هدى عبـدالنـاصـر تـذاكـر على مكتب صـغيـر ثمـنه لا يزيد على ١٥ جنيهـا، فلمـا تخرجت قـررت أن تهدى هذا المكتب إلى بنت خـالتهـا التى لم تتـخـرج بعد، ووافقـت السيـدة حـرم عبـدالناصـر لكن هذا المكتب كان عهـدة، ذهب المسئول عـن العهـدة يبلغ محـمـد أحـمـد سكرتيـر الرئيس أن المكتب خرج من البـيت دون إذن صـرف وذهب مـحمـد أحـمـد ليـبلغ الرئيس، وإذا بعبدالنـاصر يثـور على زوجته، ودهشـت السيدة تحيـة فلم تكن تتصور أنهـا لا تملك حـرية التـصـرف فـى قطعـة من الأثاث التـى فى بيتـهـا لا يتـجـاوز ثمنهـا ١٥ جنيـهـا، ولكنهـا فهمت عندمـا قـال لهـا عـبدالنـاصـر: اطلبـى أى مبلغ واشـتـرى مكتبـا تهـدينه لمن تشاءين أما هـذا المكتب فيجب أن يعود لأنه ليس ملكا لنا.. وعـاد المكتب بالفعل.

هذا عن الأثاث - أمـا عن الطعـام الذى كان يتناوله عبـدالناصـر فـحـدث ولا حـرج.. ويحكى محمود الجيـار فى مذكراته التى نشـرتها له مجلة روز اليـوسف عام ١٩٧٦ بعنوان «الأسـرار الشـخصـيـة لجمـال عبـدالناصـر.. يقـول: عـاش عبـدالنـاصـر ومـات وطعـام بيتـه وأولاده لا يتـغيـر: أرز ولحم وخضـار، ولم يحدث أن شـاهـدت فى حيـاتى طعامـا يأتى إليـه من الخـارج بالطـائرة، والطعـام الوحيـد الذى حملتـه الطـائرة لعبـدالنـاصـر كـان من مصـر وكـان يصحبـه إلى الخـارج، وكنـت أنا الذى أحـمله، وكان هـذا الطعـام كـالذى يتـزود بـه أهل الصعيد عندما يرحلون بعيدا، أصنافا من النواشف أهمها الجبن والخبز الجاف.

ويكمل الجيار: وأذكر أننى فى رحلة عبدالناصر إلى باندونج ملأت عددا من الحقائب بهذا الطعام، وفى الطريق نزلنا باكستان، واستضافونا هناك فى قصر كقصور ألف ليلة ولكننى صحبت معى إلى القصر حقائب الجبن والخبز ووضعتها فى حجرة عبدالناصر، ووصف عبدالناصر المشهد لزملائه من رجال الثورة بعد عودته قائلا: دخلونا فى قصر مهول وأوضة النوم زى اللى بنقرأ عنها فى الكتب. وأبص ألاقى الجيار داخل على شايل القفف، بقيت أقول يا رب ما يعرفوا جواها ايه.

أكل عبدالناصر من هذه القفف.. وعندما سافر إلى أندونسيا حمل الجيار معه الأكل الناشف، وكان الطعام فى أندونسيا غريبا على الذوق المصرى، خبز من الموز وأشياء من هذا القبيل.. فكان بعبدالناصر عمليا لا يأكل، وكان هناك أيضا طعام أوروبى ولكن ذوق عبدالناصر لم يكن يستسيغه ويحكى الجيار: ذات يوم طلبنى عبدالناصر وكانت حجرتى فى جميع الرحلات تلاصق حجرته وقال لي: أنا خلاص ح أموت من الجوع، قلت له: «أنا قلت نجيب معانا طباخ وأنت رفضت والناس هنا مايعرفوش يطبخوا غير كده، فرد عليه عبدالناصر، وأنتم ما تعرفوش تطبخوا.

فى هذه الليلة أكل عبدالناصر أسوأ ما نجح الجيار فى طهيه على الطريقة المصرية، كان الأرز كالعجين نصفه محروق وحلة الخضار يرفض الجنود فى الميدان أن يأكلوها، ولكنه فى هذه الليلة أكل بشهية وكانت أول ليلة يشبع فيها.

بقى أن نتحدث عن السهرات واللهو فى حياة عبدالناصر.. وليس غريبا أو مجهولا أن سهرات عبدالناصر كلها كانت فى بيته، مع زملائه من رجال الثورة فى صالون بيته، وإما مع أولاده أمام شاشة السينما الخاصة التى كانت فى الدور العلوى، ولم يستطع أحد أن يثبت أن عبدالناصر طوال حياته شرب كأسا من الخمر أو ضبطه أحد يقضى سهرة حمراء فى مكان مشبوه، خارج البيت لم يكن يسهر إلا فى حفلات زواج أبناء أصدقائه أو فى حفلات رسمية كحفلات ذكرى الثورة. وفى بعض الأوقات كان عبدالناصر يقرر أن يتمرد على هذا الحرمان.. ويتجرد من القيود الرسمية.. فيأخذ قرارا بأن يقضى نزهة

حرة خارج البيت.. وكانت هذه النزهة عبارة عن الفرجة على فاترينات المحلات فى شارعى فؤاد وسليمان باشا، لم يكن عبدالناصر يخرج فى هذه النزهة وحده، كانت تعد له سيارة عادية يقودها محمود الجيار ويركب معهما محمد أحمد، وعندما يصلون إلى الشارع المقصود ينزل عبدالناصر ويمضى ليتفرج على واجهات المحلات.. وعندما يبدأ الناس ينتبهون له، كان الجيار يقترب منه بالسيارة فيركب بسرعة ليعود إلى البيت.

أما عن اللهو فقد كان كل اللهو فى حياة عبدالناصر مركزاً فى اجازات الصيف.. ففى برج العرب كان هناك مقر تعود على ماهر رئيس الديوان الملكى ورئيس الوزراء قبل الثورة أن يقضى فيه اجازاته الخاصة، ذهب عبدالناصر ذات يوم مع زملائه ليقضوا اجازاتهم فى هذا المقر، ولكنهم تجولوا على الشاطئ حتى وصلوا إلى كشك خشبى فى منطقة مجاورة اسمها «سيدى عبدالرحمن».. أحب عبدالناصر الكشك والمنطقة وظل يتردد عليها كلما سمحت الظروف ويضرب فيها الخيام مع زملائه.. وهناك كان يلهو ويتمتع على راحته.. وقبل أن يذهب خيالك بعيدا لتتصور لهو عبدالناصر.. أقول لك.. إن لهوه كان فى أنه يلبس الشورت بدلاً من البدلة كاملة، وبأن يلعب الشطرنج، وأن يقرأ ويكتب ويفكر فى الخطوط العريضة لسياسته عندما يعود إلى القاهرة، لم يتمتع عبدالناصر بهذا اللهو طويلا فعندما بدأ الاهتمام بالسياحة فى مصر، ونشط المخططون لها نبههم عبدالناصر إلى موقع سيدى عبدالرحمن وعندما شرعوا فى استغلاله لم يعد ممكناً أن يجد فيه الملاذ الذى اعتاد أن يلجأ إليه، ولم يجد عبدالناصر إلى أن مات موقعا آخر بديلا يمكن أن يلهو فيه.

هذا عن عبدالناصر الزاهد.. أما عبدالناصر الصوفى فتجده عند حسن عباس زكى الذى عمل لفترة مع عبدالناصر وزيرا للاقتصاد، لم يقل عباس زكى إن عبدالناصر كان صوفيا كاملا ولكنه كان على الطريق.. حيث كانت بينهما خلوات روحية وإشراقية ولقاءات لم يكن يحكمها البروتوكول التقليدى بين الرئيس والوزير، وحتى فى قضايا الدولة العليا كثيرا ما كان يتم الاتفاق عليها خارج مجلس الوزراء.

وفى الحوار الذى أجراه حسن عامر مع حسن عباس زكى ونشرته روز اليوسف عام ١٩٩٤ ذكر الوزير عدة وقائع لا تؤكد صوفية عبدالناصر فقط.. ولكن تؤكد أنه كان يحاول أن يراعى الله فى كل قراراته..

الواقعة الأولى: يحكى حسن عباس زكى: أذكر أننى حذرت عبدالناصر من النظام المصرفى كميراث للاستعمار قلت له، إن النظام المصرفى يعبث بمقدرات الأمة والأفراد ويشجع الأفراد على الاكتناز والجبن، ومن هنا انتشرت العبارة الشائعة أن رأس المال جبان وأنه يفضل الملاجئ الآمنة حتى وإن كانت ضد صالح الوطن والمجتمع والناس، فالبنوك تجمع المدخرات باعتبارها ملاجئ آمنة، وتدفع مقابلا للإدخار يعرف بمعدل الفائدة، سألنى عبدالناصر: لكن البنوك لا تقبل الودائع فقط، بل تقدم القروض من أجل العمران الذى تتحدث عنه؟.. قلت له نعم.. لكن ما هو المقابل لذلك.. المقابل معدل فائدة متصاعد ومتضاعف، إن معدلات الفائدة تضاف دائماً وأبداً إلى تكلفة السلع والخدمات وكلما ارتفعت تكلفة السلع والخدمات تدهورت الأوضاع المعيشية للفئات الاجتماعية الأكثر فقرا وقهرا.

سأل عبدالناصر عباس زكى قائلا: وما هو البديل يا حسن، فرد عليه: نلغى الفائدة، فقال عبدالناصر بلهفة كيف؟.. فرد الوزير: المسألة بسيطة للغاية.. أن يتحول نظام الإيداع المصرفى بالفوائد إلى نظام مشاركة فى رأس المال والأرباح.. ويمكن أن يتم ذلك بأن نبدأ التطبيق على بنك التسليف الزراعى، إن الفلاحين فى هذا البلد هم أكثر الناس عرضة للخراب بسبب نظام الفوائد المصرفية، هل تذكر يا سيادة الرئيس كيف استولى الأجانب على أراضى الفلاحين المصريين، كان بنك التسليف بداية الخراب، أغرقهم بالقروض ثم أغرقهم فى الإفلاس.. الفلاحون يا ريس هم أحق الناس بالرعاية بعد العذابات الطويلة التى تعرضوا لها.

كان عباس زكى يتحدث وعبدالناصر مستغرقا فى التفكير.. وفجأة التفت له قائلا: حسن المسألة صعبة وعاوزة تفكير، وبعد أيام كان على الهاتف محمد أحمد سكرتير

الرئيس وقال لحسن: الريس بيسألك فاكر موضوع البنوك، حضر له مذكرة مختصرة حول الموضوع كى يتناوله فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٦١، أعد حسن عباس زكى المذكرة وسلمها إلى الرئاسة وكان تعليق عبدالناصر على ذلك: «فى بلدنا طبعا كلنا نكره الربا ونكره الفايدة لكن التعامل الاقتصادى مش بهذا الشكل، بنجرب نلغى الربا فى بنك التسليف، حنسلف الفلاحين دون أى فايدة عاوزين نقضى على الربا»، أما تعليق حسن عباس زكى على ما قاله عبدالناصر: تصوروا لو أن عبدالناصر ليس لديه هذا الإحساس الإيمانى العميق.. لو لم تكن لديه كل هذه الصوفية.

الواقعة الثانية يحكيها عباس زكى: عندما خرجت من الوزارة لم تتقطع علاقتى الخاصة بالرئيس وكثيرا ما كان يطلبنى للمقابلة والمناقشة وفى إحدى المرات ذهبت إليه، كان فى حالة عميقة من الإحباط والضيق، طيبت خاطره وقلت له: عندما أكون فى هذه الحالة أتوضأ وأصلى وأتأمل الخالق الأعظم أناجيه وأدعوه، إن ثوابك عظيم يا سيدى الرئيس على قدر رؤيتى الروحية، تكفى صلواتك الخمس مع كل هموم الشعب ومشاكله التى تحملها فوق كتفيك، يكفى ذلك لتكون الجنة مثواك. ومع ذلك فأنت فى حاجة بين حين وآخر أن تقطع الطريق على نوبات الإحباط والضيق.

وضع عباس زكى الحل أمام جمال عبدالناصر، قال له: ربما يحتاج الأمر إلى جلسة روحية مع أحد الأولياء الصالحين، جلسة مصارحة ومكاشفة للرب الخالق الأعظم، جلسة تطهر وشفافية، لن تندم يا سيدى الرئيس لو جربت، سأله عبدالناصر بتلقائية: عايزنى أعمل أيه يعنى، فقال له الوزير الذى كان فى وقتها سابقا: انصحك باستضافة العارف بالله الشيخ أحمد رضوان، هذا الولى يقيم فى قنا، لا تنزعج من مظهره، إن هؤلاء الناس لا يلقون بالا لهذه الشئون الدنيوية، اجلس معه واكشف له عن مواجعك تخفف مما يثقل ظهرك فإن مع العسر يسرا.

ويبدو أن حالة الضيق التى ألمت بعبدالناصر كانت عنيفة للغاية، فقد استجاب بسهولة لاقتراح حسن عباس زكى قال له: طيب ياسى حسن كيف نأتى بالشيخ أحمد رضوان،

فقال له: اترك الأمر لى، سافر عباس زكى إلى الشيخ أحمد رضوان وطلب منه أن يزور الرئيس، فأقبل الشيخ على الزيارة وتم اللقاء وعند الوداع وقع أمر التبس على عبدالناصر، فاتصل بحسن قائلا له: يا حسن شئ ما أغضب الرجل منى، سأله: «ماذا حدث» فقال جمال: قدمت إلى الرجل علبة صدفية وبها بعض الفلوس رفضها وغضب، فرد حسن: لا عليك هؤلاء الناس لا يهتمون بالدنيا وما فيها.. دعنى أصلح الأمر.

ذهب حسن عباس زكى إلى الشيخ رضوان وسأله عما حدث، تمنع الشيخ فى البداية فقال له حسن: إن الناس يدعوك لزيارته مرة أخرى فرحب الشيخ رضوان مستبشرا وكأن شيئا لم يقع، ويقول عباس زكى: زال الإلتباس وبقى الاشراق وقبل الزيارة قلت للرئيس أعطه مسبحة أو مصحفا وبعد الجلسة الثانية سارت العلاقة بين الرئيس والعارف بالله الشيخ أحمد رضوان ولم اتدخل فى الأمر بعد ذلك فقد عرف كل منهما طريقه إلى الآخر.

كان هناك ود متبادل بين جمال عبدالناصر والصوفيين.. بل كان هناك اعجاب من بعض أقطاب الصوفية الكبار بالرجل.. والواقعة الثالثة تؤكد ذلك.. بطلها كما يقول عباس زكى رجل سودانى من آل الطريق اسمه - السيد البدوى السمان - كان الرجل فى خلوته الليلية يصلى ويقرأ الأوراد، كان الصمت سائدا مجردا من مفردات الحياة لا مكان للدنيا ولا زمان للروح.

فجأة تنبه السيد البدوى السمان إلى شئ ما اخترق الجدار وسقط على الأرض، تلفت الرجل فوجد خاتما لامعا لا هو بالذهب ولا هو بالفضة ولا هو من أى معدن يتعارف عليه البشر، أدرك الرجل أن الخاتم جاء من عالم آخر يعرف أبعاده الواصلون على طريق الله، استلقى الرجل غير نائم، سمع هاتفا يقول: سلم هذا الخاتم إلى جمال عبدالناصر، كان الهاتف أمرا ومثل هذه الهواتف لا ينكرها المتصوفة.. بل يعملون على تنفيذها مهما كانت العواقب والعقبات.

سلم السيد البدوى السمان أمره إلى الله ودعاه أن يسهل له مهمة تسليم الوديعة السماوية إلى صاحبها بعد أيام دعى الرجل إلى «ونسة» سودانية يقيمها أحد الضباط

الذين يقطعون الطريق إلى الله قال الرجل : سأذهب إلى مصر ممثلا للقوات المسلحة السودانية فى احتفالات الثورة المصرية، قال السمان: خذنى معك، أجاب الضابط: على الرحب والسعة ما فى مشكلة، فعلق السمان: لا فيه مشكلة، أنا أريد أن أقابل جمال عبدالناصر، قال له الضابط ببساطة: ما فى مشكلة المفروض أن أجلس على المنصة التى يلقى منها جمال عبدالناصر الخطاب، فى هذه الحالة سأقول إنك رفيقى فى تمثيل القوات المسلحة السودانية، ولن أجد أى مشكلة فى أن تكون إلى جانبى على المنصة وتستطيع بعد الخطاب أن تلتقى بعبدالناصر وتتحدث إليه كيفما شئت.

فى القاهرة وجد السمان نفسه وجها لوجه أمام جمال عبدالناصر، بعد أن ألقى عبدالناصر خطابه ذهب ليرحب بالسودانيين ويتباسط معهم فى الحديث قال لهم: إنه لا ينسى الأيام التى قضاها ضابطا فى السودان وسألهم عن بعض العائلات وعن الأحوال وعن ليالى الونسة، فقال له السمان: يا سيدى الرئيس أنا رجل فقير إلى الله، ما كان مقدرا لى أن أكون هنا الليلة لولا ليالى الونسة التى فتحت لى الطريق إليك، فهل تسمح بأن تقبل هدية متواضعة من الرجل الفقير إلى الله، قال عبدالناصر بعد أن رأى الخاتم: بكل ترحيب ووضع الخاتم فى يده قائلا: هذه بركة من السودان فكيف أرفضها.

ظل هذا الخاتم فى يد عبدالناصر لا يفارقه لسنوات طويلة، وقبل وفاة عبدالناصر بعدة شهور ظهر السمان فى القاهرة، اتصل بحسن عباس زكى وقال له: أريد أن أراك على الفور، قابله عباس فى فندق الرضوان بالحسين الذى كان يقيم فيه ودار بينهما حوار قصير للغاية.

السمان: إننى أخشى على الرئيس جمال عبدالناصر؟

زكى: لماذا؟

السمان: رأيته فى الحلم وقد خلع الخاتم هل تستطيع أن تسأله لماذا خلعه.. وانصحه أن يلبسه من جديد.

حمل حسن عباس زكى الرسالة لعبدالناصر عن الخاتم.. فقال له جمال: إنه لم يره منذ عدة شهور واستدعى محمود الجيار وكان وقتها مسئولا عن الطابق العلوى فى بيت

الرئيس.. قال الجيار إنه لم ير الخاتم منذ مدة بالفعل ووعد بالبحث عنه، بعد أيام أخبر عبدالناصر عباس زكى بأن الخاتم مفقود بالفعل.. وطلب منه أن يطلب من السيد البدوى السمان أن يدعو الله أن يعثر على الخاتم.. وفعلها الرجل.. صلى وصام واختلى إلى الذات العليا.. لكن البركة لم تقع، أبلغ السمان عباس زكى أنه راحل إلى السودان وكان الله فى عون عبدالناصر.. قال عبارته الأخيرة باكيا.. وبعد أيام مات عبدالناصر.

قد يعتبر البعض قصة السيد البدوى السمان مجرد أسطورة.. لكنها تؤكد أن عبدالناصر فى إيمانه كان مثل المصريين جميعا.. يصلى ويصوم ويعتصم بالله وقت الشدائد.. ويضع خده على يد أولياء الله الصالحين يطلب منهم البركة. وربما العون، وكان فى عبادته حالة خاصة.. فهى سر بينه وبين ربه.. ليس لأحد أن يطلع عليها إلا بمقدار، ويبدو أن عبادته كانت أمرا طبيعيا لكل من حوله ولذلك لم يتحدثوا عنها مطلقا.. فمن كلام حسن عباس زكى له.. أنه تكفيه الصلوات الخمس مع هموم المصريين ليدخل الجنة، ولم يكن عباس زكى ليقول له ذلك.. لو لم يكن على علم بأن عبدالناصر يحافظ على الصلاة.

سلوك عبدالناصر لم يكن وحده الذى يؤكد إيمانه العميق.. ففقرات عديدة من ميثاق الثورة تشير إلى اهتمامه بالدين وجعله منهاجا للأمة.

يقول الميثاق: إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة.

ويقول: إن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته، وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته.

ويقول: إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة وإنما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية.

ويقول: لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها، أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى يتوقف تيار التقدم.

ويقول: إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان فى الحياة والحرية، بل إن أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان، إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء ويخط فيها أعماله باختياره الحر ولا يرضى الدين بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض ولغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم.

ويقول أخيرا: إن الله جلت حكمته وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساسا للعمل فى الدنيا وللحساب فى الآخرة.

بهذه الروح كتبت هذه الفقرات من الميثاق.. قد يكون تم الخروج عليها بأمر السياسة لكنها فى النهاية تعكس إدراكاً واعيا لدور الدين فى حياة الشعوب، لقد حاول البعض تشويه تجربة عبدالناصر الإيمانية فصادروها منه تماما ووصلوا به إلى درجة الكفر والإلحاد.. وهو كلام ليس حقيقياً.. فلم يكن عبدالناصر ملحداً.. وإن كان لنا أن نقول شيئا.. فإن عبدالناصر حاول مثل غيره ممن حكموا ويحكمون أن يستغل عاطفة الناس الدينية.. لتحقيق بعض أهدافه.

إن عبدالناصر وفى عام ١٩٥٤ عندما زار السعودية وبعد أن خرج من قصر الضيافة قصد إلى أداء السعى بين الصفا والمروة مبتدئاً من الصفا منتهيا بالمروة سبع مرات، وقد رفض أن يركب فى هذا السعى سيارة جيب وفضل أن يسعى ويهرول على قدميه، وكان لعبدالناصر رأى محدد فى الصحف.. حيث كان يرى أنه لا يجب أن تباع الصحف بالدعارة.. بل هاجم مجلة صباح الخير بسبب رسوم حجازى التى كانت تنشر بها، لأن المرأة فى رسوم حجازى لها نسب مثيرة فى أردافها.. بل كان يهاجم النكت والرسوم التى يظهر فيها الزوج مخدوعا والزوجة تخبئ رجلا فى الدولاب.

وفى عهد عبدالناصر كما يقول طلعت رضوان فى كتابه «العسكر فى جبة الشيوخ.. الأصولية الإسلامية قبل وبعد ١٩٥٢» أصدر كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم

قرارا وزاريا بتحريم الموديل، وفى عهد ناصر تم افتتاح محطة إذاعة للقرآن الكريم.. وقد استعان طلعت رضوان بعدد ضخم من خطابات عبدالناصر الرسمية.. ليؤكد أنها كانت طافحة بعبارات الإيمان والاستعانة بالله.. لم يفعل ذلك رضوان فى إطار تأكيده الحس الإيمانى عند عبدالناصر ولكن ليؤكد أن ناصر كان فى النهاية خاضعا للثقافة الدينية السائدة التى كانت وما زالت تبتز عواطف المصريين وتدغدغ مشاعرهم وتبتذل أحاسيسهم.. قد يكون عبدالناصر قد فعل ذلك بالفعل.. لكن ذلك لا يمنعنا أن نؤكد إيمانية عبدالناصر وصفاءه الروحى وصوفيته التى عكرتها السياسة.. فكانت مثل المطية التى يركبها صاحبها حتى يصل بها إلى هدفه.. ثم لا يهتم بعد ذلك بمصيرها!.

●●

ضريح جمال عبدالناصر

وضع جمال عبدالناصر كل من كتبوا عنه فى ورطة.. فالذين أحبوه رفعوه إلى درجة الأنبياء، وأوصلوه إلى سدرة المنتهى، التى لا شئ بعدها سوى وجه الله الواحد.. والذين خرجوا عليه حاولوا النيل منه، فأنزلوه منازل السفاحين ومصاصى الدماء والقتلة الذين لا يراعون ذمة ولا دينا..

وبين الهائمين بحبه.. والكافرين برسالته.. يبقى عبدالناصر صلباً عجزت الأيام عن قهره أو تشويهه أو الانتقاص من تجربته.. هزم الزمن واستولى عليه وأصبح فى ضمير الناس وليا من أولياء الله الصالحين، ليس مسموحاً لك فى حضرته إلا أن تجله وتعظمه وتخشع فى مقامه، وإذا أردت أن تقول شيئا ينال منه، فمن الأفضل أن تقوله فى سرك.. ولا تطلع عليه أحداً، لأنك لو صرحت بما فى نفسك.. تكون عاديت وليا.. ومن يعادى وليا فقد آذنه أنصاره بالحرب!

آلاف المقالات.. مئات القصائد.. عشرات الكتب.. دارت بها المطابع الساخنة، لم يترك الكتاب الصحفيون صغيرة ولا كبيرة فى حياة عبدالناصر إلا أحصوها، لم يكن من نصيبه ملكان واحد يحصى حسناته وآخر يعد عليه سيئاته.. ولكن صادف فى كل شارع

كاتباً.. وفى كل حارة مؤرخاً.. وفى كل عطفة ناقداً.. وفى كل زقاق صحفياً.. الكل يكتب.. قليل من كتب لوجه الله.. وكثير كتبوا لوجوه غيره وهى لا تعد ولا تحصى..

القائمة طويلة.. بدأت عملها منذ صافح وجهه عيون المصريين وحتى اللحظة التى تقرأ فيها هذه السطور.. من حسنين هيكل إلى عبدالعظيم رمضان ومن أحمد بهاء الدين إلى أنيس منصور. ومن صلاح حافظ إلى مصطفى أمين.. من العقاد - بسلاطة لسانه - إلى نجيب محفوظ بدماثة أخلاقه.. كتبوا جميعا وليس علينا سوى أن نقرأ..!

بعد ٤٧ يوما من قيام الثورة كتب هيكل مقاله الأول عن عبدالناصر بعنوان «السكوت الذى ترقد تحته العاصفة» بعد هذا المقال ومقالات أخرى سكن هيكل رأس عبدالناصر.. أو كما قال ناصر لمحسن عبدالخالق - الذى عمل مديراً لمكتبه فى الفترة الأولى من الثورة «إن هيكل ببساطة يجلس فى رأسى».. كانت هذه الجملة خاتمة لحديث دار بين عبدالناصر ومدير مكتبه، قال له فيه: أنت تعلم أننى لم أكن أعرف هيكل معرفة وثيقة، بل وكانت معرفتى وعلاقتى الوثيقة هى بالآخرين، ولكن هيكل هو الوحيد الذى فهمنى وفهم ما يدور فى عقلى قبل أن أترجم فكرى إلى كلمات.

هيكل نفسه لخص سر علاقته بعبدالناصر فى حديثه لمجلة الحوادث اللبنانية فى عدد ٢٥ يونيو ١٩٧١.. قال: الذى صنع لى مركزى عند عبدالناصر شئ واحد هو قدرتى على خدمة الهدف العام، الذى كان يسعى إلى تحقيقه، لم أكن أقرب الناس إليه، كان هناك غيرى اقرب، كان هناك أحمد أبوالفتح وإحسان عبدالقدوس وحلمى سلام، وكذلك لم أكن واحداً من الضباط الأحرار، وأى حيز أخذته من تقديره مرجعه شئ واحد، هو قدرتى على خدمة الهدف الذى يسعى إليه.

لم يكن هيكل هو الأقرب، كان هذا فى البداية على الأقل.. لكنه ومنذ اللحظة التى دخل فيها محراب عبدالناصر لم يخرج منه حتى الآن، بل إنه لا يزال يدافع عن الحلم الذى جاء به جمال عبدالناصر، عنده انتقادات لتنفيذ الحلم، لكنه يؤمن أن الحلم ما زال صالحاً.. ولذلك لا يدخر وسعا للدفاع عنه.

بعد أربعين يوما من موت عبدالناصر حاول هيكل أن ينقذه من أيدى الدراويش الذين حاولوا إخراجه من خانة الزعماء الذين قاموا بدورهم الوطنى ثم مضوا إلى ساحة القديسيين والألهة الذين لا تجرى على أيديهم الأخطاء.. فكتب مقاله الذى هز مصر كلها «عبدالناصر ليس أسطورة».. لكن عندما بدأت حملة تشويه عبدالناصر.. بعد أن انتصر السادات فى حرب أكتوبر، واستبدل شرعية الحكم بأنه خليفة عبدالناصر.. بشرعية الحكم بأنه القائد المنتصر، كانت الرياح عاتية.. اضطرته للخروج عن صمته.. فكتب «لمصر.. لا لعبدالناصر».

كانت حملة التشويه عاتية، استباحت ضمن ما استباحت التاريخ والأخلاق والأمانة والشرف، جلس هيكل ليكتب.. وانسابت الكلمات قال: حاولت قدر ما استطيع أن أتجنب الكتابة عن جمال عبدالناصر وحياته الحافلة وتجربته الكبيرة، ولم أقترب من الحديث إلا عند الضرورة القصوى فعلت ذلك مرة فى أعقاب رحيله مباشرة، ونشرت مقالاً فى ذكرى الأربعين على رحيله بعنوان «عبدالناصر ليس أسطورة» أبديت فيه خشيتى من استغلال المستغلين - لأغراضهم - لقصة البطل فيه والرمز، وعبرت عن مخاوفى من تحويل تراثه إلى كهنوت غيبى جامد، بينما هو فى الحقيقة تجربة إنسانية زاخرة قابلة للحياة والنمو والتطور؛

الكلام موصول مع هيكل يقول: وقد فعلت ذلك أخيراً وقبل عدة شهور، فى ذكرى مرور ٢٣ سنة على ثورة ٢٣ يوليو، وكانت الحملات ضد عبدالناصر فى مصر قد تصاعدت، وأردت فقط أن أنبه إلى مقاصدها وإلى مصادرها، ولعلى لم أتجاوز كثيراً حين نسبتها إلى مخططات قوى السيطرة العالمية بشكل عام، وإلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بشكل خاص، ولم يكن ذلك تخميناً أو رجما بالغيب.. وإنما كان استناداً إلى حقائق معروفة أكدتها ملفات هذه الوكالة التى كانت مفتوحة لمن يقرأ ويفهم ويستوعب خلال السنتين الأخرتين.

رأى هيكل أن الحملة على عبدالناصر هى محاولة اغتيال معنوى بعد محاولات متكررة - لم تنجح - فى اغتياله ماديا بالقتل منذ ظهوره وبروزه على مسرح السياسة العربية والعالمية كواحد من أكبر زعماء حركة الثورة الوطنية.

عندما كتب هيكل عن عبدالناصر ليرد غيبته قال: لا ينبغى أن يكون ما أكتبه فى مجال الدفاع عن جمال عبدالناصر، فهو لا يحتاج منى - و من غيرى - إلى دفاع عنه، ومع إيمانى بأن أى تقييم نزيه لتجربة عبدالناصر سوف يعطيه أكبر بكثير مما يأخذ منه، فإن قوى الثورة المضادة الظاهرة على السطح الآن تستطيع التركيز على الجوانب السلبية لكى تضرب بها الجوانب الإيجابية الضخمة.

وضع هيكل من هاجموا عبدالناصر فى خانة اليك أكثر من مرة.. قال: من هاجموا عبدالناصر لم يتجاسروا جميعا على سلبياته حتى جاء الموت ومنحهم الحرية، وهذا شئ سيئ وأسوأ منه أنهم ظلوا من ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ إلى بداية سنة ١٩٧٤ يتمسحون بذكرى الراحل والرحيل كأنهم لا يصدقون المقادير، ثم بعد أربع سنوات كاملة اطمأنوا فيها إلى أن الجسد المكفن بالثوب الأبيض لم يخرج من قبره.. فتحوا أفواههم وتكلموا.. وتجاوز الكلام كل حد معقول، وكان آخره اتهام جمال عبدالناصر بأنه اختلس لنفسه وهرب إلى الخارج لحسابه مبلغ خمسة عشر مليونا من الدولارات: خمسة منها قدمها الملك سعود تبرعاً للمجهود الحربى المصرى، والعشرة الباقية قدمها الملك سعود أيضاً قرضاً لمصر، ولكن جمال عبدالناصر أغتصب هذا كله لمنفعته الشخصية وأودع الأموال فى حسابه باسمه فى الخارج، بل إن عبدالناصر أقدم على هذا التصرف فى وقت محنة عربية كبرى وهى تلك الأيام السوداء من يونيو ١٩٦٧.

دافع هيكل عن عبدالناصر بالوثائق كعادته، رفض اغتيال ذكراه وتاريخه معنويا بالتشويه والتشويش ووصل إلى أن تجربة عبدالناصر بإيجابياتها وسلبياتها، تجربة مصرية عربية إنسانية أصيلة، ومناقشتها حق، لكن إدانتها الشاملة باطل لا يصح.

يظل هذا هو موقف هيكل لا يتغير.. ففى ندوة عقدتها له مجلة روز اليوسف ونشرتها فى عدد ١٤ فبراير ١٩٩٤ قال «والكلام نصا»: لقد حدث فى عصر عبدالناصر أشياء لا أنكرها، لكن إذا ألغيت شرعية ٢٣ يوليو وكل يوم تضرب فى أساس شرعيتك ألا يفقدك هذا شرعيتك أنت، فإذا لم تكن خارجاً من ٢٣ يوليو، وإذا لم تكن مسئولا عن كل سجل

٢٣ يوليو، وإذا لم تكن مسئولا عن المحاسبة، ولكنك فقط تعطى موقف الإدانة، وإذا وجدت أن ما كان قبلك لا تستطيع الدفاع عنه، إذن أرجع للناس واطرح دستوراً جديداً وقل حاجة ثانية، واعمل الجمهورية الثالثة وابدأ بداية جديدة».

يد هيكل تسلمنا مباشرة إلى يد مصطفى أمين.. فى صباح ١٤ أكتوبر ١٩٥٢، على الصفحتين الأولى والثالثة من جريدة الأخبار كتب مصطفى أمين مقالاً عن عبدالناصر لم يوقعه باسمه.. لكنه كال له فيه المديح... ألمح مصطفى أمين إلى أن جمال عبدالناصر هو القائد الفعلى للثورة، وأن بقية الضباط ساعدوه فقط.. بقية الضباط هذه جمعت ضمن ما جمعت جمال سالم وأنور السادات وعبداللطيف البغدادى وحسن إبراهيم وصلاح سالم وكمال الدين حسين وخالد محيى الدين، لم يكتف مصطفى أمين بذلك بل نشر صورة كبيرة لجمال عبدالناصر فى الصفحة الأولى إلى جوار المقال، ونشر صور الضباط الآخرين بحجم أصغر فى الصفحة الثالثة.. فعل مصطفى ما هو أكثر.. فلم يشر إلى محمد نجيب لا من قريب ولا من بعيد.. لا بالخير ولا بالشر!

صفات عبدالناصر جذبت مصطفى أمين.. فكتب عنه واصفا بأنه يتحدث بأعصاب حديدية صارمة، وبوجه هادئ جامد.. وشعره الأشيب يروى قصة كفاح سرى عجيب لم يتصوره أحد ولم يعلم به أحد.

غضب الضباط من مقال مصطفى أمين.. عاتبوا عبدالناصر وعندما سألوه قال لهم: أنا لم أقل شيئا لمصطفى أمين.. والمقال كله من تأليفه.. وعندما سأل محسن عبدالخالق مدير مكتب عبدالناصر مصطفى عما حدث، فأقسم له أن جمال عبدالناصر هو صاحب فكرة المقال وهو الذى أملى عليه كل المعلومات التى نشرها، وقع الضباط فى حيرة.. وضاعت حقيقة المقال بين ادعاء مصطفى أمين وإنكار عبدالناصر.

هذا الحماس لجمال عبدالناصر تلاشى تماما بعد أن قضى مصطفى أمين تسع سنوات من حياته نزيلا فى سجون ناصر بتهمة التخابر مع أمريكا ضد مصر.. خرج مصطفى أمين من السجن فى ٢٧ يناير ١٩٧٤.. وبدأ الكتابة عما حدث له فى سجون

عبدالناصر، وبدأت الصحف السعودية والصحف اللبنانية والمصرية الممولة من السعودية تفتح ذراعيها لروايات مصطفى أمين والتى بدأها بكتابيه «سنة أولى سجن». ثم «سنة ثانية سجن».

ظل مصطفى أمين يعتبر عصر عبدالناصر كله فعلا ماضيا وفقط.. بل إنه كتب مقالا ضمه كتاب أصدرته دار المعارف فى ٦ أكتوبر ١٩٧٤ منحه عنوان «كان فعل ماضى» قال فيه: سمعت السيدة الأولى جيهان السادات أن قاعدتين جويتين فى أنشاص والمنصورة قاما ببطولات ضخمة فى الميدان أثناء المعركة، وأن قائدى القاعدتين قاما بعمليات فدائية مذهلة، وضربا أرقاماً قياسية فى عمليات الهجوم، وقررت السيدة الأولى أن تزور القاعدتين، وبدأت بزيارة قاعدة أنشاص وحيت الطيارين الأبطال وأقاموا لها حفلة شاى بسيطة، وجلست وإلى يمينها قائد قاعدة أنشاص وسألته - ما الذى جعلكم تحاربون بهذه البطولة؟ ولماذا لم تحاربوا فى سنة ١٩٦٧ كما حاربتم فى أكتوبر!

قال القائد الشاب.. كنا بالأمس نحارب.. وننظر خلفنا لنرى الذين يكتبون التقارير ضدنا.. أما اليوم فحاربنا ونحن نشعر أننا أحرار.

قالت السيدة الأولى : وأنت لماذا حاربت بكل هذه الشراسة والفداء؟ قال القائد الشاب: لأننى كنت مسجونا فى السجن ظلماً، وأخرجنى أنور السادات من السجن، وأعادنى إلى الجيش وسلمنى هذه القيادة وأردت أن أثبت أننى كنت مظلوماً.

وزارت السيدة جيهان السادات قاعدة المنصورة، وأرادت أن تتجاذب أطراف الحديث مع قائد المنصورة فقالت له: هل تعرف قائد أنشاص؟ قال قائد المنصورة: كيف لا أعرفه.. لقد كان معى فى السجن!

خرج مصطفى أمين من ذلك بأن حرب أكتوبر أثبتت نظرية جديدة فى منطقة الشرق الأوسط، وهى أن الأحرار ينتصرون والعبيد يستسلمون، ويعود مصطفى أمين ليقول: منذ أيام أقام الأمير سلطان وزير الحربية السعودى مأدبة عشاء فى فندق شيراتون، ورأيت ضابطا كبيرا يقبل على مبتسما، وعرفت من صورته أنه الفريق أحمد بدوى قائد الجيش

الثالث الذى ناقشه الرئيس أنور السادات فى اجتماع مجلس الشعب عن أعماله البطولية وظهر فى التليفزيون وتحدث عنه الدنيا، وتقدم نحوى وهو يقول: ألا تعرفنى.. لقد كنا زملاء، قلت للفريق بدوى: هل كنت سيادتك تعمل فى الصحافة، قال: لا كنت فى السجن!

يختم مصطفى أمين مقاله بقوله: ألم أقل لكم أن كان فعل ماض، أراد مصطفى فى هذا المقال أن يتحدث عن السادات.. لكنه تحدث عن عبدالناصر.. وجدها فرصة ليخلص تاره منه.. وقد فعلها.. فقد هزمت مصر لأن أهلها كانوا عبيداً نزلاء فى سجون عبدالناصر.. والعبيد لا ينتصرون.. أما السادات فقد انتصر لأنه حرر المصريين وأخرجهم من السجون.. وحارب بهم وهم أحرار!

ولا أعرف.. ماذا سيكون رأى مصطفى أمين فى تجربة عبدالناصر، لو لم يسجن فى عهده بتهمة قاسية وهى التخابر.. هل كان سيغير رأيه.. أم أنه كان سيركب الموجة التى ركبها كتاب آخرون، لم يسجنهم عبدالناصر ومع ذلك هاجموه ونالوا منه.. ولكن لماذا أقول.. لو.. ولو تفتح عمل الشيطان وأعمال آخرين لا يقلون دناءة عن الشيطان.

●●

قصة أخرى دخل بها عبدالناصر عالم الصحافة والأفكار.. تلك هى قصته مع إحسان عبدالقدوس، وليس مفاجأة أن نقول أنه كانت لإحسان منزلة خاصة عند عبدالناصر، فقد كان يعتبره واحداً من صناع ثورة يوليو بما كتبه عن الأسلحة الفاسدة قبل الثورة.

فى حواره مع نبيل أباظة قال إحسان: أنا كنت أعيش فى حماية عبدالناصر، فبعد أن أمر بحبسى عام ١٩٥٤ أفرج عنى وظل يعتذر لى لمدة شهر، كل يوم يتصل بى ويدعونى على العشاء، وبعد ذلك وإلى أن مات ظل يحمينى وينقذنى من أى مصيبة يسلطها على واحد من الأذناب، وحدثت مناسبات كثيرة كان عبدالناصر هو الذى يرفع الظلم عنى.

فى ٢٢ مارس ١٩٥٤ كتب إحسان عبدالقدوس عن الجمعية السرية التى تحكم مصر.. قال: «من يحكم مصر منذ قيام حركة الجيش؟ إنه مجلس قيادة الثورة؟ ماذا تعلم أنت عن مجلس الثورة وما يدور فيه، وماذا يعلم عنه أى مصرى سواء كان مقربا من أعضاء

هذا المجلس أو مبعداً عنهم؟ لا شيء.. لا شيء البتة.. إنه جمعية سرية.. لاتزال كما كانت قبل الحركة تعمل تحت الأرض ويجتمع أعضاؤها بالنهار والليل.. لا يعلم أحد عما يتحدثون وماذا يقررون، وكان هذا هو الخطأ الأول والأكبر».

يقول إحسان عن هذا المقال: كانت الثورة تمر بأزمة كبيرة بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر، وكانت هناك فترة إطلاق حرية الصحافة بلا رقابة، وكنت أرى أن مجلس الثورة لا يتصرف التصرفات التى أنا مقتنع بها فى شأن مواجهة الجماهير، وتبلورت قناعاتى فى أن يكون عبدالناصر حزبا سياسيا بعيدا عن الجيش ويصبح رجلا سياسياً ويدخل الانتخابات وكنت متأكدا وواثقا من نجاحه.

كان إحسان يتوقع أن يقرأ عبدالناصر المقال، لكنه لم يقرأه.. فسره له بعض المقربين منه تفسيرا مغرضا، فأصدر ناصر أمراً بالقبض على إحسان وظل الكاتب الكبير ثلاثة أشهر فى السجن الحربى يحقق معه..

قال إحسان فى التحقيق: كنت أقصد من المقال إن عبدالناصر يعمل حزبا ويدخل الانتخابات من أجل أن يثبت أن الثورة سياسية وليست عسكرية، سأله المحقق.. لكن ألا يمكن أن يكسب فؤاد سراج الدين الانتخابات؟ فرد إحسان: لا يمكن أن يكسب سراج الدين الانتخابات وإذا كسب فؤاد سراج الدين، يبقى لا داعى للثورة مطلقا.

كانت كل حركة وإيماءة من إحسان فى السجن تصل إلى عبدالناصر، وبعد الإفراج عنه بعد ثلاثة شهور، وبعد عودته إلى منزله بنصف الساعة اتصل به عبدالناصر وقال له وهو يضحك: اتربيت ولا لسه؟! فقال له إحسان: والله أنا ما اعرفش اتربى من إيه.. عشان أقولك اتربيت ولا ما اتربيتش! فقال له عبدالناصر، طب تعالى افطر معى غداً!

أثرت فترة السجن على علاقة عبدالناصر بإحسان يقول: بعد أن خرجت من السجن سألنى عبدالناصر: جرى لك إيه يا إحسان؟ قلت له جرى لى كتير قوى! ومن يومها ظل يدعونى للعشاء فى بيته ثم نشاهد أفلاما سينمائية كانت تعرض فى ملعب التنس فى منزله، من أجل أن أنسى ما حدث، لكن لم أستطع أن أتجاوب التجاوب الطبيعى الكامل

الذى بينى وبينه من قبل.. احسست أن عبدالناصر حاكم وليس مجرد صديق، فمن يوم أن دخلت الزنزانة زال الإحساس بالصداقة بينى وبين عبدالناصر!.

سجن إحسان عبدالقدوس يقودنا إلى ملامح علاقة روز اليوسف والدة إحسان وأحمد بهاء الدين بعبدالناصر.. أما روز فقد أرسلت لعبدالناصر خطابا مفتوحا على صفحات مجلتها ضمها العدد ١٣٠٠ الصادر يوم ١١ مايو ١٩٥٣، وضعته تحت عنوان «الحرية هى الرئة الوحيدة التى يتنفس بها الشعب.. أنك فى حاجة إلى الخلاف تماما كحاجتك إلى الاتحاد.. وقالت فى مقالها لجمال: لا تصدق أن الحرية شىء يباح فى وقت لا يباح فى أوقات أخرى، فإنها الرئة الوحيدة التى يتنفس بها المجتمع ويعيش، والإنسان لا يتنفس فى وقت دون آخر، أنه يتنفس حين يأكل وحين ينام وحين يحارب أيضا، أنك بكل تأكيد تضيق ذرعا بصحف الصباح حين تطالعها، فتجد أنها تكون طبعة واحدة لا تختلف الا فى العناوين، والناس كلهم يحسون ذلك ولا يرتاحون إليه، وقد قلت مرة أنك ترحب أن تتصل بأى جريدة إذا أحسست بالضيق.. ولكن أليس فى هذا ظلم لك وللصحفيين وللقضايا الكبرى التى تسهر عليها؟ ألم أقل إنك لن تستطيع أن تفعل وحدك كل شىء!.

وبإحساس العارفة بجمال قالت له: لقد أقدمت فى شبابك الباكر على تجارب هائلة، خضت بعضها ورأسك على كتفك لا تبالى مصيرك، وليس كثيرا من التجربة أن تجرب إطلاق الحريات.. أن التجربة كلها لا تحتاج إلى هذا ولا تحتاج إلا إلى الثقة فى المصريين وأنت من تجب عليه الثقة فى مواطنيه».

الأكثر من ذلك أن جمال عبدالناصر عندما دعا روز اليوسف لزيارته فى مكتبه بقيادة الثورة ردت على من حمل لها دعوة الدعوة: إذا كان جمال يطلبنى كحاكم فروزاليوسف لا تسعى إلى الحكام.. لا عن رغبة ولا عن رهبة، وإن كان يطلبنى لنتحدث حديث الأصدقاء، فعلى أصغر الأصدقاء سنا أن يسعى لأكبرهم، وخاصة إذا كان مكان اللقاء مجلة طالما سعد بالذهاب إليها والسهر فيها مع شاب ثائر مثله.

ظل إحسان عبدالقدوس على فكرته ففى مارس ١٩٥٤ كتب وفى روز اليوسف أيضا مقالا بعنوان «مصير الثورة.. ومصير رجال الثورة».. قال من بين ما قاله: لقد قلت

لجمال عبدالناصر إن الناس لم تعرفه حتى اليوم إلا كضابط وكحاكم وصاحب سلطان وإن من حق الناس عليه، ومن حقه على الناس أن يعرفوه كصاحب فكرة شعبية يدعو لها بين صفوف الشعب، وهم لن يعرفوه ولن يعرفهم بنفسه إلا إذا خرج من الحكم ومن الجيش ومثل المعارضة فى مقاعد البرلمان، إلى أن يتقدم فى الانتخابات التالية فيفوز فيها حتما بالأغلبية، كما يحدث فى جميع الشعوب وفى جميع البرلمانات.

لم يعجب هذا الكلام قادة الثورة.. أخرج من بيته عنوة عام ١٩٥٤ ليجد نفسه فى مكتب قائد السجن الحربى.. وإذا به بأحمد أنور قائد البوليس الحربى يقول لإحسان: أنت متهم يا إحسان بالتآمر على الثورة وقلب نظام الحكم فرد إحسان بآسى: تانى!.

طالت التحقيقات.. وبعد ساعات مضنية دق جرس التليفون.. كان المتحدث هو جمال عبدالناصر.. قال لإحسان معتذراً.. أعمل إيه بس يا إحسان اعذرنى.. إن عبدالحكيم عامر سيعتذر لك باسم الجيش لأن البوليس الحربى تابع له..!... عاد إحسان إلى بيته يقول: أحسست لحظتها بقشعريرة تهز كيانى من الأعماق، وأنا أتصور برؤية الكاتب وخيال القاص الأبرياء وهم ينتزعون من بيوتهم فى ظلمة الليل لكى يقذف بهم أعضاء المكاتب الخاصة خلف القضبان.

●●

ثم يأتى أحمد بهاء الدين.. لم يتعامل مع عبدالناصر وجها لوجه على الإطلاق.. لكنه تعامل كثيرا مع سياساته وأفكاره ومبادئه، وجد بها نفسه أمام عبدالناصر مباشرة، عندما قبض على إحسان عبدالقدوس يقول بهاء: اعتقل إحسان عبدالقدوس بسبب مقال كتبه.. كان ذلك بعد الثورة، واستفزنا هذا الاعتقال وفكرنا ماذا نفعل؟ وكيف نصدر بشكل عادي وننشر موضوعات ومقالات وكاريكاتير وتحقيقات كما تفعل أى مجلة أخرى ورئيس تحريرنا معتقل داخل السجن وفكرنا هل نمتنع عن الصدور أم ماذا نفعل؟

فكر بهاء كثيرا كيف يخرج من هذا المأزق، ثم صارح السيدة روز اليوسف، وقال لها إننا يجب أن نأخذ موقفا مما حدث ونعلنه على صفحات المجلة، لكنها حذرته من عواقب هذا القرار فأقل شىء أن تصادر المجلة وبالتالى تفلس.

وبدلا من إعلان الموقف صراحة اختار بهاء الا تذكر المجلة على أى صفحة من صفحاتها ولا فى أى سطر منها مجلس قيادة الثورة، لا فى خبر ولا فى موضوع ولا فى مقال، ولأن الفكرة كانت جيدة بالفعل فقد وافقت عليها روز اليوسف، أثار القرار مجلس قيادة الثورة وحذروا بهاء أكثر من مرة بأن هذا التصرف ربما يؤدى إلى نتائج خطيرة، ولكنه أصر على موقفه قائلا لهم: لن يذكر اسم «مجلس قيادة الثورة إلا عندما يفرج عن إحسان عبدالقدوس».. وقد كان.

كتب بهاء عن عبدالناصر كثيرا.. وقف إلى جوار أفكاره ومبادئه، لكن ربما يندهش البعض عندما يعرفون أن بهاء لم يتعامل مع عبدالناصر شخصيا على الإطلاق، ورغم ذلك كان عبدالناصر يعلم أن بهاء ليس معبرا عن أحد.. بل هو يعبر عما يراه.. وهذا ما أنقذه كثيرا من أن ينزل سجينا طوال فترة حكم عبدالناصر يقول بهاء: كان عبدالناصر يفرق بين الكاتب الذى يمثل سياسة حزب أو اتجاه أو واجهة لأحد، وكاتب يكتب اللى فى مخه.. وهذا ما حمانى تماما.. فقد تأكد أننى مقطوع الصلة بأى تيار ولم يكن لى ظاهر وباطن.

لا ينفى أحمد بهاء الدين أنه وقعت حالات ظلم فى عهد عبدالناصر، بل إنه نفسه منعت له مقالات مثل غيره.. لكنه كان يرى أن هناك فرقا بين صحفى مؤمن بأهداف الثورة ومبادر وسباق عن قناعة للمطالبة بهذه الأهداف، وهذا بالطبع لا يجعله معارضا لها. وبين صحفى آخر دافع عن العهد القديم بشكل أو بآخر، يقول بهاء: ربما حمانى وحمى الكثيرين علاقتهم بالثورة.. وأنا أقصد العلاقة العقيدية والاقتناعية التى لا ترتبط بشخص وعلى كل حال استطيع أن أقول إننى لا أذكر أننى نافقت حاكما أو مسئولا.. ولو كانت ذاكرتى تخوننى فقطعا أنا كنت أقل الكتاب الصحفيين نفاقا، والصحفى لا يستطيع أن يخفى أو ينكر ما كتبه لأنه مسجل على صفحات الجرائد.

●●

على خط أحمد بهاء الدين يأتى صلاح حافظ.. الذى يحدد المشكلة من البداية يقول: فوجئ المثقفون بمعاملة سخيفة من جانب الثورة، كانت أكثر مهانة وإذلالا مما كان سائدا

أيام الاحتلال الإنجليزى والملك نفسه، ثم جاءت محاكمات الثورة، وكانت محاكم مضحكة فعلا، يرأسها ضباط، يلبسون ثياب القضاة فتبدو واسعة عليهم.

ويرى صلاح أن كل ذلك سبب «حزازة» حقيقية بين المثقفين وبين الثورة، ولم تكن حزازة سياسية، فقد كانت أشبه بالثأر الشخصى، وذلك لم يعط الفرصة الكافية للمثقفين للتأمل الهادىء والموضوعى وقد أدى ذلك بالمثقفين إلى أن يركزوا فى أحاديثهم وكتاباتهم على الأخطاء والسلبيات، والمثقفون بطبيعتهم يصوبون أنظارهم دائما إلى الأخطاء من أجل إصلاحها، فما بالك إذا كان المخطئ وهو الثورة يهينك فى كل لحظة ويحاول النيل منك بشتى الطرق.

ولأنه لابد من قول فصل فإن صلاح حافظ يعتقد أن استمرار هذه الخصومة بين الثورة والمثقفين هو الذى ألجأ الثورة إلى أن تسيطر على الصحافة بشكل كامل، فعبدالناصر لم يكن قبل صدور تأميم الصحافة يستطيع أن يطرد صحفيا من صحيفته إلا إذا قرر حبسه، أما بعد التأميم فقد صارت الصحافة ملكه، ومن هنا صار بإمكانه أن يمنعه من الكتابة دون الاضطرار إلى حبسه.

فى كلامه عن عبدالناصر حاول أن يضع الأمور فى نصابها حدث هذا أكثر من مرة فهو يرفض مصطلح الناصرية ويعتبره من الكلمات غير مصرية الأصل، لكنها أساسا من صياغات حزب البعث، ومن أفكار البعثيين تحويل أى مجموعة أفكار وتصك لها لفظ يضمها، يقول صلاح: المصريون كانوا يقولون فيما مضى مبادئ سعد زغلول، ولو كان حزب البعث موجوداً وقتها لأطلق عليه لفظ «الزغلولية».. هنا المسألة صيغة لفظية.. ولو كان المصريون هم الذين قاموا بصك اللفظ لقالوا «مبادئ عبدالناصر».

ويذهب صلاح حافظ إلى أنه فى عهد عبدالناصر كانت هناك عملية لبناء صورة عبدالناصر فى الخارج وأخرى لبناء صورته فى الداخل، كانت الصورة التى بنيت له فى الداخل هى صورة الرجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أى أنه شبه إله، يقول صلاح: وأعتقد أن رفض عبدالناصر للإدلاء بأحاديث للصحف المصرية كان

يعكس الخصومة بين الثورة والصحافة المصرية، أو على الأقل التقليل من شأن هذه الصحافة، لماذا أتكلم مع صحافة أملكها؟ ثم أتحدث مع من؟ إن أى صحفى هو موظف عندى فلماذا أوثره بحديث صحفى وأجلس معه الساعات الطويلة بحديث يصبح بعده اسما لامعا.

ومن عبدالناصر يصعد صلاح حافظ إلى هيكل.. فهو يرى أن من أسباب عزوف عبدالناصر عن الإدلاء بأحاديث للصحافة المصرية، إصرار هيكل على أن يكون الأوحد الذى ينفرد بالحديث مع جمال عبدالناصر، ويناقشه، فلو أن عبدالناصر مثلا تحدث مع «زيد» من الصحفيين، لكان هذا إعلانا بأن زيد لا يقل أهمية عند عبدالناصر عن «السيد هيكل» ويؤكد صلاح: إن هيكل كان رصيده الأساسى أنه المحاور اليومى لعبدالناصر وأن مقاله الأسبوعى «بصراحة» أنما هو أفكار عبدالناصر، أو هكذا اعتقد الناس، وأعتقد أن هيكل قد لعب دوراً فى أن يجعل عبدالناصر لا يتحدث إلى الصحافة المحلية.

ليس غريبا بعد ذلك أن يقول صلاح حافظ إن الصحفيين المصريين كانوا مجرد قراء فى حضور عبدالناصر.. ويحكى: عام ١٩٦٧ وعقب الأزمة مع إسرائيل عقد عبدالناصر مؤتمرا صحفيا.. حضر هذا المؤتمر مراسلون وصحفيون من كل أنحاء العالم ودعى رؤساء التحرير المصريون لحضور المؤتمر، وأخذ كل صحفى يكتب أسئلته وتسلم إلى محمد فائق الذى كان يجلس بجوار الرئيس عبدالناصر، وكتب الصحفيون المصريون ما لديهم من أسئلة، وبدأ الصحفيين والمراسلين الأجانب إلى عبدالناصر وأجاب عنها جميعا، ولم يسلم له أسئلة الصحفيين المصريين.. ويخلص صلاح من ذلك إلى أن الصحافة المصرية كانت تشعر بالمذلة وأنها صحافة من الدرجة الثانية، إذا ما قورنت بالصحافة الأجنبية ولو كانت صحافة بلاد أقل قدراً من الصحافة المصرية.

●●

كان صلاح حافظ موضوعيا.. يقول رأيه فى عبدالناصر بصراحة. لكنه كان يرفض تشويه صورته واتهامه بالباطل.. ولذلك كان من بين الذين تصدوا لجلال الدين

الحمامصى عندما طعن فى ذمة عبدالناصر المالية.. ففى يناير ١٩٧٦ أشعل جلال الحمامصى النار عندما أصدر كتابه «حوار وراء الأسوار» وشكك فيه فى الذمة المالية لجمال عبدالناصر وقال إنه قام بتهريب ١٥ مليون جنيه إلى الخارج.

ورغم أن الرأى العام هاج على جلال الحمامصى ورفض اتهاماته التى لم تقم على أساس لكنه أصدر كتاباً آخر هو «أسوار حول الحوار» شكك فيه مرة أخرى فى ذمة عبدالناصر المالية، وبدا مصرا على رأيه، لم يكن ما كتبه الحمامصى لوجه الله.. ولكن كتبه لوجه السادات.. فقد تضمن كتابه الثانى فقرة واضحة وصريحة قال: وقعت الأخطاء الجسيمة.. بدأت مصر تسير نحو ضياع سياسى وعسكرى، ومن هنا كان علينا أن نجرى حواراً يحلل هذه الأخطاء خاصة أن رحيل الرئيس جمال عبدالناصر «الأبدى» - ولاحظ كلمة الأبدى - هذه فرض على الرئيس السادات وهو يواجه التركة المثقلة أن يعلن عن قيام ما سمى فى بدايته «حركة تصحيح» وإن كان قد تغير الاسم إلى ثورة التصحيح.

تحرك الجميع.. أرسل توفيق الحكيم بعد أن عاد إليه وعيه إلى جلال الدين الحمامصى رسالة.. لم يستنكر فيها ما ذكره عن عبدالناصر ولم يؤيده.. لكنه قال له: «يجب أن يوضع الاتهام الذى دفعك إليه واجبك الوطنى الإصلاحى موضع تحقيق عادل دقيق من السلطات القضائية النزيهة.. وأن تطرح أمام المحكمة العليا بقضاة معروفين بالنزاهة والشرف، والا بقيت الشكوك تساورنا حول هذا الاتهام الذى سيظل قائما ضد المتهم إلى أبد الدهر.

ربط جلال الحمامصى بين موقف توفيق الحكيم من اتهام عبدالناصر بالسرقة، وبين رغبة الشيخ الكبير فى أن يصلح الخطأ الذى وقع فيه أيام عبدالناصر.. يقول الحمامصى: كان توفيق الحكيم يتألم لأن التاريخ سيحمله مسئولية صمته ككاتب له أثره، عن كل ما كان يحدث خلال هذه الفترة الطويلة من حكم عبدالناصر.. فهو الرجل الذى كتب «عودة الروح» وأعتبر جمال عبدالناصر نفسه قبل أن يثب إلى السلطة المطلقة، أنه بطل الرواية الذى عناه توفيق الحكيم. بل إنه سجل على نسخة من الكتاب بخط يده كلمات تحمل هذا المعنى!

لم يكن هذا فحسب بل إن توفيق الحكيم - والكلام للحمامصى لا يزال - كان يريد تبرئة نفسه من تهمة الصمت، ذلك لأنه كغيره كان يعيش فى العسل الذى كانت تكتب بمداده كل أكاذيب الصحف عن الانجازات والانتصارات، وكان يتمنى أن ينزل إلى الميدان، داعيا إلى فتح الملفات لمعرفة الحقيقة التى كانت مجهولة لغالبية الشعب.. ولذلك كتب «عودة الوعى».. ليكشف بعضا مما عرفه وصمت عنه!

اعتبر صلاح حافظ أن اتهام الحمامصى لعبدالناصر ظاهرة صحية، لأن الاتهام كان جزءاً من ممارسة مباشرة لنقد الحاكم أو الزعيم مهما يكن وضعه، مهما يكن إيمان الناس به، فإذا كان هناك شخص واحد يشك فى هذا الزعيم ويريد أن يكشف حقائق مجهولة عن هذا الزعيم للرأى العام فهذا حقه، لأن هذا الحق لم يكن متاحا وأصبح متاحا الآن.

ولم يمانع صلاح حافظ أن تكون فى مواجهة ظاهرة الهجوم على عبدالناصر، ظاهرة أخرى صحية أيضاً، وهى أن ترد على ما هو غير صحيح أو غير صائب وأن تصحح ما يقوله الناس، فإذا كان خصوم جمال عبدالناصر قد وجدوا الحرية فى مهاجمته ومحاكمته، فمن الطبيعى أن الباحثين عن الحقيقة يكون لهم أيضا حرية مناقشة هذا الهجوم والبحث عما إذا كان صحيحا أو خاطئا.

اتهامات جلال الحمامصى لجمال عبدالناصر يجب أن توضع أمام أنه كان الصحفى الوحيد الذى أصدر عبدالناصر قرارا بفصله من عمله.. أعلن عبدالناصر القرار وهو على ظهر باخرة كانت تقله إلى المغرب فى ٣١ ديسمبر ١٩٦٠، اتصل عبدالناصر بكمال رفعت وقال له: ابعث خطاب فصل لجلال الحمامصى، ظل الحمامصى مبعدا عن الكتابة أربعة عشر عاما كاملة، كانت أقسى سنوات حياته عذابا وألما.. وفى عام ١٩٧٤ عاد إلى الكتابة مرة أخرى، ليس صعبا بعد ذلك أن نتفهم الاتهامات وما وراءها فقد كان الحمامصى فى عراك دائم مع عبدالناصر وثورة يوليو.. وقد أفصح عن هذا العراك عقب تولى السادات للسلطة فى مصر، وسمح للذين اضطهدهم عبدالناصر بالحديث..

ولم يكن مستهجنا أن يتحدث الحمامصى بجرأة عن عبدالناصر، خاصة بعد أن قام بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة بالهجوم على ثورة يوليو وعلى عبدالناصر مثل كمال الدين حسين وعبداللطيف البغدادى وحسن إبراهيم وصدر هجومهم فى كتاب حمل عنوان «الصامتون يتكلمون».

هل تأخرنا فى الحديث عن أنيس منصور..

قد يكون.. لكن ها هو الأوان قد آن.. فى ٢٩ سبتمبر ١٩٧٢ وفى ذكرى عبدالناصر الثانية كتب أنيس منصور فى جريدة الأخبار: «كلما مر وقت أطول على حياة ووفاة جمال عبدالناصر عرفنا بالضبط أبعاد المعركة التى عاشها والتى عاش من بعدها، فليس واضحا الآن ماذا جرى على أرضنا يوم العدوان، ويوم النكسة، ولا هو معروف بوضوح ماذا دار وراء الأبواب المغلقة هنا وفى العواصم العربية والأوروبية والأمريكية، إن كل الذى قرأناه وسمعنا عنه كان مصدره الطرف الآخر، ولكن لا خلاف بين أحد من الأصدقاء والأعداء على الأعمال الجليلة التى حققتها ثورة يوليو على كل مستوى.

ويصعد أنيس من الثورة إلى جمال عبدالناصر.. فهو عنده قد نجح فى تغيير مسار التاريخ المصرى والعربى، وتكاثر عليه الأعداء الأقوياء والأغنياء، وتضاعفت مصاعبنا وتكدست همومنا وتراكمت مشكلاتنا، وسوف تبقى كذلك لفترة طويلة، ويفخر أنيس بأنه ليس من قبيل الصدفة أن تحتفل مصر فى أيام متقاربة بذكرى وفاة جمال عبدالناصر وبيوم العلم، فقد كان جمال عبدالناصر معلما فى الكلية الحربية وكان ككل الزعماء معلما لشعبه أيضا.

ويبدو أن أنيس مصنور كان متأثرا للغاية بوفاة عبدالناصر فقد كتب بعد أيام قليلة من وفاته فى ٤ أكتوبر ١٩٧٠: «إن الفراغ الهائل الذى تركه عبدالناصر ليس من السهل أن نملأه فى يوم وليلة ولا فى ألف ليلة.. ولكن إن كان عشرون شاعرا يضعون شكسبير كى يقول المثل، فإن العشرين شاعرا قادرون على تحقيق الكثير، فإذا لم يكن لدينا عبدالناصر الآن فإننا جميعا وبالصدق والإخلاص والحب الأمين لمصر والشعب نستطيع جميعا أن نقترب من الصورة التى كان يتمناها جمال عبدالناصر لبلاده فى غيابه».

كانت هذه هى كلمات وداع أنيس لعبدالناصر.. لكنه بعد أن انضم إلى معسكر السادات تغيرت الصورة كثيرا.. فقد تحدث أنيس عن خلافه مع عبدالناصر وكيف أوقفه عن العمل.. كان سبب الخلاف كما يقول أنيس أنه كتب مقالا بعنوان حمار الشيخ عبدالسلام.. وقال فيه: إن أحد الولاة فى سوريا ضاق بثناء الناس على علم وفضل قاضى قضاة دمشق، فأمر بعزل قاضى القضاة وتعيين حمار الوالى قاضيا اللقضاة، وذهب الحمار إلى المحكمة وأحنى الناس رءوسهم للقاضى الجديد»، وجاء سكريتر تحرير الأخبار ووضع صورة الرئيس عبدالناصر فى مقال أنيس.

صدر أمر من عبدالناصر بطرد أنيس من أخبار اليوم ووقف مرتبه ومنع صرف أى معاش له، ومنع أى مطبعة من طبع كتاب له، ومنعه من الإذاعة والتليفزيون، ومنعه من أن ينشر مقالات فى أى جريدة خارج مصر.. ويعتبر أنيس أن ملخص القرار هو: أن يموت جوعاً.

فكر أنيس منصور فى الهجرة من مصر نهائيا.. لكن كان على أمين يمنعه بعنف من تنفيذ ذلك، وكان يقول له: اصبر فإن جمال عبدالناصر لن يعيش إلى الأبد.. وأن هذا الذى حدث له هو شرف عظيم.. وهو أقصى ما يبلغه أى كاتب، عاد أنيس منصور إلى عمله بواسطة مصطفى أمين له عند عبدالناصر، لكنه لم يتحدث إلا بعد أن مات عبدالناصر.. أو بالتحديد عندما أقنع السادات بعض الكتاب أن عبدالناصر مات.. ولا خوف من فتح النار عليه.

هجوم أنيس المتواصل على عبدالناصر الذى خصص له أحد كتبه التى بلا عدد «عبدالناصر المفترى عليه والمفترى علينا» لم يخل من بعض المدح.. فهو يرى أن عبدالناصر كان أفضل من السادات فى أنه كان يثق بمن حوله.. لأنه كان يرى نفسه أنه أكبر.. بينما كانت طبيعة السادات التآمرية تتغلب عليه.. كان من الطبيعى أن يقول أنيس كلمة حق فى عبدالناصر.. ليس لأن أنيس موضوعى.. ولكن لأن شخصا مثل عبدالناصر حتى لو اختلفت معه.. فإنك لا تملك أن تهاجمه طوال الوقت.. فعنده ما يجبرك على احترامه وتقديره.

الغريب أن انيس منصور حاول أن يوحى إلينا أن كل من يعرفهم لم يكونوا يحبون عبدالناصر ولا يحترمونه.. بل إنه ذكر فى كتابه «كانت لنا أيام فى صالون العقاد» أن الكاتب الكبير عباس محمود العقاد.. عندما سمع ما قاله عبدالناصر بعد إطلاق النار عليه فى حادث المنشية من أنه هو الذى علم المصريين الكرامة.. امتعض واستنكر ذلك.. وقال إن الشعب الذى يسمع حاكمه يقول ذلك ولا يضربه بالحذاء لا يستحق أن يعيش. شخصية العقاد وحدته وعنفه تسمح له بأن يقول ذلك.. لكنه أغلب الظن قال لبعض المقربين من أصدقائه.. ولم يعلنه أنيس إلا بعد أن مات الرجلان العقاد وعبدالناصر.. فالبطولة فى مصر تأتى دائما بأثر رجعى.

●●

طريق أنيس منصور لابد أن يقودنا إلى مصطفى محمود..

كتب د.مصطفى محمود مقالا عن هتلر ففوجئ بإيقافه عن الكتابة مباشرة، دون أن يعرف السبب لكنه يقول: أخذت موضوع إيقافى عن الكتابة ببساطة لأن الجميع ابتداء من إحسان عبدالقدوس إلى مفيد فوزى حصلوا على حصصهم من عبدالناصر، منهم من سجن ومنهم من رفد ومنهم من تعرض لمصاعب كثيرة، فقلت فى نفسى إن حظى أفضل من غيرى فقد منعت من الكتابة فقط!

عاد مصطفى محمود إلى الكتابة فى موقف درامى فقد استدعاه هيكل إلى مكتبه وقال له هيه أنت استويت.. ولما سأل د.مصطفى عن سر منعه من الكتابة، قال له هيكل.. لا تفكر فى شىء.. ارجع اكتب وخلاص.. عاد مصطفى محمود للكتابة.. لكنه ظل محتفظا بجرح منعه من الكتابة.. وكان طبيعيا بعد ذلك أن يفتح النار على عبدالناصر فى كل مناسبة وحتى الآن.

يرى مصطفى محمود أن أخطاء عبدالناصر كانت أكثر كثيراً من حسناته ويقول: افرض أنك بنيت سدا أو مصنعا ولكنك هدمت إنسانا، ما الفائدة إذن؟ ليس هناك شىء فى هذا الوجود أن تهدم الشخصية المصرية وتهدم الإنسان.

فى ٤ يونيو عام ١٩٨٧ كتب مصطفى محمود فى أخبار اليوم مقاله الشهير «سقوط اليسار» قال فيه مهاجما عبدالناصر وسياساته: فى مصر تركة من الأخطاء القاتلة لابد من مواجهتها فى جرأة.. مجانية التعليم الجامعى التى حولت الجامعات إلى مجموعة كتاتيب لا تعليم فيها ولا تربية ولا حتى مجانية، والخمسون فى المائة عمالاً وفلاحين فى مجلس الشعب التى لا مثيل لها فى الصين أو الهند أو فى روسيا أو فى أى بلد رأسمالى أو اشتراكى، والتى لم تكن سوى رشوة قدمها عبدالناصر ليستدر بها التصفيق والهتاف.

ليست هذه الرشوة الوحيدة فى رأى مصطفى محمود يقول: حق التعيين لخريج الجامعة فى الوظائف الحكومية سواء وجدت أم لم توجد، وسواء كانت هناك مسوغات وضرورات للتعيين أو لم توجد، وهى رشوة أخرى وبدل بطالة قدمها عبدالناصر من خزانة مفلسة ترزح تحت عبء الديون لكل عال متبطل ليقود له المظاهرات ويوقع على الاستفتاءات.

الطعن وصل إلى عبدالناصر مباشرة، فما فعله ناصر عند مصطفى محمود مجرد غوغائية زعيم أراد أن يكتل الشارع خلفه ليضرب به أى طبقة تناوئه يقول: الدرس الأول الذى تعلمه فى سنة أولى شيوعية، فى كيفية الحفاظ على الكرسى، اضرب الطبقات بعضها ببعض وأشعل فتيل الحقد الطبقى، ثم احتفظ بعربية الإطفاء الوحيدة، يلجأ الكل إليك ويقبل الكل قدميك، ويستجد بك الخصم والصديق، لأنك تكون حينئذ مرفأ الأمان الوحيد فى بحر الفتن والأحقاد والتناقضات، وهكذا فعل صاحبنا، فقد وعى الدرس وطبقه بحذافيره، وهكذا ترك البلد بحرا من الفتن والأحقاد والتناقضات وميراثا من الخراب لكل من حمله من بعده.

طلقات مصطفى محمود طالت أحمد بهاء الدين فقد تعجب مصطفى من بهاء عندما كتب أن عبدالناصر ليس مسئولا عن الإهمال والتسيب والفساد والتدمير الذى وصل بنا إلى ما نحن فيه، رغم أن بهاء أول من يعلم أن الفساد ما ولد إلا فى حكم عبدالناصر الذى غابت فيه الحرية، وقطعت الألسن وقصفت الأقلام، وسارت مبادئ النفاق والانتهازية، وحكمت مراكز القوى وانطلقت عصابة القتل تعيث فى الأرض فسادا، وما

ولد الإرهاب الذى نعانى منه إلا فى زنازين التعذيب فى السجن الحربى بأمر وتوجيه وإشراف عبدالناصر.

مصطفى محمود رفض أن يمن أحمد بهاء الدين على المصريين بالسد العالى الذى أقامه عبدالناصر وقال له: أولى بك أن تلتف حولك لتجد أن مترو الإنفاق وحده بأعماله الخرسانية مضافا إليه عشرات الكبارى والإنفاق والمصانع والسنترالات ومحطات توليد الكهرباء والموانئ الجديد والمدن السكنية والوادى الجديدة وتوسيع القنال وغزو الصحارى والتنقيب عن البترول، هى أضعاف السد العالى من ناحية الحجم الإنشائى ومن ناحية الأثر، ومع ذلك فقد تمت جميعها دون أن نرى حسنى مبارك يقتل أحداِ أو يسجن بريئا أو يعذب مخالفا له فى الرأى.

وحتى ينهى مصطفى محمود القضية قال: الزملاء الرفاق الذين يلبسون قميص عبدالناصر ينسون أن القميص أدركه البلى، وأنه دخل فى تركة ماض وأصبح مخلفات، وأن العصر بمشكلاته ومتغيراته تجاوز عبدالناصر، وفكر عبدالناصر، وأن المشكلات التى استجدت تحتاج إلى فكر جديد، وأن نقود أهل الكهف التى يدورون بها فى الأسواق لن تشترى لهم شيئا، من وقتها ود.مصطفى محمود لا يقول شيئا غير هذا عن عبدالناصر بمناسبة أحيانا وبدون مناسبة أغلب الوقت.

●●

فى أبريل ١٩٧٥ طرح د.فؤاد زكريا فى مجلة «روز اليوسف» سؤالا هو: هل كان جمال عبدالناصر فوق مستوى الخطأ وفى إجابته عن السؤال نفى عن نفسه أن يكون صاحب مصلحة أو رجعياً وهو كذلك لم يكن صامتا أيام جمال عبدالناصر يقول: السؤال التوليدى الذى يثار ضد من يوجه انتقادا للعهد الناصرى، والذى يقول: أين كنت فى ذلك العهد.. ولماذا لم تتكلم أثناءه؟ ففى استطاعتى أن أجيب باطمئنان كامل أننى تكلمت ونبهت وانتقدت.. ويخلص فؤاد زكريا إلى أنه عندما يكون الأمر متعلقا بمصير أمة مرت بتجربة معينة دامت فى الحكم قرابة عشرين عاما، فلا ينبغى أن نمتنع عن التقييم

الموضوعى الصارم مراعاة للعواطف والشهامة والنخوة، ولا يجب السكوت عن الخطأ لمجرد أن مرتكبه قد مات، وخاصة إذا كان هذا الخطأ متعلقا بحياة الشعب بأسره.

وتساءل فؤاد زكريا كيف نستطيع أن نرسم خطوط مسيرتنا فى المستقبل إذا لم تستوعب دروس الماضى كاملة.. إذا لم نحكم عليها بموضوعية ونزاهة، دون عاطفية كاذبة أو ولاء ساذج!..

وانطلاقا من هذا التساؤل يقول زكريا: بوصفى مواطنا عاديا يحس بالقلق على مصير بلاده وبالحزن على أوضاع الملايين من فقراء شعبه، فإنى لا استطيع أن أتصور تجربة اشتراكية يكاد يكون استغلال النفوذ هو القاعدة فيها، والنزاهة الشذوذ، ولقد كانت تلك الطبقة بالفعل هى النتيجة المنطقية لانعدام الرقابة الشعبية على المال العام، ولأن معظم المستغلين كانوا يستندون إلى مراكز القوى بأجيالها المختلفة، ومن ثم كانوا فى كثير من الأحيان يرتكبون آثامهم بطريقة شبه علنية، اعتمادا على متانة المسند الذى يرتكزون عليه، وفى شعب فقير مطحون كالشعب المصرى يصبح مثل هذا الاستغلال جريمة كان ينبغى أن يشنق مرتكبها علنا فى أوسع الميادين، ومع ذلك فإن التستر كان هو القاعدة، ومازالوا يشاركون فيه إلى اليوم بدفاعهم المطلق عن التجربة الناصرية.

●●

من بين الروائيين الكبار.. يأتينا نجيب محفوظ.. كتب كل ما أراد... أصدر أهم رواياته فى عصر جمال عبدالناصر.. تحدث عنه كثيرا.. فهو يعتقد أن الرئيس جمال عبدالناصر أعطى الأدب والفن مساحة من الحرية، لم يمنحها لغيرها من المؤسسات، فقد كان الأدباء يعبرون عن رأيهم بالكناية والرمز، لأن الحرية داخل حكم شمولى كانت لها سطوتها، والرقابة فى داخله شديدة، ويؤكد محفوظ أنه لم يصب بسوء فى عهد عبدالناصر رغم أنه كان يمثل نوعا من المعارضة الذاتية أو النقد الذاتى.. وعلى طريقة نجيب الساخرة يقول: بل بالعكس أخذنا أوسمة وحصلنا على جائزة الدولة التقديرية!.

ولأن نجيب محفوظ ظل فترة طويلة من حياته يهادن.. حتى قال رأيه بصراحة كاملة فى حواره الطويل مع رجاء النقاش وضمه كتاب «نجيب محفوظ.. صفحات من مذكراته

وأضواء جديدة على أدبه وحياته» فى هذا الكتاب الخلاصة قال نجيب محفوظ: كانت أول مشكلة حقيقية تواجه الثورة هو ما سمى بأزمة مارس عام ١٩٥٤ عندما حدث صراع على السلطة بين فريق عبدالناصر وأنصار محمد نجيب، ولقد انحزت إلى جانب محمد نجيب لسبب أساسى، وهو أنه كان من حزب الوفد والديمقراطية، وبسببها فقد السلطة، وفقدت أنا الأمل الذى راودنى بأن الثورة سوف تتجه نحو الديمقراطية والاستعانة بالوفد، وحزنت لنجاح فريق عبدالناصر فى الإطاحة بمحمد نجيب، ولذلك اتسمت مشاعرى بنوع من السلبية تجاه عبدالناصر بعد هذا الحادث.

كان هذا مبررا لنجيب محفوظ ألا يتعاطف مع جمال عبدالناصر عندما جرت محاولة إغتياله فى ميدان المنشية بالاسكندرية عام ١٩٥٤، لكن نجيب محفوظ سرعان ما تعاطف مع عبدالناصر يقول: كان تأميم القناة من الأحداث التى هزت وجدانى وانفعلت بها انفعالا شديدا، لقد أشعل التأميم فى نفسى مشاعر وطنية متدفقة، خاصة بعدما أعقبه من عدوان ثلاثى على مصر، مما جعلنا نصبح مع الثورة كلا لا يتجزأ، وهو الأمر الذى جعل عبدالناصر يتحول فى نظرنا نحن المصريين إلى زعيم.. أما مشاعرى تجاهه فقد تحولت إلى الإيجابية والحماس وزاد تقديرى وحبى له إلى أقصى درجة، ولما هدأت الضجة وسكنت أعدت التفكير فيما حدث، وكان ذلك بعد عدة سنوات من العدوان، واكتشفت أننا أعطينا الموضوع أكثر مما يستحق.. وأن ما قيل عن الانتصار العظيم للثورة، ما هو إلا انتصار ناقص صنعه الإعلام ووسائل الدعاية الجبارة!.

بعد وفاة عبدالناصر كتب نجيب محفوظ كلمة رثاء فى عبدالناصر نشرتها «الأهرام» يوم ٢ أكتوبر ١٩٧٠ قال فيها تحت عنوان «كلمات من السماء» وكان الكلام فى صورة حوار بين ناصر ومحفوظ:

■ حياكم الله يا أكرم زاهد

■ حياكم الله وهداكم.

■ إنى أحنى رأسى حبا وإجلالا.

■ تحية متقبلة ولكن لا تنس ما سبق من قولى «ارفع رأسك يا أخى».

■ نحن من الحزن فى ذهول شامل.

■ لا يحق الذهول لمن تحدق به الأخطار وتنتظره عظام الأمور.

■ يعزينا بعض الشىء أنك إلى جنة الخلد تمضى.

■ وسيسعدنى أكثر أن تجعلوا من دنياكم جنة.

■ إن عشرات التماثيل لن تجعلك فى خلود الذكرى.

■ لا تنسوا تمثالين أقمتهما بيدى وهما «الميثاق» وبيان ٣٠ مارس.

■ وراءك فراغ لن يملأه فرد.

■ ولكن يملؤه الشعب الذى حررته.

■ سيبقى ذووك فى صميم الأفئدة.

■ أبنائى هم الفلاحون والعمال والفقراء.

■ وجدت قرة عينى فى توديع الكرة الأرضية لك.

■ أما قرة عينى ففى استقلال الوطن العربى والحل العادل لأرضه الشهيدة.

■ سيكون أحب الطرق إلى نفسى الطريق إلى مسجدك.

■ طريق الحق.. هو الطريق إلى العلم والاشتراكية.

■ نستودعك الله يا أكرم من ذهب.

■ كلنا ماضون ومصر هى الباقية.

كان نجيب محفوظ أول المتبرعين لبناء تمثال لعبدالناصر.. وكانت هذه دعوة تبناها توفيق الحكيم.. ثم يأتى الرأى النهائى لنجيب محفوظ عندما يقول: «لا أبالغ عندما أقول إن مصر لا تحتاج الآن إلى زعيم من أمثال عبدالناصر أو سعد زغلول، لأن وجود مثل

هذا الزعيم فى الظروف الراهنة يربك الأمور ويعطل الديمقراطية، ذلك أن حب الناس له سوف يجعلهم يتغاضون عن أخطائه حتى ولو كان من هذه الأخطاء، فرض أسلوب الرأى الواحد.. ووضع المعارضين فى السجون، فمصر بحاجة الآن إلى حاكم وطنى مستنير لديه إجابة علمية واضحة عن هذا السؤال: ما هو دور مصر فى هذا النظام العالمى الجديد!!

●●

لم أقابل كاتبا دخل السجن فى عهد عبدالناصر.. إلا ورأيته واقعا فى غرام عبدالناصر.. ولا أنسى الجملة التى قالها لى محمود أمين العالم.. من أنه كان يضرب فى سجن عبدالناصر لكنه لم يكن حزينا لذلك.. كان حزينا فقط لأنه لم يستطع أن يشارك فى الإنجازات التى قام بها عبدالناصر خارج السجن.. تكررت هذه الجملة كثيرا، لم يلعن الضحايا فى سجون عبدالناصر من سجنهم.. لكنهم خرجوا يكتبون ويتناقشون. ويحاولون أن يصلوا إلى إجابة!.

صلاح عيسى فى كتابه «مثقفون وعسكر» يحاول أن يصل إلى إجابة السؤال الأبدى.. لماذا حزن المصريون كل هذا الحزن على عبدالناصر؟ بدأ صلاح من صورة عبدالناصر التى كانت المنظور الغربى الاستعمارى بل وفى منظور آخرين ممن يعادون هذا الغرب الاستعمارى، صورة ديكتاتور وطاغية يحتقر الشعب بقسميه الواعى وغير الواعى، المتكلم والصامت، المتحرك والصابر، فيعامل الأولين بالمعتقلات والسجون ووسائل القهر والتعذيب كتعبير عن ازدرائه لإرادتهم، ويخضع الآخرين لعمليات غسيل مخ عنيفة، تحول بينهم وبين الوعى بمصالحهم، فقد كان طبيعيا عند تطبيق المحطات العقلانية الأوروبية، أن يفرح المصريون لموت الطاغية الذى احتقرهم وعذبهم وامتهن إرادتهم، أو أن يكتفوا بالترحم عليه انصياعا للمشاعر الدينية التى تؤثر الشماتة فى الموت، فإذا حتم الأمر بعض المبالغة فليكن الدمع قليلا، أما أن تنتشر تلك الحالة العنيفة من الاكتئاب الجماعى، فإن الأمر عسير على الفهم.

ويعرض صلاح عيسى تفسيرا آخر تبناه البعض ليصلوا إلى حقيقة حزن المصريين على عبدالناصر يقول: طرح آخرون الافتراض الذى يذهب إلى تفسير، «مواكب الدموع المصرية» التى ودعت عبدالناصر، بأنها كانت تقديرا لإيجابيته، وخصوا بالذكر منها سياسته المعادية للاستعمار وإنجازاته الاجتماعية المتقدمة، لكن قيل لهؤلاء: إن معظم إيجابيات عبدالناصر غربت شمسها قبل أن تأفل شمس حياته، وأضافوا، لعل الطاعنين على عبدالناصر بأنه كان أعظم ديماجوجى البرجوزاية العربية فى كل تاريخها، لم يجدوا دليلا قويا يؤيدهم كما وجدوه فى هزيمة ١٩٦٧ التى كشفت عن أن عالم عبدالناصر لم يكن سوى أبنية من الورق هدمت فى ٦ ساعات، وجاء السقوط سريعا وخاطفا بينما عنتريات عبدالناصر الكلامية لم تغادر الآذان بعد.

نقل صلاح عيسى ما فسرت به الصحف الغربية - خاصة الأمريكية - دهشتها للاستقبال البالغ الحرارة الذى نظمه السودانيون لعبدالناصر حين سافر ليشهد مؤتمر قمة الخرطوم الذى عقد فى أغسطس ١٩٦٧، وبعد ما يقرب من شهرين من الهزيمة، فقالت إنه لأول مرة فى التاريخ يحظى قائد مهزوم بذلك الاستقبال الذى ندر أن حظى به الغزاة المنتصرون، ولعل شيئا من ذلك طال من حاولوا تحليل ما فعله المصريون والعرب يومى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧، فقد خرج الناس يطالبون عبدالناصر بالبقاء فى منصبه بعد أن أضاع خمس الأراضى المصرية وألحق ما بقى من الأراضى الفلسطينية فى يد العرب، بما احتل منها فى عام ١٩٤٨، وفى لعبة ديماجوجية تافهة تسبب فى قتل آلاف من المصريين والعرب فى لا معركة.

مدرسة أخرى رفعت ما قاله كعب الأحبار يوما لعمر بن الخطاب من أن الله عندما خلق الدنيا جعل لكل شىء شيئا.. فقال الشقاء أنا لاحق بالبادية وقالت الصحة وأنا معك، وقالت الشجاعة أنا لاحقة بالشام فقالت الفتنة وأنا معك - وقال الخصب أنا لاحق بمصر.. فقال الذل وأنا معك!.

أصحاب هذه المدرسة - كما قال صلاح عيسى - قالوا إن مصر كدولة نهرية بدأت بعبادة النيل وهو أعتى الطغاة حيث سيطرت روح العبد على شخصيتها القومية، فانتقلت

من عبادة النهر إلى تأليه الفراعين، ثم استنامت بعد ذلك دون مقاومة، لكل من تعاقب على تاريخها من الغزاة الطغاة وما أكثرهم، ونفسية العبيد تلك هى التى جعلت المصريين يودعون جلادهم بكل هذا الحزن الجماعى العنيف.. كأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا دون أن يجلدوا أو يعذبوا.. فهم قوم مازوكيون «يتلذذون بالطغيان ويستمتعون بالقسوة ويصنعون الطاغية إذا عز وجوده».

لم ينحز صلاح عيسى لرؤية.. ولم يرفع رأيا على آخر.. عرض فقط كل ما قيل ليؤكد أن عبدالناصر كان محيرا فى حياته.. وفى موته للدرجة التى احتار الجميع فى تفسير الحزن عليه وتوديعه بمواكب من الدموع لم تنته ربما حتى الآن.. إننا أيضا لا نملك إجابة.. ولا أعتقد أن أيا ممن يكتبون عن عبدالناصر من أنصاره أو معارضيه يملك إجابة.. لأن عبدالناصر بفعل عوامل كثيرة يظل عصيا على الفهم ومعرفة حقيقته كظاهرة اقتحمت تاريخ مصر ويندر أن تتكرر بعد ذلك!.

●●

أطباء وجواسيس فى بيت عبدالناصر!

عندما أرسم صورة لجمال عبدالناصر.. تقتحمنى لحظات الإنجازات العظيمة.. والانكسارات الكبيرة.. تتداخل خيوط العزة والكرامة بخيوط السجون التى دخلها صفوة المجتمع على يد الزعيم الذى جاء ليخلصهم فإذا به يعتقلهم ويدمر قدراً ليس يسيرا من كرامتهم.. أجد فى الصورة عشق رجل الشارع البسيط له وكره أصحاب المال والأعمال لسيرته.. تتزاحم أمام عينى مظاهرات الانتفاضة الأخيرة وصوره مرفوعة على سواعد الشباب تستنجد به لإنقاذ شعب فلسطين.. وجلسات المثقفين الناقمة عليه والتى تتهمه بأنه هو وليس غيره الذى ضيع فلسطين بعد هزيمة الأيام الستة - أراه وهو شامخا على منبر الأزهر يعلن سنقاتل.. وأراه منكسراً وحزينا وهو يعلل تنحيه وانضمامه لصفوف الجماهير وتحمله للمسئولية كاملة!

أنحى هذه الصورة جانبا.. لأن هناك صورة أخرى لعبدالناصر غائبة وغير مطروحة.. هذه الصورة تكونها تحاليل الدم وخطوط القلب وروشتات العلاج وأنابيب الأكسجين وأجهزة التنفس الصناعى.. صورة يحل فيها التحدى محل الضوء والوهن محل الظلال.. تمتلئ بملامح يتداخل فيها الضعف وإرادة الحياة، الأمل والانتحار، الخوف من فقدان شىء ما والإحساس بتوقع هذا الفقد.. هذه الصورة لعبدالناصر المريض ستجعلنا نغير أسلوبنا فى التعامل مع كل ما يمت بصلة له.. على الأقل ستجعلنا نتعامل معه على أنه بشر يخطئ ويصيب، ينهزم وينتصر.. يفرح ويمرض.. وفى النهاية يعيش ويموت.

صورة عبدالناصر المريض سيطرت على كتاب «اغتيال عبدالناصر» الذى أصدره عادل حمودة، لم يهتم عادل بتقييم الثورة.. ولا ماذا بقى منها بعد خمسين عاما.. لم يغرق فى مناقشات بيزنطية.. ولا محاورات فلسفية.. لكنه حاول أن يكون جديدا ومتجددا.. فاتجه إلى مساحة لم يلتفت إليها من كتبوا عن عبدالناصر اعتقادا منهم أن الرجل لم يدخلها.. فكيف يمرض الزعيم.. مع أنه مرض وكيف يموت الزعيم.. مع أنه مات..

هبط عادل حمودة على حالة عبدالناصر الصحية.. ورحلته مع المرض التى انتهت بموته من مفارقة عميقة.. ففى الدول الفقيرة التى تحاول خوض تجربة ليبرالية تنفتح فيها الحريات السياسية وحقوق الإنسان، يكاد الأمر كله يتوقف على مدى قدرة الحاكم على تحمل مخاض التجربة، وتكاد هذه القدرة تتوقف على حالته الصحية والعصبية والنفسية، ولذلك ليس غريبا أن تجارب كثيرة من هذه العينة انتهت بسبب صداع أو ضغط دم مرتفع.. أو تصلب فى الشرايين أصاب الحاكم، أما فى الدول الديمقراطية فالمعارضة تفتش فى ذمة الحاكم المالية وحالته الصحية وتصرفاته الشخصية، وتنشر على الرأى العام ما تتوصل إليه، ولا يتهمها أحد بالسخافة ولا بالتجاوز.. فحياة الشعوب لا ينبغى أن تتأثر بدرجة حرارة الحاكم.

على هذه الخلفية نسير مع رحلة مرض عبدالناصر وأعيننا على واقعتين شهيرتين.. هما موت الدكتور أنور المفتى طبيب عبدالناصر الذى قيل إنه قتل مسموما لأنه أفشى

سر مرض الرئيس.. وقصة الجاسوس الإسرائيلى على العطفى الذى قيل إنه قتل جمال عبدالناصر.

مريض استثنائى

سأل «شواين لاى» أول وفد سياسى مصرى زار الصين بعد وفاة جمال عبدالناصر: قال: لماذا مات جمال عبدالناصر؟ فوجئ الوفد بالسؤال.. ذهلوا وصدموا فلا أحد فى مصر يسأل لماذا يموت الناس، ولم يرد أحد على السؤال حتى يمر دون تورط، لكن رئيس الوزراء الصينى كان مصراً على التورط فسأل متى ولد عبدالناصر، وكانت الإجابة فى ١٥ يناير ١٩١٨، وسأل: ومتى توفى؟ وكانت الإجابة فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ فقال إذن فقد مات عن ٥٢ سنة و٨ أشهر و١٣ يوما.. ثم أضاف فى دهشة هل هذا ممكن؟، أحس أعضاء الوفد بالحيرة من جديد.. فردوا: هذه مشيئة الله، فقال لهم: يجب ألا نحمل الله مسئولية ما نفعل.. لابد من سبب، لقد مات عبدالناصر شابا، فسن الـ ٥٢ هى سن صغيرة، إننى الآن فى الثانية والسبعين ولا أزال أعمل وفى صحة جيدة إننى لا استطيع أن أتصور كيف مات.. وكانت تتوافر له أفضل العناية الطبية.. كيف سمحتم له أن يموت؟.. وأضاف شواين لاى وكان لابد أن يضيف، قال: سأوضح لكم السبب: لقد مات من الحزن والقهر.. مات كسير القلب.. أما الذنب فهو ذنب الاتحاد السوفيتى فقد خدعه السوفيت ودفعوه إلى مأزق ثم تخلوا عنه وتركوا فؤاده يتحطم وينكسر».

كان الزعيم الصينى محقا.. لكن كانت هناك ظلال أخرى فى خلفية الصورة.. فالسوفيت كانوا مجرد عامل فقط.. فقد أرهقنا قلب عبدالناصر بمذابح القبائل العربية، وقد كشفت قضية انحراف المخابرات أن صلاح نصر كان يتلذذ بتحريكه من مكان إلى آخر فى منتصف الليل بدعوى الحفاظ على حياته من المؤامرات.وفى النهاية انهارت صحة عبدالناصر.. وإن كنا لم نعرف بانهياره إلا بعد موته.. لم نعرف أنه أصيب بمرض السكر وبتصلب الشرايين، ولم نعرف أن قلبه تعرض لأكثر من أزمة وأن الشريان التاجى أصيب بسدة أو جلطة عرضت جزءاً من القلب للتليف، ولم نعرف أن البنكرياس

شل، والساق اليمنى اقتربت من مرحلة الغرغرينا، كل ما أعلن فقط أن الرئيس أصيب بالانفلونزا.. أى أنه عطس وارتفعت درجة حرارته فقط!.

لن تصدق أن عبدالناصر كان مريضا.. فقد ظل حتى النهاية عملاقا ساخرا قادرا على إطلاق النكتة، فاعتقد الجميع أنه فى كامل لياقته الصحية والنفسية.. ولأنه كان يقف على قدميه بالساعات يخطب وينفعل.. فإن الجميع تصوروا أنه ليس مريضا مطلقا.. حتى جاء يومه الأخير.. مات فجأة.. ولم يستوعب البعض موته.. كما لم نعرف جميعا تفاصيل مرضه حتى الآن.

لا أحد يعرف متى أصيب جمال عبدالناصر بالسكر.. ولا هو عرف.. لكن المؤكد أن مضاعفات السكر فرضت نفسها عليه بقسوة فى نهاية ١٩٦٨.. والشائع أن ناصر أصيب بالمرض اللعين فى صيف ١٩٥٨، بعد مفاوضات شاقة أجراها مع الاتحاد السوفيتى، بعد ساعات قليلة من قيام ثورة عبدالكريم قاسم فى العراق، حاول خلالها إقناع خروشوف بدعم الثورة لكن دون جدوى اكتشف عبدالناصر إصابته بهذا المرض بالصدفة وبعد تحاليل أجريت له، ولم تكن التحاليل تجرى له بصفة دورية، كان يرفض ذلك بحجة أنه لا يملك الوقت اللازم لهذه التحاليل.

كان من السهل السيطرة على ارتفاع السكر عند عبدالناصر.. فالوحدة التى أعلنت مع سوريا، وقيام الجمهورية العربية المتحدة، وبروز جمال عبدالناصر زعيما للأمة العربية واستجابة السوفيت لطلب دعم ثورة عبدالكريم قاسم، وتولى د.أنور المفتى مسئولية علاج ناصر.. كل هذه أمور كانت تدفع فى محاصرة السكر.. لكن من قال إن كل ما يطلبه المرء يدركه؟!.

ففى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ أى قبل وفاة جمال عبدالناصر بتسع سنوات، وقع انفصال سوريا عن دولة الوحدة بانقلاب عسكرى.. فى ظل الانفصال انطلق السكر متجاوزا حدود الأمان.. وارتفعت نسبته فى الدم إلى ٥ جرامات فى اللتر الواحد، وهبطت كميات القلويات الاحتياطية فى جسد عبدالناصر، بدأ لعابه يجف والإحساس بالعطش يزداد وراح وزنه يخف نتيجة تكسر البروتين.

كان الانفصال بداية العد التنازلى لهبوط نجم عبدالناصر السياسى.. فكل الأحداث التى أعقبته أدت إلى ذلك.. عودة عبدالحكيم عامر المهينة من دمشق، زيادة نفوذ عامر وجماعته داخل وخارج ثكنات الجيش، انفلات الكثير من خيوط القوة والسلطة من بين يديه، ما جرى فى اليمن، انحياز صلاح نصر وبعض مساعديه إلى خصومه فى صراع الكواليس على الحكم.. كل ذلك جعل منحنى القوة ينزل ومنحنى السكر يرتفع.

تدخل د.أنور المفتى بقوة ليواجه المرض العريبد فى جسد عبدالناصر، فرض على الرئيس المريض إجراء التحليل ثلاث مرات يوميا مهما تكن مشاغله، ومهما يكن المكان الموجود فيه، واستجاب عبدالناصر.. وأصبح يأخذ جرعة مكثفة من الأنسولين تكفيه ٢٤ ساعة، كان يحقن بها كل صباح، وكانت الجرعة تحوى ٨٠ وحدة علاجية، أى ٤ أضعاف ما كان يحقن به من قبل، ولم تكن هناك مشكلة فى الطعام.. كانت المشكلة فى ضبط الانفعال وإبعاد جمال عبدالناصر عنه، وتقليل مجهود العمل، وبدأ الكلام لأول مرة عن ضرورة الراحة والإقلاع عن التدخين.

كان عبدالناصر يدخن ٨٠ سيجارة فى اليوم، وقد علمه عبدالحكيم عامر هذه العادة عندما كانا ضابطين حديثى التخرج ويقطنان معا فى السكاكينى بمنطقة الظاهر، وكان فى البداية يدخن من علبة سجائر عبدالحكيم عامر، ثم أصبح يشترى سجائره ومع ازدياد الأعباء تزايد عدد السجائر، ولأنه كان يستمتع بالتدخين فلم يقتصر على نوع واحد من السجائر، وفى بداية الثورة لاحظ الدبلوماسيون الأجانب أنه يفضل سجائر «كنت» الأمريكية، وبعد حرب السويس تحول إلى سجائر «كرافن» الإنجليزية، وقبل أن يقلع نهائيا عن التدخين فى سنة ١٩٦٨ كان قد تحول إلى السجائر المصرية.. وفى تلك الفترة أيضا، بدأ الملح يخف من الطعام.. وبدأ الفحص الشامل يصبح عادة أسبوعية.

أحاط عبدالناصر نفسه بعدد من الأطباء.. لكنه للأسف الشديد اختارهم بقاعدة أهل الثقة وليس أهل الخبرة، ولذلك فقد كان من الصعب أن يفرضوا إرادتهم على عبدالناصر، ولذلك أيضا كان السكر يرفع راية الخطر بين فترة وأخرى، فقد هاجمت

مضاعفاته عبدالناصر وهو يزور مشروع مديرية التحرير عام ١٩٦٤ مع رئيس الوزاء السوفيتي خرشوف، فأثناءالرحلة توقف الموكب وجاء من يقول للدكتور الصاوي حبيب الطبيب المرافق في سيارة إسعاف الموكب: الريس تعبان، وأسرع إليه الطبيب ليجده في حالة غثيان، وتسيطر على جهازه الهضمي رغبة في القئ!.

هذه الأعراض يمكن أن تتشابه مع أعراض ارتفاع نسبة الحموضة في المعدة ويمكن أن تنتهي تماما بأقراص مضادة للحموضة وحقن تهدئ من انقباضات المعدة.. لكن مع مريض يعربد السكر في جسمه مثل جمال عبدالناصر، تكون هذه الأعراض إنذارا بما هو أسوأ «الكوما» أو الغيبوبة، وبداية وجود مادة الاسيتون في الدم، وهذا الإنذار يأتي في صورة إعياء واضطراب وغثيان وفقدان الشهية ورغبة مستمرة في التثاؤب وتغير في التنفس بحيث يزداد عمقا وعددا وارتخاء في العضلات.

كان الإنذار الذي أصدره جسد عبدالناصر قاسيا وقويا، لكن لم يلتقط أحد إشاراته.. فضاعت الإشارة وضاع الجسد.. وبعد ٣ سنوات وصل عبدالناصر إلى مرحلة الأسيتون الذي هو مادة سامة تذهب مع الدم إلى الخلايا فتؤثر عليها، وبالتالي على نشاط الجسم، فيشعر المريض بانحطاط القوى لضياع الوحدات الحرارية غير المحترقة في البول، فكل جرام واحد من الاسيتون يعادل ٧,٥ من السعرات الحرارية.

هذا التدهور جعل عبدالناصر يستقبل كل صباح د ناصح أمين.. ليقدم إليه عينتين للتحليل الأولى بعد استيقاظه مباشرة الساعة السابعة والأخرى عند قدوم الطبيب الساعة التاسعة، وكجزء من روشتة العلاج كان على جمال عبدالناصر أن يبذل مجهودا بدنيا محسوبا بدقة، فكان يتمشى في حديقة بيته كل يوم بعد العصر في حوالي الساعة الخامسة برفقة زوجته أو أحد أحفاده، وبعد ذلك يعود إلى التقارير والصحف والإذاعات الأجنبية التي كان يعرف مواعيدها ومكانها والتي كان مولعا بها، وتضمنت روشتة العلاج البند المعتاد والمستحيل وهو ضبط الانفعال والابتعاد عن مصادر الإزعاج.. لم يضبط عبدالناصر انفعاله.. ولكن ضبط الانفعال والابتعاد عن مصادر الإزعاج.. لم يضبط

عبدالناصر انفعاله.. ولكن ضبط الموت موعده فخطفه كما قال شواين لاى عن ٥٢ سنة و٨ أشهر و١٣ يوما.. وهو عمر مبكر جدا للموت..

لغز الدكتور المفتى

الواقعة الثانية كانت واقعة موت د.أنور المفتى رئيس قسم الأمراض الباطنة والطبيب الخاص للرئيس جمال عبدالناصر ٥ أغسطس ١٩٧٥ وقع حادث غير متوقع، كانت له علاقات قوية بمضاعفات مرض السكر فى دم جمال عبدالناصر الذى كان قد توفى قبل خمس سنوات، تقدمت زوجة الدكتور أنور المفتى السيدة فاطمة العبد إلى النائب العام ببلاغ طالبت فيه بالتحقيق فى أسباب مصرعه بعد أن قالت إنه مات مسموما.

قبل توابع البلاغ.. نبقى قليلا مع المفتى - عبدالناصر، تعرف د.المفتى على جمال عبدالناصر بعد اكتشافه مرض السكر فى سنة ١٩٥٨، وقد نجح د.المفتى فى السيطرة على مرض السكر عند جمال، وكان السكر قد أوشك أن يعود إلى معدله الطبيعى.. لكن القدر لم يمهل الطبيب الشاطر ليحاصر المرض، ففى ١٦ يناير ١٩٦٤ لفظ د.المفتى أنفاسه الأخيرة وصعدت روحه إلى السماء تاركة مريض السكر يعانى ويتألم.

الموت كان واحدا لكن الروايات التى فسرته كانت مختلفة.. أغلب أساتذة الطب ممن زاروا د.المفتى بعد سماعهم خبر موته أكدوا أن سبب الوفاة هو انسداد فى شرايين القلب بجلطة وقد أدى ذلك إلى الوفاة فى فترة قصيرة - كان هذا رأى الأساتذة - لكن صحيفة الأخبار كان لها رأى آخر فقد شككت فى تشخيص الوفاة بسبب القلب لأن قلب د.المفتى كان سليما تماما.

الرواية الثانية.. تتلخص فى أن أحد أقاربه اتصل بجريدة الأهرام وقال إن الدكتور أنور المفتى توفى، وأن سبب الوفاة نزيف فى المخ، ونشرت الصحف اليومية الخبر فى طبعاتها الأولى، ثم رفع الخبر من الطبعات التالية.

الرواية الثالثة بطلتها زوجة د.المفتى.. فقرب منتصب الليل، استمعت السيدة حرمه إلى صوت غريب يصدر منه فى أثناء نومه، وقامت لتطل عليه فوجدت أن لونه يميل إلى

الزرقة وانزعجت حينما وجدت أن هناك «رغاوى» بيضاء تخرج من فمه، ونادت عليه فلم يجب، أسرعت الزوجة إلى التليفون، ولم تتذكر فى هذه الساعة غير الدكتور صادق فودة أستاذ أمراض النساء والولادة وهو يسكن بالقرب منهم، أسرع د.صادق إلى منزل د.المفتى ودخل إلى غرفة النوم وبعد الفحص قال: لا فائدة مات الدكتور المفتى.

الكاتب الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد كان صاحب الرواية الرابعة، وقد نشرها فى جريدة الأخبار فى ٢٦ يناير ١٩٦٤ أى بعد عشرة أيام فقط من موت د.المفتى، كتب: نهض من فراشه صحيحا معافى منتعشا لآخر مرة وذهب إلى كليته وألقى محاضرة وذهب إلى عنبر المرضى بالمستشفى يعالج المرضى ويداعبهم باعثا فيهم الأمل، وانتهى من عيادته الخاصة فى ساعة متأخرة وخرج من عمارة اللواء - حيث توجد عيادته - نشيطا محييا بوابها، وقضى ليلته مع صديقه د.شفيق الريدى أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة القاهرة وزوجته، وتركهما فى الساعة الواحدة صباحا، وآوى إلى فراشه بعد أن أوصى زوجته فاطمة بأن توقظه فيما بعد لتناول طعام السحور، وذهبت فاطمة لتعود بعد لحظات فتسمع لزوجها شخيرا عجيبا جزعت له نفسها الحساسة فجرت نحوه توقظه فوجدته قد انتهى.

كانت زوجة د.المفتى كما هو واضح هى مصدر هذه الرواية.. كما كانت مصدر الرواية الخامسة التى وضعتها فى سطور بلاغها إلى النائب العام.. والتى تؤكد فيها أن زوجها د.المفتى مات مسموما لأنه أدلى برأى لم يرض مراكز القوى وكانت تقصد بذلك جمال عبدالناصر.. كان فى بلاغ زوجة د.المفتى إشارة إلى قضية مصطفى أمين وإلى قضية التعذيب المرفوعة ضد صلاح نصر، وقد لوحظ أن البلاغ يتضمن عبارة اشتهر بها مصطفى أمين، ورددها كثيرا فى كتاباته عبارة: إن من حق الشعب أن يعلم الحقيقة، ولوحظ أيضا أن صحف دار أخبار اليوم هى التى اهتمت باتهام قتل الدكتور المفتى بالسم، ولم تنشر الصحف الأخرى أى شىء إلا بعد أن بدأ المحامى العام التحقيق فى البلاغ.. ولوحظ للمرة الأخيرة أن المحامى الذى حضر التحقيق مع أسرة المفتى كان شوكت التونى محامى مصطفى أمين نفسه. ليست هذه مصادفات بالطبع.. وقد غلب

الظن على أن يدا غير يد زوجة د.المفتى هى التى صاغت البلاغ.. وإن كان هذا لا يمنع 'نها وافقت ووقعت عليه.. الظن يتحول عندى إلى منطق.. فكان من الطبيعى أن يقف مصطفى أمين خلف زوجة د.المفتى.. ليس من أجل أن يعرف الشعب الحقيقة.. ولكن من أجل أن ينال من عبدالناصر ونظامه الذى سجنه تسع سنوات بتهمة التخابر لصالح 'مريكا!.

أمام المحامى العام لنيابة استئناف القاهرة قالت زوجة المفتى إن زوجها قد صرح لها بأنه سيموت خلال ثمان وأربعين ساعة لأنه تناول سما وأن هذا السم قد سرى فى جسمه ووصل إلى عينيه وأنه عندما صرح لها بذلك كان يقف أمام المرآة وينظر إلى عينيه.. وأضافت زوجة المفتى أنها تشك فى أن مراكز القوى فى عهد ما قبل التصحيح ١٥ مايو ١٩٧١ قد دست له السم لأنه أدلى برأى لم يرض مراكز القوى فى ذلك الحين، وأن الذى دفعها لتقديم بلاغها ما نشر عن استعمال إدارة المخابرات العامة فى عهد صلاح نصر لأنواع من المسوم لا تظهر آثارها ومنها السم الذى تناوله المشير عبدالحكيم عامر، وطلبت ضم اعترافات صلاح نصر فى قضية انتحار المشير إلى ملف التحقيق.

وبعيدا عن التحقيقات.. وفى كتاب «هؤلاء المرضى الذين يحكموننا» الذى صدر بالفرنسية وترجمته زهيرة البيلى أن عبدالناصر استشار الدكتور المفتى الذى قال: إنه مريض منذ فترة طويلة بمرض السكر دون أن يعرف، وأن المرض قد وصل إلى مرحلة خطيرة، وكان معنى هذه الأعراض أن التهاباً شريانيا ينمو ويزداد فى الأعضاء كلها وقال: إن هذه الأعراض ستؤثر على قواه العقلية ودفع الدكتور المفتى ثمن صراحته، فقد نفذ صلاح نصر الأوامر بقتله بالسم.. ويقال إن السم وضع له فى فنجان قهوة وقال إنه تناوله فى عصير ويقال إنه تناول السم فى بيت جمال عبدالناصر!.

الاختلاف وارد.. لكن المؤكد أن د.المفتى تحدث عن مرض عبدالناصر إلى أحد أصدقائه قال له: إن عبدالناصر واقع تحت ضغط عربى شديد جدا وأن تصرفاته غير طبيعية نتيجة ذلك.. وقد كانت تظهر على عبدالناصر أعراض عصبية ونفسية تجعل

تصرفاته غير منضبطة.. لم يتوقف د.المفتى عند ذلك.. لكنه وصل إلى استنتاج محدد وهو أنه لابد من خضوع الحكام وكبار رجال الدولة لكشف طبى دورى للتأكد من صلاحيتهم الجسمانية والنفسية حتى لا تتأثر قراراتهم بعدم الصلاحية وأن يتم الكشف بواسطة هيئة طبية محايدة يختارها الشعب على أن تنشر النتيجة قبل انتخاب الرئيس أو قبل إعادة انتخابه.

الاحتمالات كثيرة - ولا تزال - فى قضية الدكتور المفتى.. لكن عادل حمودة ينحاز فى كتابه «إغتيال عبدالناصر» إلى أن الدكتور قد يكون قتل دون علم جمال عبدالناصر، أن يكون السم قد دس فى كوب العصير أو فنجان القهوة بواسطة أحد أعوان صلاح نصر الذى كان قد تجاوز بنفوذه مؤسسة الرئاسة، وفى هذه الحالة يكون الدافع للقتل هو أن الدكتور المفتى أساء نهيبة الحكم وهو ما كان صلاح نصر يحافظ عليه شكلا ويفسده فعلا بتصرفاته التى حوكم عليها فيما بعد فى قضية انحراف المخابرات - فى هذه الحالة قد تنتفى مسئولية جمال عبدالناصر الجنائية عن الحادث.. لكن مسئوليته السياسية تبقي. كما بقيت عن هزائم وانكسارات كثيرة شهدها الشعب المصرى على يديه.

الجاسوس يدلك الرئيس:

وكما عاد مرض عبدالناصر إلى الساحة عام ١٩٧٥.. فقد عاد مرة أخرى يطل برأسه لكن عام ١٩٨٢ هذه المرة.. ففى ١٥ يناير وفى احتفال حزب التجمع بذكرى عيد ميلاد عبدالناصر نظر عبدالعزيز الشوريجى شيخ المحامين إلى خالد محى الدين قائلا: إن فى عنق محبى جمال عبدالناصر أمانة لا يمكن التفريط فيها، أمانة الكشف عن قاتله» وقبل أن يفيق حضور الاحتفال ألقى الشوريجى بقنبلته قال: لقد اعترف لى الجاسوس الإسرائيلى الذى يدعى على العطفى بنفسه ونحن فى السجن أنه قتل جمال عبدالناصر بالسم البطئ، عندما كان يدلك له ساقيه أثناء مرضه بمراهم ودهانات خاصة تتسلل إلى الدورة الدموية فتفسدها تدريجيا دون أن يشك أحد.

لكن ماذا كان يعمل على العطفى فى بيت عبدالناصر، لقد أصيب ناصر بجلطة فى ساقه اضطرته للسفر إلى «تسخالطوبو» فى الاتحاد السوفيتى لإجراء جراحة عاجلة وبعد عودته كان معه توصية بإجراء جلسات علاج طبيعى، فقامت رئاسة الجمهورية بترشيح الدكتور على العطفى لهذه المهمة، وكان على العطفى متزوجا من سيدة إيطالية اشتهرت فى الأوساط الرياضية باسم «وليتا» وكانت دائمة السفر إلى روما لزيارة أسرتها، وهناك نجحت المخابرات الإسرائيلية فى تجنيدها والاتصال بها وتسليمها مرهما خاصا ليقوم زوجها باستخدامه فى تدليك ساق عبدالناصر، وقد تشربت المسام المرهم الممزوج بالسم فأدى ذلك إلى إصابة الرئيس بأزمة قلبية انهت حياته.

هذه القصة لم يروها عبدالعزيز الشوريجى فى احتفال حزب التجمع.. لكنها نشرت فى كتاب يحمل اسم على العطفى وقد تسربت بعض نسخ منه إلى دول فى الخليج، قرأها مصريون يعملون هناك وتكفلوا بنقل ما جاء فيها إلى أقاربهم ومعارفهم فى مصر، الكتاب مجهول الهوية وناشره غير معروف وعندما طرح سرا فى الأسواق كان على العطفى فى سجن طرة يقضى مدة العقوبة، فكيف كتب على العطفى الكتاب؟ ودفع به إلى المطابع؟ هذه التساؤلات التى طرحها عادل حمودة فى كتابه أجاب عليها بأن الكتاب قد يكون من تأليف المخابرات الإسرائيلية وأنها ناشره الحقيقى والمسئولة عن توزيعه والمستفيد من ترويج ما فيه.

والإجابة منطقية لأنه من مصلحة المخابرات الإسرائيلية أن ينسب لها قتل جمال عبدالناصر بواسطة رجل كان يدلك ساقيه بالسم، فذلك يعنى أن يدها أطول بكثير مما نتخيل، فقد وصلت إلى بيت جمال عبدالناصر وحجرة نومه وفراشه وثيابه وجسده وخلايا ساقيه وراحت تعبث بهذه الخلايا وتحطمها وتنقل من خلالها السم إلى القلب والدورة الدموية.. فأى نجاح أكثر من ذلك يمكن أن يحققه جهاز مخابرات فى العالم؟.. بالطبع لا يوجد.

عندما أعلن الشوريجى عن قنبلته بمسئلية العطفى عن قتل عبدالناصر.. كان دكتور العلاج الطبيعى يقضى فترة العقوبة فى السجن.. لكنه تحول بعد هذا الإعلان إلى أسطورة.

فمن هو على العطفى..

لم يحصل العطفى إلا على شهادة الإعدادية.. ولد فى النصف الثانى من العشرينيات لأسرة متواضعة وكان ذلك هو السبب المباشر وراء عدم استكماله لتعليمه.. وجد نفسه ينزل إلى سوق العمل مبكراً.. لكن ذلك لم يلبى طموحه الجامح.. استهوته حرفة التدليك فتعلمها على يد الأجانب الذين كانوا فى مصر قبل حرب السويس، وعندما هاجر هؤلاء بعد الحرب خوفا من التمصير والتأميم كان قد أصبح خبيرا ولم يتردد فى أن يقول إنه الأب الشرعى للتدليك والعلاج الطبيعى فى مصر.

ولأنه برع فى حرفته فقد تهافتت عليه الأندية الرياضية الكبرى التى كانت فى حاجة ماسة إلى هذا التخصص، انتهى به المطاف فى النادى الأهلى، ولأنه برع فى إخفاء مؤهلاته، فقد كان يعامل معاملة الخبير والاخصائى فى علم لم يكن معروفا هو علم العلاج الطبيعى والطب الرياضى وأمراض الملاعب.. واصل على العطفى طريقه سافر فى دورات تدريبية ومنح دراسية وشارك فى تأسيس معهد عال للعلاج الطبيعى وكان ذلك عام ١٩٦٢ وفى سنة ١٦٩ استطاع معهد العلاج الطبيعى أن ينفصل ويصبح معهدا مستقلا، فحاول على العطفى المستحيل حتى يصبح عميدا لكن شهادة الدكتوراه التى يحملها غيره، جعلت الحلم مستحيلا دون أن يحصل على شهادة مماثلة، أحس على العطفى بأكبر صدمة فى حياته عندما أيقن أن منصب العميد مسألة مستحيلة وأن الجاه والمال اللذين يتمتع بهما لن يرفعاه إلى مرتبة اجتماعية أكبر من مرتبة المدلك، وقد دفعه ذلك للبحث عن طريق يوصله إلى شهادة دكتوراه بأى ثمن حتى كان لو خيانة الوطن.. وفى لحظة أصبح على العطفى جاسوسا.

بعد القبض على «على العطفى» حاول تضليل المحقق فعندما سأله عن كيفية تجنيده فى المخابرات الإسرائيلية، ادعى أنه كان فى زيارة للعاصمة الهولندية امستردام وتعرف على فتاة من هناك وبينما هما يسهران فى أحد الملاهى الليلية، عرفته الفتاة بتاجر يهودى أقنعه بالدخول معه فى صفقات تجارية، ثم اتضح أن هذه الصفقات غطاء لما هو

خطر وأدهى.. العمل مع المخابرات الإسرائيلية.. كانت هذه القصة كاذبة.. فقد اعترف أنه هو الذى ذهب بقدميه إلى السفارة الإسرائيلية فى امستردام وقدم نفسه إلى مسئول بالأمن بالسفارة وعرض عليه التجسس لحسابهم فى مصر، أوصله مسئول الأمن بمندوب الموساد الذى استجوبه ساعات طويلة وعرضه لجهاز كشف الكذب ولاختبارات شديدة التعقيد.

وضع رجال المخابرات الإسرائيلية على العطفى تحت الاختبار وفترة الاختبار فى كل هذه الحالة لا بد أن تكون كافية ولا نعرف المدة التى قضاها على العطفى تحت الاختبار، وإن كان من المرجح أنها لا يمكن أن تقل بأى حال من الأحوال عن سنة، وأغلب الظن أنها أكثر من سنة ربما ٢ سنوات، وهى الفترة التى قدموا له بعدها شهادة الدكتوراه المزيفة فى العلاج الطبيعى من الولايات المتحدة الأمريكية.

كان الإسرائيليون يعرفون أن شهادة الدكتوراه هى نقطة ضعفه فلم يقدموها إليه بسهولة، وقد استثمروا ذلك جيداً حتى تمكنوا منه واطمأنوا إليه وخلال فترة حصوله على هذه الشهادة كان دائم السفر إلى الخارج وكانت حجته مناسبة البحث والدراسة، وقبل أن يمنح الشهادة، كان قد نجح فى توطيد علاقته بأكبر رأس فى الدولة رئيس الجمهورية أنور السادات.. وكان العطفى موضع ثقة الشخصيات المهمة التى تعامل معها، ولم يشك فيه ولو بصورة عابرة، وكانت الأبواب تفتح له دون استئذان، وعندما قبض عليه لم يصدق أحد أنه جاسوس، وقالت شخصية مهمة كانت قريبة بحكم المصاهرة من الرئيس السادات: إننى يمكن أن أشك فى ابنى ولا أشك فى على العطفى.. وقالت هذه الشخصية نفسها فى مجلس آخر لو كان على العطفى جاسوساً فأنا أيضاً جاسوس.

ظل على العطفى مضطرباً طوال الوقت.. لكن بعد حرب أكتوبر ومفاوضات الكيلو ١٠١ واتفاقيتى فض الاشتباك الأولى والثانية أحس بأن علاقة السادات بالإسرائيليين أصبحت كالسمن على العسل، وأن ضراوة الصدام والصراع بين الجانبين تتحول إلى طريق آخر، ومن ثم وجد نفسه أكثر اطمئناناً.. وكان أن وصل الاسترخاء إلى مداه بل

وصل إلى درجة عدم الحرص. وعندما وقع السادات معاهدة السلام مع إسرائيل وصل على العطفى إلى درجة الاستهتار.

وكان للاستهتار مظاهره فأصبح يلقى خطابه فى أقرب صندوق بريد لبيته، وكان يضع فى حقائب يده وملابسه وهو مسافر أو عائد من السفر ما يدينه بتهمة التجسس لو فتحت هذه الحقائب، وكانت الصدفة وحدها كفيلة بالإيقاع بالجاسوس الكبير.. ففى آخر زيارة له لامستردام وصلت جرأة العطفى إلى أقصاها وذهب بقدميه إلى السفارة الإسرائيلية وتردد عليها أكثر من مرة.. رصدته السفارة المصرية وبعد التحريات والمراقبة تم القبض عليه وهو فى بيته فى القاهرة.

حاول العطفى الإنكار.. لكن رجال المخابرات أوقعوه فى الفخ قالوا له إنه لن يفضح وأنه يمكن تكتم الأمر وأن الفرصة أمامه ليكون عميلاً مزدوجاً وأنه إذا قبل ستحفظ القضية ما دام فى ذلك مصلحة عليا ووافق على العطفى، وقال لهم إنه نادم على ما فعل وأنه سيفعل المستحيل للتفكير عن خطاياه وأنهم فى إسرائيل طلبوا منه الحضور إليهم وأنه سيسافر ويعيش هناك ليكون عيناً لوطنه على العدو.. بعدها وافق العطفى على أن يقول كل ما عنده.. وقام إلى المكتبة وأحضر كتاباً قدمه إلى ضباط المخابرات وقال لهم إن الشفرة التى يستخدمها فى هذا الكتاب وبعد حسابات فنية دقيقة أجراها أحد الضباط اكتشف أن الشفرة ليست فى هذا الكتاب.

أدرك العطفى أن الطرف الآخر يفهم مهنته جيداً، فقام وخرج من حجرة المكتب إلى الصالة، وفتح درجاً مسحوراً فى مكتب صغير، وأخرج منه كتاب الشفرة وجهاز إرسال وورقة من نوع خاص كانت وسط بلوك نوت لا يختلف ورقه عن هذه الورقة إلا فى عيون الخبراء وفى أطراف أصابعهم، وضع على العطفى هذه الأشياء أمام رجال المخابرات فتنفسوا الصعداء.. فقد أصبحت القضية.. قضية حقيقية.

فى اعترافات على العطفى التى كانت طويلة لم يشر من قريب أو بعيد إلى أنه دلك ساق جمال عبدالناصر، ولا أنه كلف بدس السم له فى المراهم والدهانات.. وإن اعترف

بأنه كان على علاقة قوية بأنور السادات وبأنه وضع برنامجه الصحى الخاص بالعلاج الطبيعى وبأنه كان صديقه وكان مسموحاً له بدخول حجرة نومه وبأنه كان قادراً على خصامه إذا صدرت التعليمات بذلك.

اعترف العطفى كذلك بأن شهادة الدكتوراه التى حصل عليها مزورة وحصلت جهات التحقيق عليها من ملفه فى المعهد وضمت إلى باقى أحراز القضية، واتضح أنه لم يناقش رسالة الدكتوراه، بل لم يكتب أبحاثها، وكان ذلك متعمداً حتى يظل السيف على رقبته ويستمر عجينة لينة فى أصابع المخابرات الإسرائيلية.. وبحثاً عن المزيد من الأدلة فتشت الأماكن التى كان دائم التردد عليها.. مكتبه فى المعهد.. ومكتبه فى النادى الأهلى.. ومكتب استيراد وتصدير يملكه شقيقه فى وسط القاهرة.. وأثناء التفتيش قال شقيقه مصدوماً: لقد جعل رؤوسنا فى الأرض.. لو كان قاتلاً أو مرتشياً لهان الأمر.. لكن ماذا نقول وهو جاسوس؟!

قدم على العطفى للمحاكمة أمام محكمة أمن دولة عسكرية عليا.. وكان رقم القضية الجنائية ٤ لسنة ١٩٧٩ وثبت للمحكمة بما لا يدع مجالاً للشك أن على العطفى ارتكب جريمة التخابر مع دولة أجنبية هى إسرائيل للقيام بأعمال عدائية ضد جمهورية مصر العربية.. بأن أمدها بمعلومات لمعاونتها فى عملياتها الحربية للإضرار بالعمليات الحربية لمصر، وكان من شأن هذه المعلومات الإضرار بمركز مصر الحربى والسياسى والدبلوماسى والاقتصادى.

كانت العقوبة المتوقعة للعطفى هى الإعدام.. لكن المحكمة اكتفت بالحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ٢٥ سنة.. إلا أن الرئيس السادات الذى صدق على الحكم خفض الحكم إلى ١٥ سنة أشغالاً شاقة فقط.. ولا شك أن السادات فعل ذلك استجابة لطلب مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل الأسبق عندما التقيا بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد.. بل إن بيجين فعل أكثر من ذلك.. فقد طلب الإفراج عن الجاسوس.. لكن السادات أكد له أن ذلك ليس ممكناً على الأقل فى الوقت الراهن. فشل بيجين فى الإفراج عن العطفى..

لكنه نجح فى مهمة أخرى.. فقد قال بيجين للسادات: إن نشر تفاصيل هذه القضية سيؤثر على مسيرة السلام التى بدأت بعد طول تعثر، فأمر السادات بمنع النشر، كان قرار عدم النشر مريحاً وقد وجد هوى فى نفوس أغلب المسئولين الذين كانوا على علاقة بعلى العطفى وكان معظمهم يتوقع القبض عليه بعد أن استسلم الجاسوس وراح يجيب دون حاجة لسؤال. وبينما كان على العطفى فى سجنه تردد أن السادات أفرج عنه.. وإن كان من المؤكد أن ذلك ليس صحيحاً.. فقد حدث أثناء مفاوضات شرم الشيخ فى صيف ١٩٨١ أن طلب بيجين من السادات إخلاء سبيل الجاسوس السجين، وأذاع راديو لندن الخبر وعلقت صحيفة الأهالى قائلة: «إن الشرفاء يودعون السجون والجواسيس يخرجون إلى الحرية».. وفى يوم السبت التالى نشرت مجلة أكتوبر فى باب اتجاه الريح تكذيباً لما أذاعه راديو لندن وأكدت أن لا صحة له.. وأضافت المجلة أن على العطفى لا يزال فى سجنه ونشرت بجوار التكذيب صورة فوتوغرافية له.

باعتراف على العطفى.. يصبح ما أعلنه عبدالعزيز الشوربجى فى احتفال حزب التجمع بذكرى ميلاد عبدالناصر فى ١٩٨٢ كلاما فى الهواء.. فكل الدلائل تشير إلى أن رواية قتل جمال عبدالناصر بأصابع على العطفى المغموسة فى السم والمدربة على التدليك رواية لا تستطيع أن تقوم بمفردها، ولا تستطيع أن تنهض إلا فى مجتمع لا يثق بنفسه ويرى أنه أصبح مجتمعا مستباحا يقتل فيه الحاكم بالتدليك، وحمامات الساونا، لقد احتاج جمال عبدالناصر إلى التدليك والعلاج الطبيعى فى فترات زمنية لا يمكن الخطأ فى تحديدها.. فترة بداية الآلام من أواخر عام ١٩٦٦ إلى ما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، فترة انفجار الآلام من بعد الهزيمة بأسبوع إلى سفره وعلاجه فى تسخا لطوبو فترة اختفاء الآلام أو التعايش معها بسهولة من بعد عودته إلى إصابته بأزمة قلبية فى سبتمبر ١٩٦٩، وبعد الإصابة بهذه الأزمة أصبح العلاج الطبيعى نوعاً من الإرهاق البدنى لا يستطيع القلب تحمله.. وكان من غير المعقول معالجة آلام الساق على حساب إرهاق القلب.. والثابت أن على العطفى لم يذهب إلى الإسرائيليين إلا فى الوقت الذى لم يعد فيه جمال عبدالناصر فى حاجة إلى التدليك والساونا وحمامات المياه.

معنى ذلك أن على العطفى كان كاذباً، فحسب أوراق القضية فإن فترة التجسس كانت من سنة ١٩٧٢ إلى ١٩٧٩، وحسبما جاء فى التحقيقات فى القضية رقم ٣١٨ لسنة ١٩٧٩ حصر تحقيق أمن دولة عليا فإن على العطفى ذهب إلى الإسرائيليين بقدميه ودون ضغط فى سنة ١٩٦٩، يضاف إلى ذلك أن الإسرائيليين باعتراف العطفى لم يتقبلوه بسهولة وهذا منطقى، وإلا كانوا بلهاء أن يثقوا فى كل من يطرق أبوابهم ويقترح التجسس لحسابهم وأدى ذلك إلى فترة اختبار حاز بعدها الثقة.

ما يؤكد كذب العطفى كذلك.. أن إسرائيل التى حاولت استغلال قضية جاسوسها فى التأكيد على قتلها لعبد الناصر بالسم كانت كاذبة.. فإذا كانت إسرائيل قد قتلت عبدالناصر بسم يتسرب من الساقين إلى القلب تعرف مدة تأثيره. فلماذا فوجئت بوفاته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، كما نقلت وكالات الأنباء، فيوم الوفاة خرج هذا الخبر من إسرائيل.. وكان هذا نصه: «استقبلت إسرائيل نبأ وفاة عبدالناصر بذهول وتركت الأنباء الحكومة فى حيرة تامة فى وقت لم يكن فيه ثمة ما يدعو للظن بأن صحة الرئيس المصرى تدعو للقلق».

قصة الدولة الهشة

هذه الحكايات الثلاث.. قد تعصر قلبك على مرض عبدالناصر لكنها تلفت الانتباه إلى أن الحاكم فى مصر وفى الشرق كله يخاف من المرض.. يخشاه.. ويكذب عندما يتحدث عن أخباره الصحية.. فالغموض الذى أحاط بمرض جمال عبدالناصر وإصراره على إخفائه.. جعلت قصصا غامضة تلحق به مثل حكاية د.أنور المفتى ود.على العطفى.. لا نستطيع أن نفصل فيهما حتى الآن برأى.. وليظل التاريخ أمامنا كهفاً مجهولاً لا نستطيع دخوله بسهولة.

لقد حاول كتاب «اغتيال عبدالناصر» أن يحمل الجميع مسئولية قتل عبدالناصر.. فقد أوجعوا جسده وأرهقوا قلبه.. فسلم الروح وهو يحاول أن يعالج جروح العرب ويخفف آلام المصريين.. وهو كلام يحتاج إلى إعادة نظر.. وإلى التخلص من عقدة الذنب التى ضخمها فى داخلنا نزار قبانى بقصيدته التى أنشدها فور إعلان نبأ وفاة جمال عبدالناصر قال:

قتلناك يا آخر الأنبياء..

قتلناك وليس غريباً علينا..

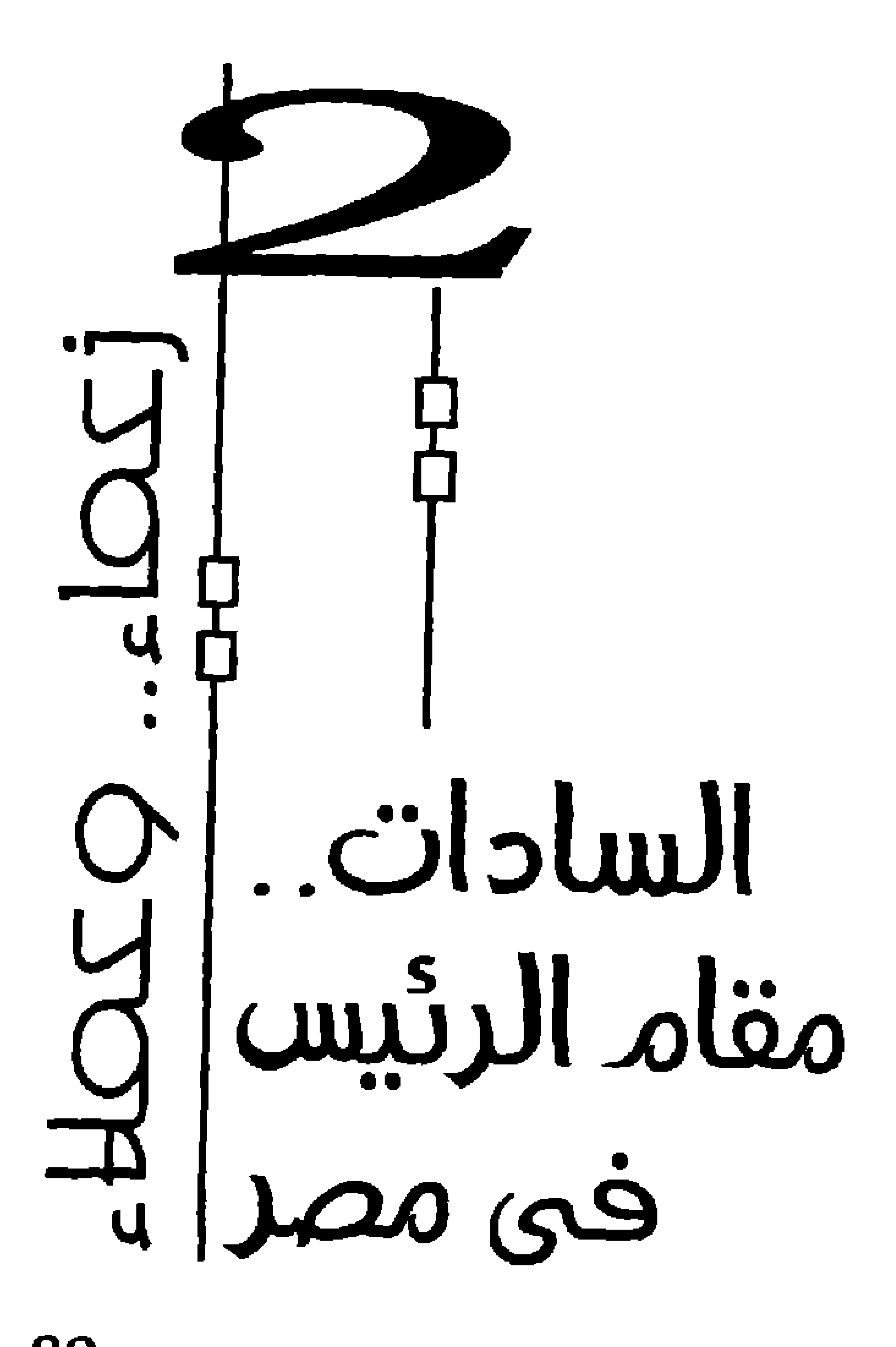
قتل الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا

وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى العشاء

فليس صحيحا أن الآخرين قتلوا عبدالناصر.. بل لقد ساهم الرجل فى قتل نفسه بنفسه.. لقد اختار أطباء بقاعدة أهل الثقة فضيعوه.. وأخذ قرارات خاطئة فأصابته تبعاتها فى مقتل.. ولأنه أخفى تفاصيل مرضه فقد خرج من يدعى قتله.. لينال بذلك أسطورة لا يستحقها.. وعملاً ضخما كانت تسعى له أجهزة المخابرات العالمية لكنها فشلت.

■ ■ ■



السادات..
مقام الرئيس
فى مصر

الأسطورى

هناك حاكم يهتم بما سيقوله التاريخ عنه.. يضحى بكل شىء من أجل أن يظل عظيما ورائعا وعبقريا ومنجزا.. وزعيما، وهناك حاكم لا يهتم كثيرا بالصورة التى تستقر له عند الناس لا فى عهده.. ولا فيمن يأتى من بعده يأخذ القرار الذى يريده.. فى الوقت الذى يريده.. حتى لو أغضب الجميع وأحزنهم وصادر النوم من عيونهم.. فما دام الحاكم يعتقد أن ما ذهب إليه صحيحا.. فلا أهمية لشىء.. ولا أهمية لأحد.. وليغرق الطوفان كل من يرفع رأسه بالمعارضة.

وفى تاريخ مصر يأتى السادات على قائمة الزعماء الذين لم يضعوا للتاريخ اعتباراً فى حساباتهم.. وهى قائمة طويلة تضم محمد على وإسماعيل.. فجميعهم حققوا إنجازات هائلة.. وأخذوا قرارات صادمة.. وأحدثوا تغييرات قلبت المجتمع المصرى رأسا على عقب.ورغم أنهم كان يعلمون أن أعدادا ضخمة من المصريين ترفض قراراتهم وتستنكر ما يفعلونه.. لكنهم مضوا فى قراراتهم وليشرب من غضب من البحر ولم يفعلوا ذلك على طريقة عبدالناصر عندما هدد أمريكا بأنها إن لم تعجبها قراراته فلتشرب من البحر الأبيض فإن لم يكفها فلتشرب من البحر الأحمر.. فجعلوه يشرب من البحرين معا - ولكنهم سقوا معارضيهم من البحر بالفعل حتى شبعوا.

عن نفسى لا أخفى إعجابى الشديد بالرئيس السادات، ورغم أن الثقافة السياسية السائدة فى مصر تجعل من يعجب بالسادات يلتزم الصمت ولا يصرح بذلك خشية أن

يتهم بالعتة أو البلاهة، لكننى لا أخفى ذلك بل اعتبر السادات من الزعماء العظام الذين حكموا مصر.. وفهموا الشعب المصرى.. كان واضحا للغاية لم ينافق الناس ولم يجاملهم.. وربما كان عيبه الذى لن أقول الوحيد.. أنه لم يحكم مصر كرئيس دولة.. ولكنه حكمها كعمدة أو ابن بلد.. أراد أن يشعر المصريين أنه مثلهم.. يعيش كما يعيشون.. ويتحدث كما يتحدثون.. فاستصغروا شأنه واحتقروا كلامه.. وجعلوا منه أضحوكة.. وقد فعلنا لذلك لأن أخلاق العبيد تتمكن منا حتى النخاع.. فالحاكم القوى صاحب القبضة القوية تخشاه ونخضع له ونرفعه إلى درجة الأولوهية.. أما الذى يتباسط معنا. فنجرجره فى الشارع ونتعامل معه وكأن صديق يجلس معنا على القهوة ندخن معه الشيشة ونلعب معه الطاولة.. ولا مانع أن نسخر منه فى النهاية.

لقد قرر السادات أن يصنع تاريخه كما يريد هو.. لا كما أرادت الأقدار، ركب حكم مصر بعد عبدالناصر وكان سهلا عليه أن يسير على خطى عبدالناصر ويواصل سياسة الجعجعة الوطنية التى كانت تنتهى دائما بمصيبة.. جاء والكراهية وصلت مداها لإسرائيل واليهود.. لكنه وضع كل ذلك جانبا وقرر أن يعقد صلحا مع إسرائيل، وفى ١٩٧١ كانت خطته أن تنسحب إسرائيل من سيناء فى مقابل أن يفتح هو قناة السويس للملاحة العالمية.. لكن لم يستجب أحد من إسرائيل.. فهو خليفة لرئيس مهزوم ويقود بلدا مهزوما.. فليس من حقه أن يملى شروطه.. بل ليس أمامه سوى أن يخضع.. سحب السادات قناع الفلاح الطيب الذى ارتداه.. ووضع مكانه قناع الفلاح الماكر الخبيث.. رنت فى أذنيه كلمة كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية أن المهزوم ليس من حقه أن يفرض شروطه.. فقرر أن ينتصر!..

فعلها السادات وانتصر.. وكان انتصاره هو سر قوته.. وبعد أن كان يستمد شرعيته من أنه خليفة عبدالناصر.. أصبح يستمد شرعيته من أنه الرئيس المنتصر.. الذى محا العار وأعاد الكرامة ومسح الهوان.. ووضع العسكرية فى مصر فى مكانها الذى يليق بها.. ورغم أن قرار السادات بخوض حرب أكتوبر كان أخطر قرار فى تاريخ مصر

الحديث.. لكن دارويش عبدالناصر حاولوا أن يحرموه من عبقرية إنجازه.. فأشاروا إلى أن عبدالناصر هو الذى استعد وخطط وجهز وحدد موعد العبور.. وأن السادات جاء على الجاهز وأخذ ذلك كله لحسابه.. ولم يكن هذا كلام السياسيين الذين اختلفوا مع السادات فقط.. ولكنه أصبح الآن كلام الناس فى الشوارع.. ولازلت اذكر ما قاله لى صديق ناصرى يجرى عبدالناصر فى روحه كما يجرى الدم فى العروق عندما كنا نسمع أغنية عبدالحليم حافظ الرائعة «عاش اللى قال للرجال عدوا القنال».. نظر إلىّ بتأثر شديد وقال: شوف عبدالحليم بيغنى لعبدالناصر إزاى؟ قلت له ولكن الأغنية للسادات فهو الذى عبر القناة.. فقال غاضبا: مستحيل.. هذه الروح التى يغنى بها عبدالحليم لا يمكن أن تكون إلا لعبدالناصر.

لقد كان السادات فى كل قراراته صادما..قادرا على الإدهاش.. لدرجة جعلته يدخل كتاب الأساطير من أوسع أبوابه.. بل أصبح بما فعله بنفسه وبشعبه شخصية أسطورية.. ليس بما فعله فقط. ولكن بما كان يقوله ويتمثله فى أحاديثه أيضا.. فقد سخر من استضعاف خصومه له فى ١٥ مايو وأعلن أنه سيجلس تحت الشجرة أمام النهر لينتظر جثثهم تمر أمامه.. وكأن هزيمتهم أمر مفروغ منه.. كان الصحفيون والمثقفون عنده أفندية.. والديمقراطية لها أنياب والمعارضون له لا يستحقون إلا الهزم.. والدستور لا يستحق العناء.. ولم يكن غريبا أن يصرح لأحمد بهاء الدين فى محاوراته معه: اللى زينا هم اللى بيصنعوا الدساتير يا بهاء، وكل ذلك كوم.. وما فعله عندما أعلن أنه سيسافر إلى إسرائيل.. لم يصدم الشعب المصرى الذى أيده عدد كبير منه بعد ذلك فيما فعله.. ولكنه صدم إسرائيل بشعبها وقادتها أيضا.. فقد أجبرهم صاغرين أن يستقبلوه ويتفاوضوا معه بعد أن رفضوا مجرد الحديث معه.. ذهب إليهم وهو يضع حذائه فوق رقابهم وكان موفقا للغاية عند أقضى لأنيس منصور بمكنون نفسه بأنه لو كان مكان مناحم بيجين لما استقبله.. فقد زنقه فى خانة اليك بهذه الزيارة.. فإسرائيل تصرخ بأنها تريد أن تعيش فى سلام ولا تكف عن ابتزاز العالم بأن العرب يريدون أن يغرقوها فى البحر.. لكن ها هم العرب يمدون أيديهم بالسلام وهم منتصرون.. وبذلك تبطل حجة

إسرائيل لقد أدرك السادات الفكرة التى تقوم عليها إسرائيل.. وهى ادعاء الرعب من اعتداءات العرب وبذلك تحظى بتأييد العالم.. لكنه ها هو ينسف فكرتها ويبطل حجتها.

لم يقدر أحد ما فعله السادات.. بل سخروا منه وتركوه وحده.. عقدوا المؤتمرات ليشتموه فيها.. ولأن الانتصار كان قد أضاف إلى غروره غرورا وكبرياء فقد قرر أن يترك العرب ليذهبوا إلى الجحيم.. وأخذ يتفاوض لتعود الأرض المصرية إلى أصحابها بعد نصر حقيقى انجزه بجنوده.. ورغم مرور السنوات لم تنته المرارة من السادات.. فمازال العرب يحاولون التقليل من شأن ما فعله.. وكان سخيفا ما فعله الشيخ حسن نصر الله زعيم حزب الله عندما قال: إن إجبار إسرائيل على الخروج من جنوب لبنان هو أول انتصار حقيقى على إسرائيل منذ هزيمة ١٩٦٧.. وكأنه اعتبر أن نصر أكتوبر مجرد فيلم سينمائى. وليس حربا حقيقية.

لقد خدم القدر عبدالناصر عندما وفر له كتابا صاغوا أسطورته وسهروا على بناءها.. لكن السادات خاصمته الأقدار فى ذلك فلم تقيد له كتاب أكفاء.. كانت لديهم أسطورة كاملة الأركان فى رئيس غير مجرى التاريخ أكثر من مرة لكنهم لم يكونوا بحجم الحدث.. وبعمق الشخصية التى قربتهم منها.. فجاءت الكتابات التى تناولت حياته هزلية ضعيفة إلى التسلية أقرب.. وقد يكون السادات سببا مباشرا فى ذلك.. فهو لم يعط العيش لخبازه كما يقولون.. وقد يكون ذلك لأنه عمل صحفيا فى بداية حياته.. ولذلك كان يعرف كيف يعمل الصحفيون والكتاب.. تدخل فى عملهم فأفسده وكان هو الخاسر فى النهاية.

ومن جملة ما فعلته الأقدار فى السادات أنها أفسدت فرصة أن تكون له جنازة أسطورة.. هذا بعد أن اغتيل فى ذكرى انتصاره فاختلطت الأحزان بالأفراح. لقد أعلن الذين فرحوا فى قتل السادات عن شماتتهم.. وكتب كثيرون عن مظاهر لفرح والشربات الذى وزع يوم قتل السادات.. لكن لم يتطرق أحد لمظاهر الحزن على موته.. فى قريتى رأيت الناس وهم يتابعون جنازته يبكون بحرارة.. بل إنهم أعلنوا الحداد على طريقة أهل الريف.. فأغلقوا التليفزيونات شهرا كاملا ولبسوا الأسود عليه.

لقد فرضت الظروف الأمنية أن تكون جنازة السادات رسمية.. وحضرها قادة إسرائيل.. ولو فتح الباب ليحضرها البسطاء كما حدث مع عبدالناصر حيث تم تأخير دفنه حتى يأتى الناس من بلادهم.. لو تم ذلك لكانت الملايين التى أحبت السادات حضرت جنازته وبكته ولكانت أضيفت جنازة أسطورية إلى كتاب الجنازات الكبير التى شهدها التاريخ المصرى.. لكن هذا لم يحدث لأن الأقدار كانت قد قررت أن تمارس لعبتها مع السادات حتى النهاية.

الجرأة على السادات!

لم تكن الصورة التى نشرتها جريدة «الميدان» للرئيس السادات قتيلا وعارياً، إلا حلقة واحدة من حلقات الجرأة على الرئيس السادات، والوقاحة فى تناول سيرته، منذ تولى حكم مصر بعد وفاة عبدالناصر عام ١٩٧٠، وحتى الآن، فالرجل مستباح فى الجلسات الخاصة وعلى صفحات الجرائد، الكل ينهش فيه بلا رحمة.. ولا خجل، وكنت أجدنى كلما سمعت سباً للسادات وطعناً فى سياسته وفى المقابل أجد تقديسا لعبدالناصر وتأليهاً له.. كنت - ومازلت أقول - إن المصريين يعاملون عبدالناصر مثل أبيهم.. ويعاملون السادات مثل زوج الأم.

الطريف أننا لا نعامل السادات على طريقة سعيد صالح فى مسرحيته «هاللو شلبى» أن الذى يتزوج أمى أقول له يا عمى، ولكننا تعاملنا معه على طريقة اللى يتجوز أمى أضربه على دماغه.. وأنتقم منه شر انتقام حيا وميتا.. مهزوما ومنتصرا.. فهو لا يستحق إلا اللعنة.. حتى ولو قدم فى حياته شيئا ضئيلاً.. يستحق به العفو والمغفرة!.

حضور السادات فى حياة المصريين لا يخرج عن إلقاء نكتة عليه.. أو اتهامه بالخيانة أو وصفه بأنه كان رجلاً يحب المزاج.. والتراث المسموع والمقروء يؤكد ذلك، فقد وصفت قناة الجزيرة معاهدة السلام التى أبرمها السادات مع إسرائيل بأنها مجرد تحشيشة.

وبلغت المأساة ذروتها عندما صدرت جريدة العربى الناصرى فى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠، وعلى صدرها عنوان عنيف يقول بكل بساطة - ولن أقول سذاجة - «عبدالناصر بطل

القرن.. والسادات الخائن الأعظم».. وفى سبيل تبنى الجريدة لوجهة نظرها استعانت بمقال الدكتور فؤاد مرسى قال فيه: مات عبدالناصر وهو يعد لمعركة كبرى مع إسرائيل لإزالة آثار العدوان، وقبل عبدالناصر ما سمى بمبادرة روجرز بأمل استكمال عدته للقتال، فلما تولى السادات أوحى إلى الأمريكان بأنهم سيجدون فيه شخصا آخر غير عبدالناصر، وبدأ بمواصلة تجميد الموقف العسكرى استجابة لمبادرة روجرز منذ أغسطس ١٩٧٠، وقدم لذلك ما سمى بمبادرة ٤ فبراير ١٩٧١ التى نفرد السادات بوصفها بعيداً عن قيادة الاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء، ودعا فيها إلى انسحاب إسرائيلى جزئى، وفتح قناة السويس للملاحة العالمية، وعلى الرغم من إهمال إسرائيل وأمريكا لمبادرة «السادات»، فإنه استمر فى موقف التجميد بحجة تقاعس الاتحاد السوفيتى عن استكمال تسليح الجيش واتفاق موسكو وواشنطن على الاسترخاء العسكرى فى المنطقة، وفى أبريل ١٩٧١ أعلن السادات عن قيام اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة بين مصر وسوريا وليبيا ضاربا عرض الحائط بإجماع قيادة الاتحاد الاشتراكى على معارضته، لكنه مع التخلص مما أسماه مراكز القوى، وإعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكى ومجلس الشعب الجديد، تطلع السادات إلى إقامة نظام عربى جديد انتهى إلى تسليم قيادة المنطقة العربية للسعودية، وعلى الرغم من توقيعه فى يونيو ١٩٧١ معاهدة للصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى، فإنه سعى حثيثاً لتوتر العلاقات المصرية السوفيتية والبحث المستمر عن أسباب للصدام، ولم تمر سنة واحدة على المعاهدة حتى قام السادات بطرد الخبراء السوفيت دفعة واحدة، تقرباً وزلفى إلى الأمريكان.. لكن الأمريكان واصلوا إهمالهم له».

اتهام جريدة العربى للسادات بالخيانة لم يمر مرور الكرام، مما اضطر القائمين على الجريدة إلى تقديم اعتذار لأسرة السادات عن هذا الوصف الذى رآه بعضهم توصيفاً معنوياً، فليس المقصود أن السادات خائناً بالمعنى المادى.. لكنه خائن بالمعنى المعنوى، بل واستشهد بأغنية حديثة لعلى حميدة يقول فيها «خان العشرة ليه»، ما فعلته الجريدة لم يكن مسبوقاً.. فهى قدمت فقط ما يقوله المثقفون فى جلساتهم على المقاهى..

والناصريون على النواصى.. أخرجته من إطار الجلسات الخاصة إلى العلانية.. ولا تفسير لذلك إلا أن كل من يصف السادات بالخيانة يملك فى داخله شيئاً ما يجعله يتجرأ ويعلن رأيه فى السادات.. هذا الشئ هو ما يهمنا أن نبحث عنه.. فقط أوكد أننى لست طرفاً.. فلا أنا ناصرى أتعبد فى محرابه آناء الليل وأطراف النهار ولا أنا ساداتى أتغزل فى أعماله وأقواله وسياساته.. ولكنى إذا جاز التعبير «بازى النزعة» أقتنع بما يتسق مع إنسانيتى وإنسانية من حولى.. وما يوفر لهم حياة كريمة لا مكان فيها للذل والهوان.. فأنا لا أقبل انتهاك الإنسان حتى لو كان ذلك باسم الوطن أو الزعيم الملهم أو الرئيس المؤمن!

أنا أرصد فقط..

عندما جلس السادات مكان عبدالناصر ليحكم مصر.. اعتقد الجميع أنه غير كفء وأنه لن يستطيع أن يتحمل المسئولية.. فهو لا وزن له ولا قيمة، رغم أن عبدالناصر هو الذى اختاره.. وهو ما يعنى أن السادات كان أفضل رجاله.. فقد كان أكثرهم خبرة وحنكة سياسية وأوسع إدراكاً لما يدور حوله فى مصر أو العالم، ولو لم يكن السادات يستحق أن يخلف عبدالناصر لما عينه نائباً له، ولا مكان هنا للتفسير الفانتازى الذى يتبناه صلاح عيسى من أن عبدالناصر اختار السادات خليفة له.. حتى يترحم عليه المصريون عندما يقارنون بينه وبين السادات.. فالفارق بينهما سيكون كبيراً، فمع احترامى لتفسير الأستاذ صلاح.. لكنه لا يصلح لتفسير سلوك رؤساء بقدر ما يصلح لتفسير سلوك ستات فى حى شعبى يكدن لبعضهن البعض لأى سبب تافه.

لقد أعلن السادات للمصريين من أول وهلة أنه لن يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركه عبدالناصر.. ففى الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة عبدالناصر وقف السادات ليتحدث فقال: إنها لحظات شاقة جداً على نفسى أن أقف لأتحدث فى ذكرى جمال ولا أكتمكم؟ أننى كما تعودت وكما نشأت فى بيئتى الساذجة فى القرية، لا أستطيع أبداً أن أحزن كما يجب أن أحزن أو كما نتعود فى القرية، أن أحزن على حبيب أو صديق.. إلى هذه اللحظة

لم أستطع أبداً.. كان جمال صديقاً وفياً لكل زملائه، كان جمال مثال الأخ والصديق والعون لكل من يريد العون.. بهذا بدأ جمال تنظيم الضباط الأحرار.. وقبل أن تقوم المبادئ الستة أقام التنظيم على قيم نحترمها هنا فى بلدنا «الوفاء والحب والصداقة».

ما قاله السادات هذا كان امتداداً لما قاله أثناء حياة ناصر، وتكفينا هذه الفقرة من كتاب السادات الذى منحه اسم «يا ولدى هذا عمك جمال» قال فيه: «وجمال يا رب صنعك الرائع وإبداعك القاهر، إنه عبدك المؤمن بك المتوكل عليك المسير بإلهامك الباعث فى شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام ونصرة اليوم.. يارب هى أروع ما وهبتنا من انتصارات».

وكأن هذا الثناء من السادات على عبدالناصر فى حياته وبعد موته، وتأكيده على أنه يسير على طريق عبدالناصر، جعله يهون فى عيون الناس.. وعيون رفاق عبدالناصر الذين رأوا فيه دمية يستطيعون أن يفعلوا بها ما يريدون وقتما يشاءون لكنه ضربهم بقوة وجمعهم جميعاً فى سلة واحدة كما يقول أنيس منصور وألقى بهم فى السجون.. لكنه وحتى بعد أن ألقى برجال عبدالناصر كان يؤكد على ولائه وإخلاصه ووفائه لناصر!

وفى شهادة نجيب محفوظ على زعماء مصر يقول عن السادات: «كانت انطباعاتى عن السادات سيئة منذ توليه السلطة بعد عبدالناصر، وظلت تلك الانطباعات كما هى لم تتغير حتى كانت أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، حيث اكتشفت خلالها أن هذا الرجل داهية، وليس سطحياً كما تصورت، وأنه أشبه بالشخص المستضعف فى أفلامنا السينمائية القديمة والذى يفاجئ الناس بأفعال لم يتوقعوها منه! شخصية المستضعف هذه تشبث بها السادات ولم يحاول أن يغيرها، فقد سأل أنيس منصور السادات قائلا: يقال إنك أفلحت فى إقناع الرئيس عبدالناصر بأنه لا خطر لك ولا خوف منك على عبدالناصر، ولذلك طال وجودك إلى جواره، فاستراح جمال عبدالناصر إليك تماما، ثم إنك ذهبت إلى أبعد من إقناعه بأنك رجل مريض إلى أن أوصيت عبدالناصر على أولادك لأنك سوف تموت قبله، فلم يعد لديه خوف أو قلق.. وهكذا طال عمرك السياسى.. فضحك السادات ولم يعلق بشىء.

ولأن الأسئلة بين أنيس والسادات لم تكن تنتهى على طريقة قل لى يا ريس نعم يا أنيس.. سأله أنيس مرة عما يقال عن أن السادات فى جنازة عبدالناصر تظاهر بأنه مصاب بأزمة قلبية، وكذلك فعل على صبرى، ولم تكن هناك أزمة، إنما كانت لدى السادات معلومات مؤكدة أن هناك محاولة لاغتياله سوف تنفذ أثناءالجنازة.

وللمرة الثانية يضحك السادات قائلا: يا باى إن أحد لا يصدق أحداً.. أعوذ بالله. ولم يثبت السادات الواقعة، ولم ينفها.. ويبدو أنه كان يحب أن يظهر بمظهر الرجل الغامض.. وهو ما جعل الجميع يستضعفونه ويسخرون منه.. ولم يكن يأخذ رد فعل.. مادام ينفذ ما يريده!

وعندما نعود مرة ثانية وأخيرة إلى شهادة نجيب محفوظ عن الرئيس السادات نجده يقول: «من تحليلى لسلوكيات وأفعال السادات توصلت إلى أنه شخصية غريبة الأطوار تدعو إلى الحيرة والدهشة، فأحياناً يغضب من تصرف أو رأى ويعاقب صاحبه، ثم يلبث أن يقوم هو بنفس التصرف، وطبيعى أن شخصية هذا مسلكها يمكن أن تغرى الآخرين بالتطاول عليها حتى ولو سراً، فلابد أنه ستأتى فرصة لتكون السخرية السرية علنية.

حاول السادات أن يحكم مصر بمفرده وبعيداً عن ظلال جمال عبدالناصر بعد انتصاره فى حرب أكتوبر، فما الذى ينقصه الآن.. لقد انتصر على اليهود الذين هزموا ناصر.. وآن الأوان أن يدين له المصريون بالولاء.. لا لأنه خليفة عبدالناصر والرجل الذى يسير على طريقه.. ولكن لأنه القائد المنتصر.. الذى يجب أن يعشق لذاته.. وليس لذات سلفه.. لم يدرك السادات أن ذلك لم يكن ممكناً.. فقد رآه المصريون منذ البداية أقل من عبدالناصر.. وساعدهم على الاقتناع بذلك.. وعندما جاء ليغير الصورة لم يتمكن لأنه قد «فات الميعاد».

لم يتصرف السادات بحنكة.. فقد أراد اقتلاع عبدالناصر من جذوره وتشويه صورته.. فعل ذلك عندما لم يعترض على حملات التشويه التى تعرض لها عبدالناصر من بعض الكتاب والصحفيين ورسامى الكاريكاتير.. وفعل ذلك عندما تطوع هو نفسه

وتحدث عن عبدالناصر.. قال عنه: إن عبدالناصر كان مشغولا بالخرافة التى أصبح اسمه مقترناً بها، خرافة كبيرة جدا فى مصر والعالم العربى فهو البطل الذى حقق النصر على امبراطوريتين كبيرتين بريطانيا وفرنسا، ولم ينس السادات أن يؤكد أنه ورث اقتصاداً مهلهلاً، بفعل سياسات عبدالناصر، حاول السادات أن يؤكد أنه وراء فكرة تنظيم الضباط الأحرار.. وأن عبدالناصر نزل على التنظيم فى مرحلة لاحقة.. وهو ما رفضه الذهن المصرى والعاطفة الشعبية التى كانت لاتزال متأججة بحب عبدالناصر.

ولعل حملة السادات على عبدالناصر.. كانت وراء حملة النكت التى حاصرت السادات تسخر منه ومن كلامه عن علاقته بعبدالناصر.. ومن بين سيل النكت كانت هذه النكتة «جاء عبدالناصر للسادات فى المنام، وقال له:

– يا أنور

– أفندم يا ريس

– إنت بتقول إنك عملت تنظيم الضباط الأحرار، ماشى، وبتقول إنك اللى عملت الثورة ماشى، وبتقول إنك الوحيد اللى حاربت الفساد ماشى، لكن قل لى إنت بذمتك كنت تقدر تقولى يا جمال كده؟

بل إن بديهة المصريين السريعة جعلتهم يتصرفون فى النكت التى كان يلقونها على عبدالناصر.. مثال ذلك أن مواطناً صلى فى مسجد جمال عبدالناصر وراح يتمتم وهو يرفع يده إلى السماء فسأله جاره:

- بتعمل إيه.

- باقرأ الفاتحة لسيدى المفترى.

لكن وبعد أن مات عبدالناصر وبعد أن فتحت عليه أبواب جهنم.. وانهالت عليه الشتائم والاتهامات من كل مكان.. أصبحت النكتة تقول: إن الرجل الذى كان فى مسجد عبدالناصر سئل بتعمل إيه:

فقال : باقرأ الفاتحة لسيدى المشتوم.

أعطى السادات الفرصة للمصريين ليسخروا منه. سلمهم نفسه طواعية.. ولذلك سرعان ما تحولت النكتة من نقد موقفه من سلفه عبدالناصر إلى نقد مواقفه وسياساته الأخرى.. فقد سخر المصريون من حرصه على إلقاء تصريحاته السياسية بعد أداء صلاة الجمعة، وحرصه الأكبر على أن يظهر خاشعا فى ركوعه وسجوده أمام كاميرات التليفزيون فأطلقوا عليه هذه النكتة: خرج السادات ذات يوم ثم عاد مسرعاً فسألته زوجته:

- إيه.. فيه إيه؟

- نسيت حاجة مهمة جداً؟

- نسيت إيه؟

- زبيبة الصلاة!

لم تكن النكتة وحدها هى التى جرجرت السادات إلى الشارع وجردته من ملابسه وسخرت منه.. وقف الشعر العامى أيضا وجها لوجه أمام السادات وجاء أحمد فؤاد نجم بقاموس بذاءاته الشهير الذى جمعه من حياة الصعلكة ليقول فى قصيدته بيان هام: نقدم إليكم/ ولا تترفوش / شحاته المعسل بدون رتوش/ يأفين/ يبلبع حبوب / ويفضل يهلفط ولا تفهموش/ بسم الله / سلام عليكم / وسلمون وموز / وأما المسائل فهنجف ولوز / مساء التنفس / مساء الروايح / سلام عليكم بصفتى رئيسا وأبا وجوز.

وفى قصيدة الانتخابات اختار نجم للسادات اسم «العيسوى» إمعانا فى السخرية منه وتسهيلا للاستدلال عليه، يقول فيها: بشرى لجميع الحشاشة/ العيسوى بيه رمز الماشة/ سبحانه الله من أو مباشة / بقى كل الأمن العام فى إديه / العيسوى بيه / العيسوى بيه / من أجل ضمان الحرية / لجميع تجار الباطنية / العيسوى بيه ميه الميه حيخلى القرش بربع جنيه.

لقد ظل المصريون يربطون بين النكتة والمخدرات.. وعندما جاء السادات أصبح ضلعا ثالثا.. فأينما وجدت نكتة ومخدرات.. ستجد إلى جوارهما الرئيس السادات.. وهذه

واحدة من كثير.. خرج السادات ليشم الهواء على الطريق الزراعى، فوجد غرزة فدخلها، فمد أحدهم إليه الجوزة قائلا:

- مساء الخير.. فتناول الجوزة وسحب نفسا ثم أعادها لصاحبها الذى سأله:

- والأخ بلا أفيه بيشتغل إيه؟.. فرد

- أنا رئيس الجمهورية.. فقهقه الرجل قائلا:

- كده من أول نفس!

لقد طالت النكتة كل زعماء مصر.. وجعلت عبدالناصر بكل شموخه وكبريائه يهتز أمامها، بل راح بعد هزيمة ١٩٦٧ يطلب من الشعب أن يكف عن طعن الجيش من الخلف بالنكت، وان يؤكد أنها سلاح للعدو، لا يجب أن نستخدمه بأيدينا، لكن حتى النكت التى قيلت عن عبدالناصر كانت مختلفة تماما عن التى رمى بها السادات، فبينما ركزت النكت التى حظى بها عبدالناصر على قوته وعنفه وافترائه على خلف الله أحيانا.. راحت النكت التى كانت من نصيب السادات تسخر من ضعفه وقلة حيلته إلى الدرجة التى أوصلته فيها إحدى النكت أنه لم يكن يصدق نفسه أنه أصبح رئيسا للجمهورية.. فبعد توليه الرئاسة قال لنفسه ذات يوم:

يجب أن أناقش الرئيس فى كثير من الأمور اليوم.. لكنه استدرك قائلا:

لكننى أنا الرئيس.. فماذا أفعل.. آه.. ينبغى أن أناقش زوجتى فى هذه الأمور.

ولأن الشارع المصرى اعتبر السادات ضعيفا منذ البداية فقد تجرأ على أهل بيته وأطلق فى حقهم النكت أيضا.. ويقول هيكل إن السيدة جيهان السادات كانت تهتم اهتماما خاصا بتقارير النكتة عنها وعن زوجها ولم تكن تضحك لهذه النكت، بل كانت تبدو غاضبة وهى تسمعها أو تقرؤها وكانت تعلق أثناء ذلك بعبارات قاسية.. قائلة إن الشعب المصرى لا يستحقها هى وزوجها.. ولو أنصفه القدر لكان مكانهما دولة أخرى وشعب آخر.

كان السادات على عكس زوجته يضحك للنكت التى تصله بل كان يرويها لبناته ويضحك معهن عليها.. بل كان يطلب من أصدقائه والمقربين منه أن يرووا له النكت الجديدة.. ولم يكن غريبا أن يروى السادات بنفسه بعض النكت، ولعل هذا ما أغرى الناس بالتنكيت على السادات والسخرية منه.. فمادام الرئيس ينكت.. فلماذا لا تكون عليه هو.

لقد أضر السادات نفسه ضررا بالغا عندما أحاط نفسه بمجموعة من الندماء، واستغنى عن المستشارين، وعلى ما يبدو أن السادات كان لا يحب وجع الدماغ بالاستماع الى المشاكل.. فقد قرب السادات إليه عثمان أحمد عثمان الذى كان بطبيعته مسئولا عن إزالة الشوائب التى يمكن أن تعلق بمزاج السادات، إقترب أنيس منصور من عقل السادات وكان قادرا على إضحاكه وتسليته وإذهاب الملل عن نفسه، ولذلك لم يكن السادات يستطيع أن يستغنى عنه.

قرب انيس منصور من السادات يجعلنى أنصت إليه وهو يحلل أخطاء السادات وعيوبه.. يقول أنيس: قبل الثورة كان السادات هو الوحيد المعروف والباقون محدش يعرفهم كان عنده فكرة وهدف، وهذا الهدف كان يتم سرا، وكل من تآمر عليهم السادات من رجال عبدالناصر، كان رأيهم فى السادات أنه ولا حاجة وأنه راجل مهرج، ويرى أنيس أن السادات مسئول عن هذه التهمة، لأنه لم يجرؤ أن يفصح عن أعماقه أمام جمال عبدالناصر، ولولا هذا الشعور لكان عبدالناصر قضى عليه تماما.

ولأن حكايات أنيس منصور لا تنفد، فهو يحكى أنه ذات مرة قال له الرئيس السادات إن عبدالناصر كان هو الزعيم ولم يكن يقبل أبدا أى واحد بيان قدامه ويكون له رأى أو نظرية وتوارت كل الرءوس ويعلق أنيس على هذا الرأى بأن السادات احتفظ بآرائه فى صدره ولهذا بقى طويلا، لم يكن فى مجلس قيادة الثورة يظهر بمظهر المعترض وإلا كان انتهى من زمان!.

إلى جوار أنيس منصور قرب السادات أيضاً موسى صبرى الذى لعب دور المبرراتى فى حياة السادات.. كان يبرر له كل قرار ويظل يؤكد على عبقريته وأنه على صواب حتى

كان سببا من أسباب اغتياله، فقد لعب موسى دورا فى خداع السادات عندما أقنعه أن كل الشعب المصرى يحبه وأن من يعترضون عليه قلة حاقدة لا وزن لها ولا خوف منها.

فعل السادات ما هو أكثر من ذلك.. فقد قرب إليه أيضاً فايز حلاوة الذى كان مسئولا عن إضحاك السادات وترويق مزاجه وقد استثمر حلاوة جلساته الخاصة مع السادات، فقد كان يجمع النكت التى تلقى فى مجلسه ويضعها فى مسرحياته التى قدمها مع زوجته وقتها تحية كاريوكا بعد حرب أكتوبر، مثل روبابيكيا، البغل فى الإبريق، ويحيا الوفد، وفى المسرحية الأخيرة سب حلاوة السوفيت، وضحك السادات عليها طويلا لأنه شارك فى تأليفها.. وتكاد تكون هذه هى المرة الوحيدة التى تهبط فيها النكت من جلسات الرئيس الخاصة إلى الكباريه السياسى.

وعلى نفس المساحة الهزلية اقترب حمادة سلطان المنولوجست الكبير وماكينة النكت التى لا تتوقف من جلسات السادات الخاصة، بل كان يطلبه الرئيس السادات فى أى وقت، لا لشئ إلا ليطلب منه أن يحكى له آخر نكتة.. هذا الاقتراب بين السادات وحمادة سلطان.. جعل الناس يضعونهما فى سلة واحدة.. فلا فرق بين منولوجست بدرجة رئيس، ومنولوجست بدرجة مهرج يروى النكت ويتبادل القفشات مع الرئيس!

وفى الوقت الذى اقترب كل هؤلاء من الرئيس السادات، كان هيكل برجاحة عقله وقدرته على التصرف يبتعد عن السادات تماما، ظل هيكل إلى جوار السادات فى صراعه مع مراكز القوى للدرجة التى جعلت السادات يؤكد أن هيكل كان مهندس العملية من بدايتها إلى نهايتها التى كللت بانتصار السادات.. ووقف إلى جواره فى حرب أكتوبر!

لكن العلاقة العميقة انهارت وتحولت فى بعض مراحلها إلى عداء ظاهر.. فى فبراير ١٩٧٤، اتصل عبدالفتاح عبدالله وزير شئون رئاسة الجمهورية بهيكل ليخبره بوجود خمس غرف جاهزة تنتظره فى الجناح الذى أعد له فى قصر عابدين بعد تعيينه مستشارا لرئيس الجمهورية، رفض هيكل العرض قائلا: إننى لا أنوى الذهاب إلى قصر عابدين وإنما أنا خارج من الأهرام إلى بيتى حتى أعثر على مكتب أعمل منه كصحفى

وكاتب مستقل، وعلى باب الأهرام قال هيكل للصحفيين الذين كانوا فى انتظاره: «إننى استعملت حقى فى التعبير عنآرائى بصراحة والرئيس السادات استعمل سلطته فى إخراجى من الأهرام».

ترك خروج هيكل من الأهرام فى نفسه جرحا غائرا.. لم تمحه الأيام، لقد حاول السادات أن يقترب من هيكل بعد ذلك، ففى نوفمبر ١٩٧٤ وبعد قطيعة تامة استمرت شهورا، اتصل السادات بهيكل وطلب أن يلقاه فى استراحة الهرم، كان هيكل مشغولا بكتابه الطريق إلى رمضان، وكان السادات يشعر بضيق وضغوط من كيسنجر وعلى وشك الذهاب إلى قمة الرباط التى أعلن فيها أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الوحيد للفلسطينيين، جلس هيكل ليتحدث مع السادات.. لكنه وجد أن الخلافات مع السادات ما زالت قائمة.. ولذلك قال له: لنظل أصدقاء أفضل.. ولنر فيما بعد ما يمكن عمله معا.

آخر مرة رأى هيكل فيها السادات كان فى شتاء ١٩٧٥.. لكنهما ظلا يتحدثان تليفونيا لفترة طويلة، كانت أهم المكالمات.. هى المكالمة التى جرت بينهما بعد أحداث ١٨ و١٩ يناير والتى دارت كالتالى:

- هيكل: أهلا يا أفندم أتمنى ألا تكون متضايقا
- السادات : هو ده ما كنت أقوله لك دائما يا محمد
- هيكل : إيه هو؟
- السادات : مراكز القوى أهم اتحركوا
- هيكل : أعمل معروف لا داعى لاستدعاء أشباح نسيناها.

السادات : لا.. لا يا محمد.. وبعد أن شرح هيكل وجهة نظره فى المظاهرات وحاول أن يؤكد أن لها بعدا اجتماعيا.. وجد السادات يقول له.. «أنا ما فهمتش حاجة.. أنت جرالك إيه.. صديت» لم يعلق هيكل على كلام السادات.. وبعد حوارات طالت طلب سيد مرعى من هيكل ألا يضغط على السادات ولا يضايقه ولا يلح عليه بآرائه وأفكاره!

عندما خسر السادات هيكل خسر كثيرا، فلم ينس هيكل جرحه الذى كان السادات وراءه.. ولذلك كان طبيعيا أن يفضح هيكل السادات فى كتابه «خريف الغضب» قصة بداية ونهاية عصر السادات وهو الكتاب الذى استخدم فيه هيكل كل قدراته.. لم يركن إلى قدرة الباحث الذى يحارب بسلاح الوثائق فقط ولكنه أخرج أسلحته كلها فاستخدم الأسلوب الروائى والتحليل النفسى حاول هيكل أن ينفى عن نفسه تهمة أنه تعمد الإساءة إلى السادات.. لقد علق على لون السادات الأسود فى كتابه.. وبرر ذلك قائلا: أنا تناولت لون السادات وأنا مش أبيض أنا من الصعيد.. وعندى أصدقاء من أفريقيا ولست عنصريا ولا أتصور أن اللون نقيصة لكنى حاولت أن أجد فى اللون مفتاح للنفاذ لأنور السادات.

تحدث هيكل فى خريف الغضب عن نشأة السادات وفقره.. واتهمه البعض أنه يعاير السادات بأصله وفصله وفقره.. وبرر هيكل ذلك أيضا قائلا: لقد حاولت استعمال مفاتيح النشأة والبيئة فى خريف الغضب وهى مشروعة وعلمية، كل واحد فينا بما فى ذلك رجل السياسة هو ذلك الطفل الذى كان لقد غضب البعض عندما تكلمت عن تأثير الفقر على السادات فالفقر ليس عيبا تصور البعض أننى أعايره وهو ما لم يخطر ببالى فأنا حاولت أن أفهم مكوناته بقدر ما استطيع.

قد يكون هيكل صادقا فيما قاله فى حواراته الكثيرة تعليقا على خريف الغضب.. لكن ضربته للسادات لم تكن طائشة.. أوجعته.. وآلمت من يحبون السادات على قلتهم، خسر السادات كثيرا لأن هيكل خرج من معسكره، وظل فى معسكر السادات كتاب اهتموا بمصالحهم.. لم يجيدوا الدفاع عن السادات أو تحسين صورته أو رد غيبته فطارت كلماتهم عنه فى الهواء وبقيت كلمات النقد والهجوم ثابتة وراسخة.. انتشرت بسهولة.. وأصبح سهلا أن تسمع من رجل الشارع العادى كلاما فى حق السادات وكأن السادات مجرد مواطن عادى ولم يكن يوما من الأيام رئيسا للجمهورية له حسناته وسيئاته.. قد تكون سيئاته قاتلة لا تغتفر لكنها تبقى فى النهاية سيئات رئيس يحاول أن يجتهد فاخطأ!

لقد تعرض الرئيس السادات طوال حياته ولا يزال رغم مرور أكثر من عشرين عاما على اغتياله.. لحملة من الشتائم والسباب جردته حتى من ثيابه الذى يستره.. الغريب أن الرئيس السادات نفسه كان هو السبب الرئيسى فى هذه الحملة المستمرة، توضيح ذلك يحتاج إلى عقد مقارنة بين السادات وعبدالناصر.

عبدالناصر عندما كان يغضب على صحفى يعتقله.. يخرسه.. يظهر له العين الحمراء.. كان عبدالناصر يكسر أعناق الرجال.. فعل ذلك مع إحسان عبدالقدوس وفكرى أباظة ومصطفى أمين.. كان يحيلهم إلى أشباح لا تجرؤ على التفكير فى الحديث عن عبدالناصر بعيب حتى لو كانت العيوب ظاهرة، أما السادات فكان عندما يغضب على صحفى يشتمه ويسبه فيتحول الصحفى بذلك إلى ند لرئيس الجمهورية.. لم يفعل ذلك مع الصحفيين فقط.. ولكنه عندما شتم الشيخ كشك شتمه الشيخ فى شريطه المناظرات عندما قال: اعتبر أيها السادات من سلفك.. انظر إلى جبروته.. وكيف بات الآن عظاماً بالية، بسم الله الرحمن الرحيم، ذهب من لا يقولها وجاء الآن من يقولها مبتورة.. بسم الله أكملها يا ناقص.. جعل السادات نفسه فى مساواة مواطنيه فتجرأوا عليه.. فإذا شتمهم شتموهم.. وإذا أهانهم أهانوه!

عبدالناصر سجن عددا كبيرا من الصحفيين والكتاب والمفكرين وقد فعل السادات ذلك أيضا وبشهادة الذين دخلوا سجون الرئيسين، فإن سجن السادات كان مجرد نزهة بالنسبة لسجون عبدالناصر.. لكن الفارق أن عبدالناصر أقنع كل من سجنهم أنه فعل ذلك من أجل خدمة الوطن وقضيته.. ولذلك لا تجد مثقفا كبيرا أو حتى مواطنا عاديا دخل السجن فى عهد عبدالناصر إلا ويمدح الزعيم ويسبح بحمده، السادات جعل القضية شخصية.. ولذلك شعر كل من دخل السجن فى عهده أنهم ضحايا غروره ومجده الشخصى ولذلك اعتبروه خائنا.. باعهم بلا ثمن.. وأهدر كرامتهم فى السجون المظلمة بلا مقابل.

لقد ساوى السادات نفسه بالمواطنين.. كبارا وصغارا عندما نزل معهم فى سجال وتبادل معهم الشتائم، فقد هيبة الرئيس ووقاره.. وعندما اختفى الوقار، تجرأ عليه

الجميع على صفحات الجرائد وفى الأفلام والمسلسلات وفى الجلسات الخاصة.. وكان هذا ما جناه على نفسه.. ولم يجنه عليه أحد!.

بهاء والسادات

لو كان الرئيس السادات حياً يرزق.. ما زاد على فيلم «أيام السادات» أى شىء فكل الأحداث والحوارات والأفيهات واللفتات صاغها أحمد بهجت على ضوء «البحث عن الذات» الذى كتبه السادات بنفسه، و«سيدة من مصر» الذى كتبته جيهان السادات، أى أن الفيلم سيرة ذاتية بحتة كتبها صاحبها، وأشرفت عليه زوجته وقرأت السيناريو فحذفت وأضافت وعدلت!

ولأن السادات لم يكن وحده هو الذى كتب أحداث الفترة التى حكم فيها مصر، بل كتبها كثيرون غيره، فإن ما ورد فى الفيلم من أحداث يمكن أن تختلف حوله الروايات، ولكل فيما يكتبون مذاهب، من بين مفكرى ومثقفى وكتاب مصر اعتمد صناع فيلم السادات على اثنين فقط فى أحداث الفيلم هما محمد حسنين هيكل الذى ظهر كثيرا فى مشاهد الفيلم، وأحمد بهاء الدين الذى ظهر باهتا شاحباً متردداً فى مشهد واحد حشره أحمد بهجت ضمن مشاهده الكثيرة ليعلن من خلاله أن السادات قرر إعلان الأحزاب.

بدأ المشهد هكذا.. شخص يخبر الرئيس السادات أن أحمد بهاء الدين وصل وقد جاء من المطار مباشرة.. يتجه السادات إلى بهاء مرحبا بشدة.. وسرعان ما يسأله.. بقى كده يا أحمد تكتب إن الانفتاح «سداح مداح» فيرد بهاء: والله أنا قلت رأيى يا ريس.. يأخذ السادات الكملة، ويبدأ فى محاضرة طويلة يشرح خلالها لبهاء أن الانفتاح يشبه الثورة الصناعية فى أوروبا، وأنها كانت فى بدايتها أيضا «سداح مداح» لكن النتيجة النهائية كانت عظيمة.. وهى النتيجة التى يريدها السادات لانفتاحه.. لا يفعل بهاء أكثر من تصديقه على كلام السادات مردداً «تمام يا ريس».. وينتهى المشهد بأن يقول السادات لبهاء: «سيبك من الموضوع ده.. أنا قررت أعلن قيام الأحزاب.. حيكونوا ثلاثة أحزاب.. يسار علشان تقولوا فيه اللى إنتو عاوزين.. ويمين ووسط وحاكون أنا رئيسه».

تتوالى مشاهد الفيلم دون رعاية أو اهتمام بأحد غير السادات.. فهو يصاحبك من تيتر البداية وحتى رصاصات الاغتيال الأخيرة.. وإذا كان هذا هو أحمد بهاء الدين فى «أيام السادات» بلا زيادة أو نقصان، فإن أحمد بهاء الدين كتب أيامه مع السادات من خلال كتاب مهم هو «محاوراتى مع السادات».

يحكى بهاء عن محاوراته مع السادات بصورة تؤكد أن مشهد الفيلم الوحيد الذى ظهر فيه بهاء كان مشهدا هزلياً للغاية كتب يقول: كانت الصحف تخرج علينا كل يوم بعد حرب أكتوبر تبشرنا بآلاف ملايين الدولارات التى تهطل علينا - وستهطل علينا - من البلاد العربية والأوروبية وأمريكا، ولعل السادات كان حريصا على تأكيد فكرة اقتران السلام المقبل بالرخاء العميم، وقد بدأ يكرر هذه المعانى فى خطاباته فى السنوات التالية، فأخذت هذه الأموال تتحول إلى مجالات الاستهلاك بسرعة هائلة.

لقد كان فى تقدير أحمد بهاء الدين أن جو الانتصار بعد حرب أكتوبر هو أحسن جو، لأن تطلب الدولة من الناس ربط الأحزمة والصبر ثلاث سنوات مثلاً، تتوجه فيها هذه التبرعات، والمساعدات والقروض والتسهيلات فى اتجاه الاستثمار الإنتاجى وإصلاح ما أهمل منذ ١٩٦٧، فيكون ذلك أساس رخاء حقيقى يتزايد بعد ذلك، لكن السادات كان متعجلا فى توزيع ما اعتبر أنه ثمار النصر، وكانت له طرق غريبة فى توزيع هذه الثمار، وكانت له طرق غريبة فى تبسيط أعقد القضايا الاقتصادية وعقد مقارنات بالغة الطرافة.

تحدث بهاء الدين مع السادات قبل صدور قانون الانفتاح الذى أصدره د.عبدالعزيز حجازى رئيس وزراء مصر ١٩٧٤، قال له: لماذا لا نبدأ ياريس بمنطقة حرة واحدة حتى تستوفى شروطها وتمتلئ بما نطمح إليه من نشاطات ثم نعلن على ضوء التجربة عن منطقة حرة ثانية، وهكذا؟، ورد السادات عليه قائلا: إننى أتعجل اليوم الذى تصبح فيه مصر كلها منطقة حرة! سأله بهاء: إزاى يا ريس؟ فرد السادات بثقة: ألا ترى الرخاء والنجاح فى هونج كونج وسنغافورة وغيرهما، انتهى الحوار بين الرجلين، لكن بهاء يعلق

ساخرا، وكان عبثا محاولة شرح الفرق بين مدينة حرة وبين دولة طويلة عريضة إلى آخر ما يدخل فى ألف باء الاقتصاد.

انتظر بهاء ما تجود به السماء، وهبت بالفعل عواصف الانفتاح، وهجمت على البلاد شتى أنواع السلع الاستهلاكية، وبدأت تظهر أولى فصائل المستثمرين الجادين، كما ظهر النصابون المحليون والدوليون المعروفون، ودارت كل أجهزة الإعلام مرئية ومسموعة ومقروءة تندد بما سمى بفترة الإنغلاق، كان لابد لبهاء أن يكتب وكتب، وخرج عدد الأهرام فى ١٢ يوليو ١٩٧٤ يحمل مقالا بتوقيع بهاء عنوانه «الانفتاح ليس سداح مداح».

ولنستمع لبهاء وهو يروى تفاصيل ما حدث بعد هذا المقال العاصفة يقول: فى اليوم التالى من نشر مقالى عن الانفتاح، اتصل بى الرئيس السادات تليفونيا وقال لى أن الدكتور عبدالعزيز حجازى غاضب جدا من هذا المقال، وأنه شكانى إليه، وأن ظهور مثل هذا المقال بهذا العنوان فى الصفحة الأولى من الأهرام وموقعا باسمى بعد أقل من ثلاثة أشهر من صدور القانون يعرقل الانفتاح ويثير له مشاكل كثيرة، وانطلق السادات فى كلام طويل لم أعد أميز منه بالضبط ماذا يمكن أن يكون كلام د حجازى وماذا يمكن أن يكون كلام السادات نفسه.

كان بهاء - كعادته - صريحا مع نفسه فقد أكد أن الأوضاع التى كشف عنها الانفتاح كانت هى بداية الشرخ الحقيقى بين السادات وبينه، هذا الشرخ الذى أخذ فى الاتساع حتى نهاية علاقتهما، لقد حاول بهاء أن يكتب مراراً فى الأهرام محاولا مقاومة تيار الانفتاح تحت عناوين التنمية والبناء والاعتماد على النفس وعدم تكرار مأساة التبعية الاقتصادية، والارتهان للأجنبى، ولكن المشاكل والتوترات زادت بين الكاتب الكبير، وأهل السلطة، ولما لم تكن هناك وقتها صحف معارضة ولا أحزاب معارضة، ولم لم تكن قد راحت السكرة وجاءت الفكرة، فقد فكر بهاء فى ترك منصبه فى الأهرام وأن يعود مسئولا فقط عن مقال يكتبه ويضع عليه اسمه.

أخذ صناع فيلم السادات من سيرة بهاء ما يروق لهم فقط فى رسمهم لصورة السادات بغض النظر عما قاله بهاء عن واقعة معينة، قد يعتبر أحمد بهجت نفسه حرا

فى أن يصيغ الحوادث كما يريد، لأنه يكتب دراما وليس تاريخا، لكن ليس بهذه الدرجة التى ظهر معها السادات بؤرة الأحداث ومركزها والجميع يدورون فى فلكه يسمعون له فى إنصات ويرددون كلامه بلا مناقشة.. ليس هذا فقط، ولكن يحاولون أن يقنعوا به الآخرين.

لم يكن بهاء كذلك.. فهو الكاتب الوحيد الذى لم تبقر السلطة بطنه وتجعله تابعا لها بأى صورة من الصور، ولذلك عندما كتب عن السادات كتب بموضوعية شديدة.. ولم يكن غريبا والكاتب هو بهاء أن يؤكد فى مقدمة كتابه الذى نشرته دار الهلال أنه ليس لديه على محاوراته مع السادات شهود، إلا فى القليل النادر وليس لديه وثائق إلا أقل وأندر، فهو يكتب هذه الأحاديث معتمدا على الذاكرة تماماً تاركا الحكم عليها للقارئ ورأيه فى أمانة الكاتب ومسئوليته.

لقد رأيت السادات من وجهة نظر أحمد زكى وأحمد بهجت ومحمد خان وقد حرصوا أن تستمتع بالفيلم، فمؤكد أنك ستجد فيه ما يسعدك، فإذا كنت من محبى السادات، فستجد حالة تقمص رائعة يؤديها أحمد زكى للسادات، وكأن الرجل بعث من مرقده، وإذا كنت مشاهداً عادياً لا تصدع رأسك بالانضمام لأى من حزبى عبدالناصر أو السادات، فستجد حرفية عالية جداً تم بها تنفيذ الفيلم فلا تشعر فيه بالملل.. والحوار بسيط تنساب كلماته بلا مشاكل ولا مانع من بعض الإفيهات التى تجعل القاعة تضحك وكأنها تشاهد فيلما لمحمد هنيدى.

السادات عند أحمد بهاء الدين شىء مختلف ليس تماما.. لكنه مختلف كثيرا عما جاء فى الفيلم.. يقول بهاء عن بداية تعارفه بالسادات: حدثنى إحسان عبدالقدوس عن أنور السادات، وعلاقته به قبل الثورة، وأنهما صديقان، وبدأ أنور السادات يأتى أحيانا إلى مجلة «روز اليوسف» فى مبناها القديم ليجلس ساعات مع إحسان، وكان بشوشا يقهقه بضحكة عالية ويقدمه إحسان لمن يتصادف أن يكون موجودا ولكن كنت أتصرف بنفور من التعرف عليه مفضلا أن أبقى بعيدا عن زعماء المؤسسة العسكرية الذين لم تتضح

أهدافهم بعد، خصوصا بالنسبة لواحد منهم اقترن فى ذهنى بالاتصال بالألمان النازيين والاشتراك فى محاولة إغتيال مصطفى النحاس زعيم الحركة الوطنية الشعبية فى ذلك الوقت.. كان هذا فى أوائل الخمسينيات.

لم يكن بهاء مقبلا على التعرف على السادات.. لكن حدث ما لا يهواه.. ففى سنة ١٩٥٧ كانت هناك أمور كثيرة قد اتضحت من فكر وأهداف مجلس قيادة الثورة سواء إلغاء الألقاب أو التحول إلى النظام الجمهورى أو إعادة توزيع الأرض الزراعية، أو حضور جمال عبدالناصر مؤتمر باندونج بوصفه أحد زعماء ومؤسسى حركة عدم الانحياز، خلال هذه الأحداث دق جرس التليفون فى بيت بهاء الدين، كان المتحدث هو أنور السادات وقال له إن جمال عبد الناصر قرر تكوين لجنة مصرية للتضامن الآسيوي- الأفريقى تساهم باسم مصر فى هذه الحركة الشعبية الواسعة فى آسيا وأفريقيا، و أنه تقرر أن يكون السادات رئيساً للجنة ويوسف السباعى سكرتيراً لها، وسرد على بهاء نحو ١٢اسماً هم أعضاء اللجنة كان من بينهم بهاء، يومها أخبر السادات بهاء بأن الرئيس جمال عبد الناصر هو الذى وضع أسمه فى اللجنة!

مرة أخرى يحكى بهاء عن أيامه مع السادات يقول: كانت الثورة تحاول عبثاً إقامة تنظيم شعبى جماهيرى لها فأسست هيئة التحرير ثم حلتها وأسست الإتحاد القومى فى محاولات غير ناجحة لملء الشارع السياسي، وكان جمال عبد الناصر قد جعل كمال الدين حسين رئيساً للا تحاد القومي، ثم اختار له حسين الشافعى مؤقتاً، ثم اختار له أنور السادات بصفة مؤقتة أيضاً إذ كان منصبه هو رئيس مجلس الأمة.

ودخلت - الكلام مازال لبهاء - إلى حديقة بيت السادات وهو جالس على مقعده المفضل وجلست على مقعدى المألوف وسألنى السادات بطريقة عفوية، وكأنه لا يهتم كثيراً بما يسأل عنه، وقد كان يتقن هذا الأسلوب كثيراً حتى لا ينتبه محدثه فى غمرة التفاصيل إلى ما يهمه من الحديث عن الأخبار والشائعات التى تخرج من فندق شبرد وتملأ القاهرة وأخذت أسرد له ما فى ذاكرتى من أحاديث ومقابلات وشخصيات ونوادر،

وكأن حديثى قد ابتعد عما يهمه، سألنى: وشائعة أن صلاح البيطار سوف يكون أميناً عاماً للاتحاد القومى فى مصر وسوريا: ألم تسمعها؟

قلت له: لا لم أسمع هذا الخبر أو هذه الشائعة، ولكنها فى رأيى فكرة عظيمة، الغريب أنها لم تخطر على بالى قط؟ فسألنى وما وجه العظمة فيها؟ فقلت له: القيادة فى مصر صارت لها خبرة فى إدارة الدولة والسياسة الخارجية وتطوير المجتمع من خلال القنوات الحكومية، ولكننا نشكو دائماً من عدم خبرتنا فى تكوين تنظيم شعبى ناجح رغم شعبية الثورة، ورجل مثل صلاح البيطار بنزاهته وتجرده ودوره الخاص فى الوحدة يتميز بخبرته الطويلة فى العمل الحزبى والتنظيمات الشعبية وعدت أكرر له: والله إنها فكرة عظيمة!

ولأول مرة أرى أنور السادات لا يكتم غضبه وثورته، مع أنه فى العادة قادر تماماً على ذلك وقال لى: تقول لى إنك لم تسمع الخبر أو الشائعة وأنت تترافع عنه على هذا النحو؟ ماذا يظن هؤلاء السوريون وخصوصاً البعثيين منهم؟ إنهم يتصورن أنهم سيحكمون مصر ويعلموننا السياسة؟

وجد بهاء أن ثورة السادات أكبر من الموضوع.. ولم ينتبه إلى أن السادات كان رئيساً مؤقتاً للاتحاد القومى وأنه كان ينتظر أن يكون المنصب من نصيبه، ومضت السنوات على الرجلين وعلاقتهما باردة، وكان كلما طلب السادات بهاء على فترات متقاربة، كان بهاء يتحدث بصراحة كاملة عن كافة الأمور العامة مهما كانت دقتها، وكان السادات يستمع أكثر مما يتحدث، ويصف بهاء السادات بأنه كان ممن يحسنون الاستماع وعدم إظهار مشاعرهم أو النطق بما يريد أن يقوله، ولذلك عندما صار رئيساً للجمهورية، وكان بعض أهل السلطة يبدون دهشتهم وأحياناً استنكارهم من مصارحتى الكاملة للسادات، كنت أقول لهم: إن السادات يعرف أرائى بالتفصيل فى كل الأمور والسياسات والاتجاهات جيداً، ولو قلت له أى شئ يخالف معتقداتى المدونة لديه، لنزلت من عينيه، ولم يصدقنى، فالأحسن أن يكرهنى إذا شاء ويعتبرنى صادقاً!

أحداث كثيرة ومواقف كثيرة أثرت سلبياً على علاقة السادات ببهاء الدين، فبعد هزيمة ١٩٦٧ تصاعدت حملة الصحف على هيكل، والامتيازات التى تنفرد بها الأهرام، وقرر عبدالناصر أن يكون على صبرى مشرفاً على جريدة الجمهورية، والسادات مشرفاً على مؤسسة أخبار اليوم ومؤسسة دار الهلال، واتصل السادات ببهاء الدين ليبلغه بذلك، ويطلب منه أن يخصص له مكتباً فى المؤسسة كى يباشر عمله منه.. ودار الحوار بينهما هكذا.

بهاء الدين: مكتبى تحت أمرك وهو الوحيد اللائق بك.

السادات: مش معقول يا أحمد! أنت بذلك لا تريدنى فى دار الهلال.

بهاء الدين: سيادتك تعلم أننى كثيراً ما وسطتك لدى الرئيس عبدالناصر كى يعفينى من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال، وأن يجعلنى مشرفاً على تحرير مجلاتها فقط، وتذكر أنه عندما رفض ذلك أكثر من مرة بحثت عن وظيفة فى اليونسكو ووجدتها وكنت على وشك الحصول على إجازة سنتين أعيشها فى باريس فراراً من مشاكل الإدارة!

السادات «مقاطعاً»: طيب أجل حكاية المكتب دى لحد ما نتقابل.

لم يعد السادات إلى هذا الحديث مرة ولم يدخل دار الهلال بعده أبداً، واكتفى بالمكتب الذى أعدته له أخبار اليوم، وكان يذهب إليه كل جمعة.. لكن موقف بهاء ولا شك أثر سلبياً على علاقته بالسادات.

علاقة السادات ببهاء دخلت نفقاً مظلماً عندما شن الرئيس هجوماً على بعض الكتاب المصريين الذين يكتبون فى صحف بعض الدول العربية، كان بهاء وقتها مريضاً وكانت مقالاته أيام هذا الخطاب تنشر فى جريدتى «الأنوار اللبنانية» و«الوطن» الكويتية وغضب السادات من بهاء، لكن موسى صبرى الذى ذهب لبهاء ليصحبه لمقابلة السادات فى أسوان أكد لبهاء أن القطيعة بين السادات وبينه يجب أن تنتهى لأن الرئيس يثق أن بهاء يفرق بين انتقاد سياسة مصر وبين مهاجمة مصر.

رفض بهاء أن يذهب وقال لموسى أريدك أن تقول للرئيس السادات على لسانى إننى أطالب بالمساواة بالمطربة شريفة فاضل، فقد كانت شريفة صاحبة كباريه «الليل» فى شارع الهرم تغنى أسبوعاً فى كازينو الليل وأسبوعاً فى كازينو فى لندن، حيث يكثر السواح العرب، وأنها كانت تغنى ليلة عندما تصايح بعض السكارى بكلمات ضد السادات وكامب ديفيد، وأن شريفة فاضل سايرتهم بكلام يحمل نفس المعنى، وبعد أيام نشرت جريدة الأخبار خطاباً من المحامى لبيب معوض يقول فيه على لسان موكلته شريفة فاضل أنها تؤدى عملها فى لندن كمطربة فقط ولا علاقة لها بالسياسة!

لقد قال بهاء لموسى صبرى إن شريفة فاضل من حقها أن تغنى فى كباريه فى مصر وفى كباريه فى لندن، ومن حقها أن تنفى ما يوجه إليها من تهم غير صحيحة، وأنا أطالب بهذا الحق وبالمساواة مع شريفة فاضل فى كباريهات الصحافة!

تطورت الأمور وانقطعت الصلة بين السادات وبهاء.. كانت هناك محاولة واحدة بذلتها جيهان لتعود المياه إلى مجاريها.. يقول بهاء: سألتنى جيهان.. ألا تريد أن ترى الرئيس قبل سفرك للكويت؟ وتواصل الحوار بينهما:

بهاء الدين: لا أحد يتردد فى مقابلة رئيس دولته، ولكن عندى سببان للاعتذار عن المقابلة الأول أن الرئيس غاضب منى.

جيهان: وهل تصدق كلام الصحفيين؟

بهاء الدين: لم يقل لى أحد ذلك، ولكنه أمر بديهى، فالرئيس يخوض معركة حياته السياسية وأنا لست فى معسكره، وقد رفض منى حتى موقف المعارضة المتعلقة فمنعنى من الكتابة.

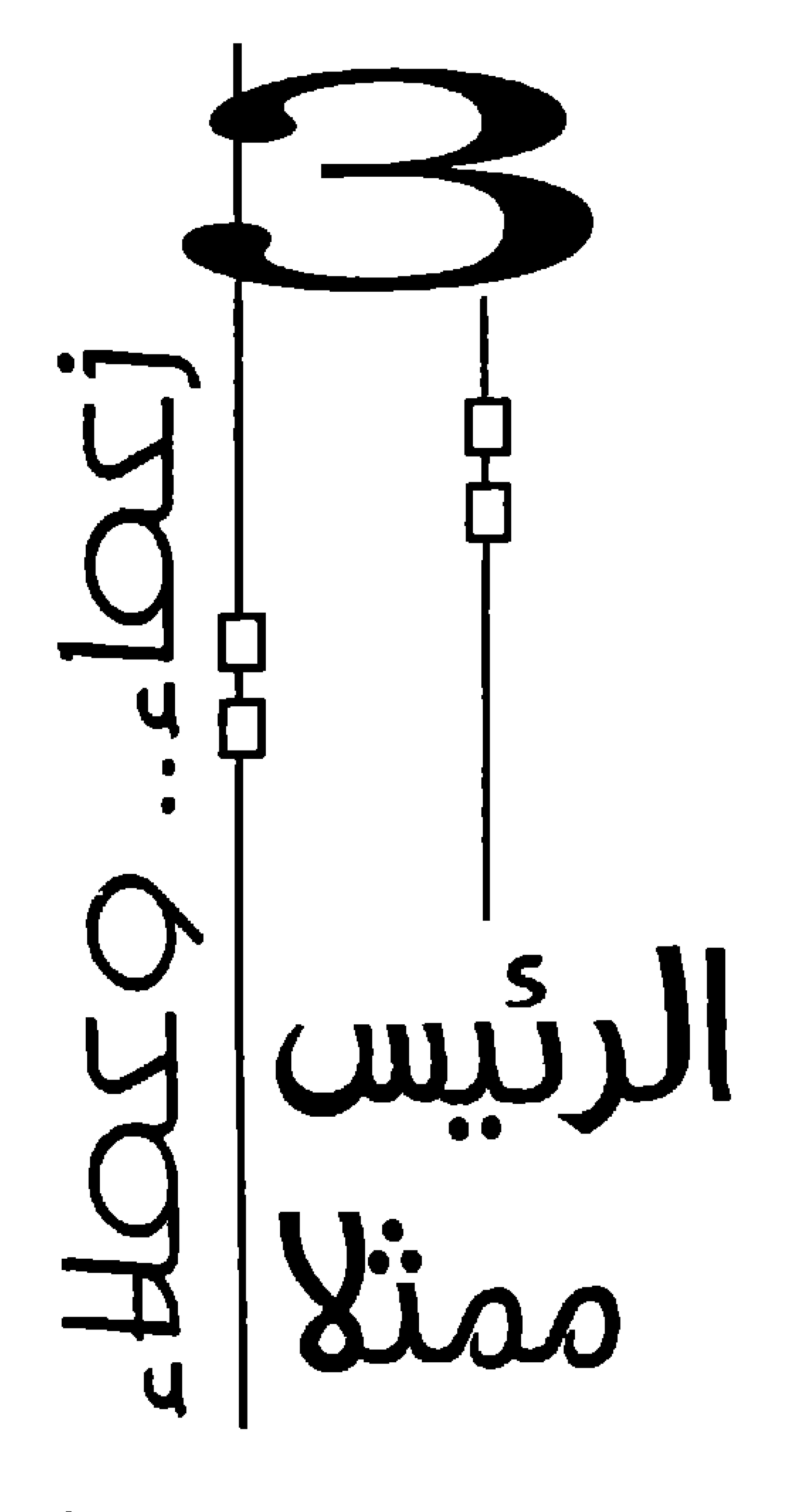
جيهان: لا غضب ولا كلام فارغ.. أنت تعرف شعوره الخاص نحوك، وقد كنت أسمعكما تتشاجران ثم يطلبك بعد أيام.. إن بينكما عشرة طويلة.

بهاء الدين: وهنا يأتى السبب الثانى.. إننى بصراحة أسمع أن الرئيس فى حالة عصبية شديدة التوتر وأنه لم يعد يطيق المناقشة وأنه لا يتردد فى إهانة من يناقشه

ويصب جام غضبه على الصحفيين.. إننى لأجل هذه العشرة الطويلة لا أريد أن أقابله فى هذه الظروف، فقد يحدث بيننا ما يكسر الجرة نهائياً، إننى أفضل ألا نتقابل حتى تمر حدة الأزمة بشكل أو بآخر فيكون فى اللقاء فائدة.

كان ما قاله بهاء صحيحاً.. ولذا لم يقابل الرئيس السادات بعدها، لقد كان بهاء الدين فى علاقته مع السادات يحافظ على مكانته ككاتب عجزت السلطة عن اقتحامه، لكن صناع فيلم السادات رأوا فيه غير ذلك.. لأنهم صنعوا الفيلم بوجهة نظر السادات الذى لم يكن يرى فى المثقفين، إلا «شوية أفندية»!

■ ■ ■


3
الرئيس
ممثلا

عندما يضع الرئيس أحمر الشفاه

إذا أردت أن تكون رئيساً عظيماً.. فلا بد أن تكون ممثلاً عبقرياً.. لتستطيع أن تقنع ناخبيك بوجهة نظرك هذا إذا كنت في بلد ديمقراطي يأتي الرؤساء فيه عبر صناديق الانتخابات، أو تسيطر على شعبك وتظل جاثماً على صدره هذا إذا كنت في دولة من دول العالم الثالث يأتي فيها الحاكم بانقلاب ولا يرحل إلا بالموت.. والمفارقة الحقيقية أن الرئيس في أمريكا مثلاً ترسم له الأدوار التي يقوم بها بعناية شديدة.. فكل كلمة محسوبة.. وكل لفتة معمول حسابها.. الابتسامة يتم تحديد مقاسها مسبقاً.. والضحكة لا بد أن تكون درجة الصوت فيها محددة.. لا تزيد ولا تنقص.. بل إن النكت والإفيهات التي يلقيها الرئيس الأمريكي تصنع على عين لجنة يتم اختيارها بعناية، وتنفق عليها المليارات.

في العالم الثالث الرؤساء ممثلون بالسليقة، بعضهم يمثل على شعبه لمزاجه الشخصي، يحبه ويعشقه ويتفنن في تفصيل الأدوار لنفسه.. ويقوم بكتابة الأدوار ويؤديها ويخرجها وإذا أراد فهو يخرج عن النص عندما يريد.. في مصر مثلاً أشار كل من كتب عن الرئيس السادات إلى عشقه للتمثيل وحبه للكاميرات وحرصه على الظهور أمام الجمهور بشكل حدده هو دون تدخل الآخرين.. فهيكل في خريف الغضب يروي أن السادات وابتداءً من ١٩٧٤ وما بعدها اتخذ لنفسه عادة جديدة في الاحتفال بعيد ميلاده، كان يعود في ذلك اليوم إلى القرية التي ولد فيها وهي قرية «منيت أبوالكوم» وهناك وأمام عدسات التليفزيون وتحت أضوائه الباهرة يجلس مرتدياً جلابية ريفية أنيقة التفصيل وعباءة

عربية فاخرة ليحكى على امتداد ساعتين أو ثلاث ذكريات حياته والمشكلة - كما يقول هيكل - إنه لم تتوافق روايتان قط من الروايات التى كان يحكيها، فقد كان فى كل سنة يضيف ويحذف بل ويتناقض فى روايته لقصته عن الطريقة التى قدمها من قبل، وأحياناً كانت القصص الجديدة تتصادم بقسوة مع ما سبق له هو أن قاله أو كتبه فيما أدلى به من أحاديث أو ما كتبه من مقالات فى عديد من الصحف والمجلات التى كان يسيطر عليها أو يرعاها، ويمكن أن يقال إنه كان يكتب قصة حياته من جديد مرة كل سنة.

انتهى كلام هيكل الذى حاول من خلاله أن يؤكد أن السادات كان ممثلاً فى كل حالاته.. ليس فى لقاءاته الرسمية.. وخطبه السياسية فقط.. ولكن فى روايته لحياته الشخصية أيضاً، على عكس ما فعله هيكل فإن الكاتب الأمريكى «آرثر ميللر» كان صريحاً.. لم يتحدث بالتلميح أو الإشارة.. كتب مقالاً طويلاً ضمنه فى كتاب فى حجم كف اليد.. ولأن ميللر هو كاتبه.. فالكتاب يباع بـ ١٥ دولارا مرة واحدة.. رأى ميللر فى كتابه أن رؤساء أمريكا كلهم ممثلون.. والخلاف بينهم فى درجة الاحتراف.

قبل أن يفهم أحد ميللر خطأ.. فإنه يؤكد أن ما كتبه ليس إلا ملاحظاته الشخصية حول أداء السياسيين التمثيلى، ولا تعنى ملاحظاته تلك أية إساءة لفن التمثيل، فبعض أصدقائه من الممثلين، ثم إنه يعتقد وهذا هو الأهم أن التمثيل أمر حتمى ليس للرؤساء فقط، ولكن لنا جميعاً بمجرد أن نخرج من بيوتنا، فالطريقة التى نتحدث بها فى الشارع مع الناس وعلى المقهى مع أصدقائنا.. ليست هى الطريقة ذاتها التى نتحدث بها فى غرف نومنا داخل منازلنا.

لقد دخل ميللر إلى مقاله من رؤيته للإنسان فهو ليس حيواناً اجتماعياً كما كان يعتقد أرسطو لكنه بالإضافة إلى ذلك «حيوان ممثل».. ولذلك فمن الطبيعى أن يرتبط الناس بطريقة أداء الرئيس وشخصيته أكثر من ارتباطهم بقراراته.. فما زلنا نذكر الطريقة التى أخذ بها جمال عبدالناصر قراره لتأميم القناة وتجد نبرته الأسطورية التى أعلن بها القرار صدى فى نفوسنا أكثر من تأثير القرار نفسه، وما زلنا نتأمل الطريقة التى ألقى

بها السادات قراره بالسفر إلى إسرائيل ونحس بها.. أكثر من إحساسنا بالقرار نفسه وتوابعه التى تظلنا حتى اليوم.

والرئيس المحظوظ فى رأى ميللر مثل الممثل المحظوظ.. فشخصياتهم تفرض نفسها منذ البداية على الجمهور، لكن مشكلتهم الكبرى أنهم لا بد أن يعيشوا مثل راكب الدراجة الذى يواصل الحركة باستمرار حتى يصل إلى هدفه، لأنه لو توقف لحظة فلن يصل.. وكذلك الرئيس والممثل.. فكل منهما نجم، يبحثان عن دور جديد.. قصة جديدة.. قرار جديد.. المهم أن يكونا فى دائرة الضوء، والصعوبة التى يقابلها أى رئيس الآن وبعد انتشار التليفزيون ومن ورائه الفضائيات أن الشعوب أصبحت ولمدة ٢٤ ساعة فى اليوم محاطة بالتمثيل، فكل ما يقدم على شاشات العالم فى النهاية تمثيل: نشرات الأخبار.. البرامج الحوارية.. برامج المسابقات.. المسلسلات.. الأفلام.. وبالمرة تأتى خطب الرؤساء والسياسيين التى تستدعى حبكة درامية محكمة كان يجيدها ريجان من بين رؤساء أمريكا للدرجة التى كان يتندر فيها المحللون عليه بأنه لم يكن يستطع التمييز بين أدواره فى الأفلام التى شارك فيها وأدواره الحقيقية التى قام بها من موقع مشاركته فى الأحداث الفعلية كسياسى.

إن التطور التكنولوجى الرهيب الذى تلهث وراءه البشرية دون أن تدركه فرض على من يرغب فى كرسى الرئاسة الأمريكية أن يتعلم فنون التمثيل.. لا يكتفى بقدراته الشخصية.. ولا بكفاءته الذاتية.. والمفاجأة أن تعلم التمثيل ليس كل شئ.. فيمكن أن يتقمص الرئيس الأمريكى شخصية ولا تعجب الجماهير فى النهاية فتطيح به من البيت الأبيض، بوش الابن حاول فى حملته أن يبدو جاداً بعيداً عن جو المرح.. حاول أن يبدو مستبشراً وسعيداً.. لكنه فشل فى إقناع الجمهور وقد أرجع ميللر ذلك لسوء الحظ ليس أكثر، فالممثل يمكن أن يؤدى دوراً على المسرح أو السينما ويفشل.. ليس لأنه سيئ.. ولكن لأنه لم يكن على مزاج الجمهور. يفرض الدور الذى يؤديه الرئيس الأمريكى أمام عدسات جمهوره أن يغير بعض طباعه، فبوش الصغير الذى أصبح معبوداً للأمريكان الآن.. كان قبل أن يصل لمنصب

الرئيس يتلفت يميناً ويساراً وهو يتحدث.. يصمت لبرهة كلما أنهى فقرة فى خطابه.. واعتبر بذلك ممثلاً سيئاً.. لكنه وبعد أن تسلمته لجنة مسئولة عن إعداده وإعادة إنتاجه.. تخلى عن الالتفات يميناً وشمالاً.. ونسى الصمت تماماً.. بل إنه تخلى عن «الشخر» الذى كان يخرج منه رغماً عنه وهو يلقى كلمة.. فليس مناسباً أن يقف رئيس ليشخر أمام شعبه!

ولا يكون الرئيس ممثلاً بارعاً إلا إذا أخفى عن مشاهديه أنه يمثل عليهم.. فهو تلقائى.. هكذا يفعل آل باتشينو وتوم هانكس وأحمد زكى.. وهكذا كان يفعل بيل كلينتون.. ويجيد الفعل ذاته الآن بوش الصغير، ويذكر ميللر أنه أثناء حملة أيزنهاور ضد أدلى ستيفينسون فتح التليفزيون ليشاهد أيزنهاور الجنرال الذى قاد أعظم قوة غازية فى التاريخ وهو مستلق بين يدى اخصائية تجميل محترفة تعده ليظهر على التليفزيون، كان ميللر ساعتها ساذجاً، لقد سأل نفسه لماذا يظن هذا الرجل أنه فى حاجة إلى البودرة وأحمر الشفاه وليس إلى الأفكار والتصريحات؟ ما لم يعرفه ميللر أن الرئيس لا يستغنى عن الشجاعة بنفس الدرجة التى لا يستغنى فيها عن أدوات التجميل.. فالقرارات الجريئة لا تغنى عن أحمر الشفاه.. والأفكار العظيمة لا تغنى عن البودرة.. لكن المهم أن يظل الرئيس محتفظاً بصورته.. فمن الخطر أن يعرف الناس أن الرئيس يخفى وجهه الحقيقى تحت وجه بلياتشو.

لقد نجح كلينتون فى أن يصل إلى البيت الأبيض مرتين.. ورغم أن الأمريكان اكتشفوا فى النهاية أنه كان يكذب عليهم طوال الوقت.. لكنهم كان يصدقونه ليس لأنهم سذج.. ولكن لأن كلينتون كان ممثلاً عبقرياً.. يقول ميللر: «إنه على الرغم من فضيحة الاعتذار المثيرة للاشمئزاز التى غادر بها كلينتون البيت الأبيض.. إلا أنه ترك منصبه بكم هائل من الإنجازات، ارتبط به الأمريكان.. تعاطفوا معه.. وجدوا أن المأزق الذى تعرض له يكفى جداً ليغفروا له خطاياه.. تمنوا أن يخرج من أزمته.. وهو ما يحدث تماماً مع الممثل عندما تتيح له أحداث المسرحية تكفيراً درامياً لذنوبه، كان سر كلينتون أنه يسترخى أمام عدسات التصوير.. وهو الاسترخاء الذى كان يخلق حالة من الود بين المؤدى «الرئيس» والمشاهد «الجمهور».

بوش الصغير على العكس تماماً من كلينتون.. فالجماهير العالمية خارج الولايات المتحدة الأمريكية ليست معجبة به على الإطلاق.. سنضطر لاستثناء الشعب الأمريكى مؤقتاً، لأنه ما زال مبهوراً بما حققه بوش فى حربه البربرية ضد العراق.. وسر هذا النفور من بوش أنه ممثل فاشل.. يشعر كل من يسمع له أو يراه أنه يمثل دوراً ما.. فهو كما يقول ميللر «ينفخ صدره ويزم فمه بقسوة فى محاولة لإخفاء ضعفه» فقبل أن يصل إلى السلطة كانت تتكرر أخطاؤه النحوية كثيراً.. كان يكرر أنه القائد المنتظر والزعيم الذى سيرفع الأمة الأمريكية من الضياع.. لكن هذا لم يشفع له.. فقد كان الأمريكان يرونه مهرجاً يؤدى دور الزعيم ليس إلا.. ومن سوء حظه أنه كان كلما انفعل قصرت قامته أكثر فأكثر.. وعندما تولى السلطة لم يجهد نفسه ليتقن دوره.. لكنه لجأ للحيلة الأبدية.. حيث اعتمد على العنف كلما دعت الحاجة إلى ذلك.. ولذا فهو ومنذ ١١ سبتمبر وحتى الآن يلعب دور شجيع السينما الذى أعلن الحرب على الإرهاب.. وهو ما زال يتخفى وراءها.. يستمد منها قوة وشرعية.. ويلفت بكلامه عنها تركيز الجماهير الضخمة عن شخصيته المهتزة.. وضعفه السياسى.

لم يختلف بوش فيما يفعله إذن عما كان يفعله وحش الشاشة العربية أو ملك الترسو – كما كان يحب أن يلقب – فريد شوقى.. لم يكن فريد ممثلاً عبقرياً.. ولذلك كان يعتمد فى أفلامه على كثرة المشاهد التى يضرب فيها عصابات تهريب المخدرات.. التى يقسم فى كل مرة بشرف الست والدته أنه لن يرحمهم أبداً.. فعندما يفتقد الرئيس أو الممثل القدرة على إقناعك بحسن الأداء.. فإنهما لا يترددان فى أن يفعلا ذلك معك بسوء الأدب.

وإذا كان ضعف الرئيس أو الممثل يحل بالقوة والعنف فى الواقع وعلى الشاشة.. فإن الممثل الجيد رئيساً أو فناناً يستطيع أن يقنع جمهوره بما يريد دون عناء، لقد صدق الأردنيون الملك حسين عندما عاد إلى الأردن من أمريكا ليعزل أخاه الأمير الحسن عن ولاية العهد.. ويولى ابنه الأمير عبدالله وقتها والملك الآن، نزل الملك حسين من الطائرة

مجهداً منهك القوى.. كان الرجل يعالج من السرطان.. ما أن لمست قدماه أرض الأردن حتى خر ساجداً يشكر الله على نعمة أن جعله يرى تراب أرضه مرة أخرى.. مشهد تمثيلى رائع وظفه الملك فى خدمة هدفه.. فقد تعاطف معه الشعب الأردنى بشدة وبارك قراره وشد على يديه.. لم يكن أمام الملك الذى أدى الدور ببراعة إلا أن يطلب إسدال الستار.. وكتابة كلمة النهاية لحياته.. لتبدأ حياة جديدة لمملكة اختارها بنفسه بل وضع لها السيناريو والحوار.

وفى رام الله عندما حوصر الرئيس ياسر عرفات ونقلت كاميرات الفضائيات صوره وهو يعيش فى ظلام مقره يتحدث على ضوء الشموع.. يتحدى المحتل ويعده بأنه سينتصر عليه.. أصبح عرفات فى يوم وليلة - رغم ما لحق بتاريخه الطويل من شوائب - بطلاً أسطورياً صامداً.. كان يوظف كل إمكاناته.. عيناه الغائمتان أصبحتا عينى صقر.. رعشة يديه وشفتيه اختفت تماماً.. نبرات صوته أصبحت حادة.. لكن عندما انتهى الحصار وخضع عرفات لشروط شارون سقط القناع.. واكتشف الناس أن الرئيس كان يمثل.. وما دام الدور انتهى فلا داعى لتصديقه.

الفكرة الأساسية التى أخرجها أرثر ميللر فى مقاله الطويل، وهى أن الرئيس لا بد أن يكون ممثلاً بشرط ألا يعرف الناس أنه يمثل عليهم، تفسر لماذا لم يكن الناس يصدقون الرئيس السادات رغم أنه كان بارعاً فى الأداء.. خطيباً ماهراً.. يستخدم إمكاناته الجسدية لتساعده فى التعبير عما يريد؟ فأغلب الظن أن ما رواه الرئيس السادات عن حياته وعن عشقه للتمثيل ومحاولته العمل به.. جعل ذلك كله ينظرون بعين الريبة لهذا الرئيس الذى كان يحلم فى يوم من الأيام أن يصبح ممثلاً.

ففى مقال نشره الرئيس السادات بنفسه عن نفسه فى جريدة الجمهورية عدد ٢٨ نوفمبر ١٩٥٥ كتب السادات يقول عن رحلته مع التمثيل: «كان ذلك فى أوائل عام ١٩٣٦ وكنت فى مدرسة رقى المعارف الثانوية، وتكونت فى المدرسة فرقة تمثيلية، كنت أنا ضمن أفرادها، بعد أن أديت الامتحان أمام المشرف وكان ممثلا محترفا جىء به لكى يشرف

على الفرقة ولكى يعد الرواية التى ستقدمها الفرقة فى نهاية العام الدراسى، وأنا أذكر أنه جاء بروايتين إحداهما دراما والأخرى فكاهية وأنه أعطانى دورين أحدهما فى الدراما وكان اسمى فيه «جيردمش والآخر فى الرواية الكوميدية وكنت أمثل فيها دور مأذون اسمه الشيخ عزيز، ومازلت احتفظ إلى اليوم بالبروجرام الذى طبع لهذه الحفلة، وعليه صورتى كما ترى الآن فى كل البروجرامات التى تطبعها الفرق التمثيلية».

بعد أن أدى السادات هذين الدورين قرأ إعلانا تطلب فيه الفنانة أمينة محمد وجوها جديدة لفيلمها الذى كانت تنوى إنتاجه وهو «تيتاونج» توجه السادات إلى مقر الشركة فى عمارة بشارع إبراهيم باشا وها هو يقول وكما جاء فى مقال الجمهورية: «جاءت الفنانة أمينة محمد واستعرضتنا جيئة وذهابا وكنا أكثر من عشرين شابا انتقت منا اثنين وطلبت من الباقين أن يرسلوا لها بصورتين إحداهما فاس والثانية «بروفيل»، ولم يكن هذا الطلب إلا زحلقة».

هذا ما قاله السادات عن نفسه.. أما ما قاله عنه الآخرون فهو كثير أيضاً.. تقول دورين كايز رئيسة شبكة تليفزيون «ايه. بى. سى» الأمريكية فى القاهرة والتى التقت السادات رئيساً:، كان لدى السادات إحساس غريزى بكاميرات التليفزيون.. لا تكاد أنوارها تقترب منه حتى يعد نفسه لها، ويرى هيكل فى خريف الغضب أن السادات كان يملك ممثلاً قابعا فى أعماقه.. ويعتبر السادات واحدا من النجوم اللامعة.. والنجم اللامع عند هيكل يبدو قادرا على القفز فوق حدود الزمان والمكان، يمد يده مباشرة إلى أيدى وآذان ملايين من الناس لا يعرفهم، ومقياس النجاح والفشل بالنسبة له لا يقاس بعدد الأصوات التى حصل عليها فى الانتخابات، أو بحجم أغلبية تقف وراءه فى برلمان، ولكن يقاس بعدد المرات التى ظهرت فيها صورته على أغلفة مجلات مثل تايم ونيوزويك.. وبالرحلة إلى القدس.. التى كانت - وهذا رأيى وليس رأى هيكل - لحظة القمة فى الدور الذى كان يؤديه الرئيس السادات.

لقد نزل السادات إسرائيل وصافحه أعداؤه.. ولم يشغل الناس ساعتها هل ستؤدى هذه الزيارة إلى وضع حد للحرب الدائرة بين العرب وإسرائيل.. لأن سؤالا أهم كان يلح

على أذهـانهم.. وهو هل الرحلة وقـعت بالفـعل؟.. وهل مـا يرونه أمـامـهم واقـعـا.. أم أنه واحدة من الأسـاطيـر الكثيـرة التى يسمعـون عنها فى حكايات ألف ليلة وليلة؟.. تفاعل العالم مع السادات ربما لأن الناس هناك لم تكن تعرف أنه كان وظل عاشقا للتمثيل.. لكن الناس هنا فى مصر ضاقت ذرعا بما فعل.. لأنهم شعروا أن الرئيس يخرج عن النص.. ويقول كلاما لم يتفقوا معه عليه.. ولذلك تركوه وحده على خشبة المسرح.. حتى كانت النهاية الدامية.

الغريب أن السادات كان يغذى عند الناس الشعور بأنه يمثل.. لم يكن يراعى طبيعة الشعب المصرى التى تختلف كلية عن طبيعة الأمريكان.. فالشعب المصرى يفعل كل ما هو ممنوع ومحرم فى السر.. لكنه لا يتردد فى إدانة أى ممنوع ومحرم إذا خرج إلى العلن وأصبح مكشوفا.. فهم يكذبون لكنهم يدينون من يكذب.. يسرقون الكحل من العين ثم يدعون الشرف، مقصرون فى عملهم طوال الوقت.. لكنهم أكثر من يتهم الآخرين بالتقصير.. ولذلك لم يسامحوا السادات لأنه كان يلاعبهم على المكشوف.. وظل يفعل ذلك حتى شهوره الأخيرة.

صباح السبت ٢٣ فبراير ١٩٨٠ خرجت جريدة أخبار اليوم وعلى صفحتها الأولى ثلاث صور للرئيس السادات، الأولى وهو بملابسه الداخلية داخل الحمام يغسل وجهه على الحوض، والثانية وهو يحلق ذقنه بنفس ملابسه الداخلية والثالثة كان مسترخياً فيها على الأرض يضع رأسه لأسفل وقدميه لأعلى.. كانت فكرة الصور لإبراهيم سعده الذى كان قد تولى رئاسة تحرير أخبار اليوم منذ شهرين فقط.. سجل فاروق إبراهيم المصور الشهير حوالى عشرة آلاف صورة للسادات وهو فى الحمام وهو فى سريره وهو يأكل.. وهو يركب دراجة ووراءه حفيده، وهو يسير واضعاً عصا بين يديه ومرتديا قبعة وهو يصلى وهو يقرأ القرآن وهو يطالع الصحف، فعل فاروق إبراهيم ذلك بعد أن شجعه السادات بقوله: «لقد وافقت على أن أسجل حياتى بعدستك إيماناً منى بضرورة تشجيع المواهب المصرية الشابة» ويبدو أن هذه الصور لم تلق ارتياح البعض ولذلك عقب عليها

سعدة فى العدد التالى مباشرة بأنه «من حق الناس فى مصر أن تعرف كيف يعيش الرئيس السادات، فهو أبو العائلة الكبيرة ومن حق الأبناء أن يعرفوا ماذا يفعل كبيرهم.. وكيف يقضى يومه وكيف يعيش داخل منزله».

لن أتحدث عن أزمة الصور.. ولن أطرح سؤالاً حول صحة ما حدث وهل كان السادات موفقاً فيما فعله.. أم كان مخطئاً، لأن السؤال فات أوانه.. لكن ما يهمنى هو تأكيد أن الرئيس كان مصراً حتى النهاية على أن يظهر الممثل القابع تحت جلده.. من أن لآخر كان يمنحه الفرصة ليظهر.. يعيش حياته كما يريد.. دون أن يعترض الرئيس أو يستحى أو تهتز منه شعرة.. ولذلك لم يكن من الصعب أن يتصور البعض أن الرئيس السادات ظل ممثلاً حتى لحظة اغتياله.. فقد تلقى رصاصات القتلة وكأنه يؤدى مشهداً سينمائياً ترصده الكاميرات.. ولعل ما جعل هذا راسخاً فى الأذهان ما قدمه أحمد زكى فى فيلم «أيام السادات» فقد اهتم بأن يعرض لملامح الرئيس وانفعالاته وهو يقتل.. للدرجة التى جعلت البعض يعتقد أن الذى يقتل فى الفيلم ليس أحمد زكى ولكنه السادات نفسه.. ولم يكن ذلك لأن أحمد زكى ممثل عبقرى فقط.. ولكن لأن السادات كان ممثلاً عبقرياً كذلك.

إن الصور التى نشرتها أخبار اليوم أخرجت السادات من خانة السياسى إلى خانة النجم، فالرئيس يترك نفسه على طبيعتها.. تلتقط له الكاميرات الصور على حاله.. لكن أن يستعد لها: ينام ويقوم.. يتحرك ويسكن.. يصلى ويقرأ.. يسبح ويركب الدراجة.. كل ذلك وهو يعلم أن الكاميرات ترصده.. فإنه بذلك يفسح المكان للنجم الذى ينافسه فى الشهرة كى يأخذ راحته.. وقد أخذ السادات الفنان راحته بالفعل.. لكنه مع الأسف الشديد لم يصدقه الناس.. لسبب واحد أنهم أدركوا أنه يمثل عليهم.. ولو كان أخفى بعض مشاعره وأتقن الدور أكثر من ذلك ربما صدقه الناس.. أقول ربما!

●●

هل كان عبدالناصر ممثلا؟

تصر د هدى عبدالناصر على أن أباها يعانى من ظلم كبير.. فكل من كانوا معه تكلموا.. كتبوا مذكراتهم.. دونوا شهادتهم.. وهو وحده الذى لم يتحدث.. لم يرد على من نسبوا إليه أشياء لم يفعلها وأقوالاً لم يتفوه بها.. وهو كلام رغم ما به من منطق.. لكنه ليس صحيحا بالمرة.. فقد انفرد عبدالناصر بالساحة وحده ثمانية عشر عاما كاملة.. فعل وحده.. وتحدث وحده.. وقرر وحده.. تعلق به الجميع.. داروا فى فلكه.. تأثروا به.. اعتقدوا فيه.. قدموا له عقولهم على بياض ومقدما ودون مقابل.. ولذلك فعندما مات لم يمت وحده.. فقد سار وراءه محبوه ومريدوه ودراويشه.. الذين مازالوا يستلهمون روحه فى حضرته.. ولا يقبلون نقده أو الاعتراض عليه.. ولو من باب حسن النية.

لقد حسم عبدالناصر القضية لنفسه منذ البداية عندما انحاز إلى الفقراء.. وتصدى لكل من حاول أن يعبث بأقدارهم ومصائرهم.. ولذلك وضعوه فى قلوبهم.. وعندما قرأت كتاب «آرثر ميللر» عن الرئيس عندما يصبح ممثلا.. لم يتبادر عبدالناصر إلى ذهنى مطلقا.. فعلها السادات الذى جلس وتربع على قمة الأداء التمثيلى.. فنجح وهو يؤدى دور الرئيس.. لكن بعد صفحات قليلة.. وجدتنى متورطا فى استدعاء عبدالناصر بشحمه ولحمه.. أحضرت ألبوم صوره.. وضعتها إلى جوار بعضها البعض.. تأملت تعبيراته.. استجابته للكاميرا فأيقنت أننى أمام ممثل عبقرى.

لكن ما الذى جاء بعبدالناصر إلى كتاب «ميللر».. لقد وجدته فيما كتبه الكاتب الأمريكى عن «فرانكلين روزفلت».. فهو بالنسبة له الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يطلق عليه لقب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بثقة، فقد كان رجلا جيدا.. لم يكن يستطيع أن يقف على قدميه، لكنه كان حريصا على عدم استعراض ضعفه بظهوره على كرسى متحرك، كان يبدو دائما متفائلا ومستبشرا رغم أن حالته المزاجية العامة لم تكن كذلك!

ويبدو أن ميللر وقع فى غرام روزفلت.. ولذلك يراه نجما حقيقيا يمتلك حضورا طاغيا، بل يصل به إلى الرجل الظاهرة التى تستعصى على الفهم وتحير من يتابعونها،

لقد كان مثالا للجنتلمان المحافظ، ركز فى حملته الأولية لانتخابات الرئاسة على الميزانية بصرامة، وهو ما جعله يتعرف عن قرب على الحياة الأمريكية العادية.. وكان طبيعيا بعد ذلك أن تتغير رؤيته لدور الحكومة فى رفع المعاناة عن المطحونين من الشعب الأمريكى.

وحتى لا يعتبر قراء ميللر كلامه دخانا فى الهواء.. فإنه يدلل بما حدث له شخصيا، فقد تعرض جده لأمه لأزمة مالية كبيرة، نتيجة كساد سوق الأوراق المالية عام ١٩٢٩، انتقل بعدها ليعيش فى بيت ابنته، كان روزفلت وقتها رجل أعمال ينتمى للحزب الجمهورى وكان يعرقل كل الجهود التى يبذلها الرئيس الأمريكى وقتها «هيربيرتا هوفير» لإخراج أمريكا من أزمتها الاقتصادية.. كان ميللر يغضب بشدة كلما رأى صورة لروزفلت فى هذه الفترة.. كان يكره غطرسته وأعصابه الباردة وهو يواجه هوفير، لكن بعد أن وصل روزفلت إلى البيت الأبيض وبعد عام واحد فقط انقلبت أفكار الرجل.. أنشأ مجموعة من الوكالات لمعالجة أزمة البطالة التى طحنت عظام الشعب الأمريكى وتحسين وضع الطبقة الوسطى والقضاء على الجوع الذى كان منتشرا فى كل أرجاء أمريكا، تحولت الكراهية فجأة إلى محبة.. تفككت رؤية ميللر لروزفلت.. أقبل عليه بفضل سياسته الواقعية وتفكيره الدائم فى واقع المواطن الأمريكى.. لم يعجب به بسبب صوره ولا طريقة نطقه للكلمات ولكن لأنه كان صاحب فضل مباشر على ميللر وعلى عائلته.. التى وصلت إلى مرحلة جيدة بعد أن وصل بهم الحال للدرجة التى كان من الممكن معها أن يطردوا من منازلهم.

ما حدث لعائلة ميللر حدث لعائلات أخرى كثيرة.. كانت تسكن فى منازل مكونة من ست غرف يعجز أصحابها عن النوم من احتمال الطرد والتشرد، فجاء حل روزفلت العبقرى وكأنه جاء من السماء، أنشأ شركة لإقراض أصحاب المنازل، كان القرض العقارى يسدد على عشرين أو أربعين عاما فى الوقت الذى لا تتجاوز فيه الدفعة الشهرية مبلغ المائة دولار.

فضل روزفلت على ميللر استمر طويلا، فعندما دخل الجامعة كان يتلقى ١٥ دولاراً من إدارة الشباب الوطنية، ولولا هذا المبلغ ما كان له أن يستمر فى التعليم، وبعد أن تخرج انضم إلى المسرح الفيدرالى فى آخر ستة أشهر من عمره وكان يتقاضى خلالها ٢٠ دولاراً و١٧ سنتا وكتب خلالها رواية وبعض المسرحيات الإذاعية التجارية التى مكنته من الاستمرار فى الحياة لمدة ست أو سبع سنوات حتى كتب مسرحية «كل أبنائى».

شىء مما فعله روزفلت مع أبناء شعبه المطحونين فعله عبدالناصر بأبناء شعبه المسحوقين الذين كانوا عبيدا فى أرضهم.. أعاد الحقوق لأصحابها.. نصر الفقراء وناصرهم وأعانهم على من ظلموهم قرونا عديدة، استقوى به الضعفاء ومازلت أذكر ما سمعته من شيوخ قريتى عن عبدالناصر، أحدهم صادف مشكلة صغيرة فى الجمعية التعاونية فهدد رئيسها أن يرسل خطابا لعبدالناصر، وبالفعل كتب له برقية يطلب منه أن يعيد له حقه.. وبالفعل اهتم عبدالناصر ووصلت رسالة تؤكد هذا الاهتمام وتعيد للفلاح الضعيف - الذى لا يملك من الدنيا شيئا - حقه.

لقد بذل عبدالناصر نفسه لأبناء الشعب الحقيقيين.. وضعهم فى قلبه.. لم يتعامل معهم كرئيس يأمر فيطاع.. أو يجمع أطراف الدنيا ليضعها فى جيبه وليذهب الآخرون إلى الجحيم.. كانت تؤرقه أوجاع البسطاء فينتفض لها ويتصدى لحلها. وحتى لو وصلته هذه الهموم عن طريق النكتة ففى إحدى حفلات أضواء المدينة ألقى الممثل أحمد غانم نكتة قال فيها إن مواطنا ذهب ليشتر أرزاً من الاسكندرية ركب القطار وفى محطة طنطا قال له محصل القطار أنت رايح تشترى رز من إسكندرية فقال له المواطن نعم، فرد عليه المحصل.. طيب إنزل هنا.. لأن طابور اللى بيشتروا الأرز من الإسكندرية آخره فى طنطا.. سأل عبدالناصر عن معنى النكتة وعلى ما يبدو أنه لم يكن متذوقا جيدا لها فقالوا له إن هناك أزمة طاحنة فى الأرز فأصدر تعليماته لحل الأزمة بأى طريقة.

إننى أؤمن أن عبدالناصر قام بدوره فى ضوء اجتهاده الخاص.. أصاب فى أشياء كثيرة.. وأخطأ فى أشياء كثيرة.. وهكذا هى الحياة، صحيح أن من بين أخطاءه ما قصم ظهر المصريين وأحالهم إلى كائنات هشة ضعيفة غير قادرة على المقاومة.. لكنها تجربته

التى صاغتها الظروف الدولية والمتغيرات العالمية التى هى فى النهاية أقوى من أى زعامة حتى ولو كانت مستمدة من حب الشعب واستعداده للفداء والتضحية من أجل زعيمه.

الفارق ربما يكون الوحيد بينى وبين من ينتسبون إلى عبدالناصر أننى غير مفتون به، لأننى فى الأساس لا أفتن بالزعامات والقيادات الكاريزمية.. لا تهزنى الأشياء الضخمة.. زرت الهرم مرة واحدة ولم أنبهر بضخامته.. لا يؤثر فى اتساع البحر ولا أخشاه رغم علمى بقدرته على القتل والإفناء.. تستفزنى المبانى العالية وأعتبر أنه لا ضرورة لها على الإطلاق.. وقد يكون ذلك لأنى أنتهج أسلوبا فى الحياة يقوم على أنه لم يعد فى هذا العالم مكان للأفكار الكبيرة ولا للزعامات الكبيرة.. فكل شئ جائز!

قبل سنوات وعندما كنت فى الثانوية العامة كان المقياس هو الدرجة النهائية ١٠٠٪ وكان الذى يحصل على ٩٠٪ يعتبر معجزة عصره، كان الناس فى المحافظات المختلفة ينظرون لمن يحصل على أكثر من ٩٥٪ مثلاً على أنه عبقرية فريدة نادرا ما تتكرر.. لكن الآن أصبح الناس يستوعبون أن يحصل الطالب على أكثر من ١٠٠٪.. وهناك بالفعل من يحصل على ١٠٢٪ و١٠٤٪، لم يعد هناك سقف لشئ إذن.. والمشكلة التى يعانى منها جيلى أن هناك من يصر على أن هناك ألف سقف لا بد من الالتزام به. ولذلك قامت قيامة البعض عندما حاولت انتقاد جمال عبدالناصر.. وشعرت وقتها أننى أقترب من قدس أقداس أو بأننى أتحدث عن ذات إلهية مصانة لا يجب الاقتراب منها.. وهو ما رفضته وما زلت أرفضه حتى الآن.. فعبدالناصر عندى قائد وزعيم أدى دوره فى لحظة تاريخية معينة.. أخطأ وأصاب.. وليس معقولا أن نتغاضى عن أخطائه التى كان منها ما هو قاتل لمجرد أنه جرت على يديه إنجازات تصل فى بعضها إلى درجة المعجزات.

ولذلك فقد يستنكر البعض أن ننظر إلى عبدالناصر من زاوية أنه كان ممثلا عبقريا ومؤديا ممتازا، وقد يفعلون ذلك لأنهم يمكن أن يعتبروا ذلك إساءة وسوء أدب فى التعامل مع رمز وأسطورة اسمها جمال عبدالناصر.. لن أتعرض لما يمكن أن يقوله المستنكرون والغاضبون.. ولكنى فقط سأقف طويلاً أمام عبدالناصر ليس الزعيم هنا ولكن الممثل.

لم يكن التمثيل غريبا على عبدالناصر وفى سنوات عمره الأولى ما يؤكد ذلك، ففى منزل متواضع بشارع الدكتور قنواتى فى حى باكوس بالاسكندرية يحمل رقم ١٨ ولد عبدالناصر فى ١٥ يناير عام ١٩١٨.. دخل روضة الأطفال فى حى محرم بك وبعد سنوات انتقلت الأسرة إلى أسيوط.. حيث ينتمى أبوه، وفى الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٣٠ انتقل الأب للعمل هناك.. وفى الخطاطبة وفى مدرسة السكة الحديد أكمل عبدالناصر تعليمه بين ٦٠ تلميذا كان يدرس نصفهم صباحا والنصف الآخر مساء.. بعد عام واحد أى فى ١٩٢٤ أرسله والده إلى القاهرة بعد وفاة والدته ليعيش مع عمه السيد خليل حسين الذى ألحقه بمدرسة النحاسين الابتدائية، وكانت المدرسة تقع فى قلب القاهرة الإسلامية بالقرب من مقابر سلاطين المماليك وتجاور حى الحسين وخان الخليلى.

ترك عبدالناصر مدرسة النحاسين الابتدائية بعد السنة الثالثة وأرسله والده إلى جده لوالدته السيد محمد حماد، الذى أدخله مدرسة العطارين التى نال منها الشهادة الابتدائية ثم عاد إلى عمه حسين ليلتحق بمدرسة رأس التين الثانوية.. وفى المرحلة الثانوية بدأت اهتمامات عبدالناصر السياسية وتفجرت قدراته التمثيلية.. فقد كان يحب المسرح، بل أصبح فى هذه المدرسة عضوا فى فريق التمثيل بمدرسة النهضة الثانوية الذى انتقل إليها عام ١٩٢٣ ومن بين ما يذكر أن عبدالناصر شارك فى مسرحية يوليوس قيصر التى قدمت على مسرح «برنتانيا» فى ١٩ يناير عام ١٩٣١.. ومن مفارقات القدر أن عبدالناصر أدى فى هذه المسرحية دور يوليوس قيصر. ويبدو أن دور يوليوس قيصر استهواه كثيرا.. فلم يتنازل عنه مطلقا فى حياته.. فقد أحب الزعامة وقدم لها كل ما أرادته منه.. ضحى براحته ورفاهيته من أجلها.. لم يكن يسرف فى الطعام ولا السهر.. لم تكن له علاقات بالنساء يمكن أن تحسب عليه، لم يتورط فى صفقات يمكن أن تكون مأخذا عليه بعد ذلك.. فقد أدرك منذ البداية أن الزعامة لها ثمن لا بد أن يدفعه.. وقد دفعه راضيا.. وقد جنى عبدالناصر ثمار ما دفعه وما قدمه، فحتى الآن مازال يطل برأسه رمزا للكرامة.. ويكفى أن تتأمل عينيه الثاقبتين وهو يخترق بهما جموع المظاهرات التى تحمل صوره وتتحدى به السيطرة الأمريكية والهيمنة الصهيونية على العالم العربى.

لم ينتظر عبدالناصر أن يتخرج ليمارس دوره السياسي.. فمنذ كان في المدرسة الثانوية بدأ هذا الدور، وفي ملفاته الخاصة هذا المشهد الدقيق: في صباح ١٢ نوفمبر عام ١٩٣٥ اجتمع تلاميذ النهضة الثانوية في فناء مدرستهم وأخذوا يهتفون تحيا مصر، ثم حملوا علم المدرسة وخرجوا يتقدمهم جمال عبدالناصر ومضوا إلى مدرسة فؤاد الأول الثانوية فانضم إليهم تلاميذها وساروا في مظاهرة ومروا بفندق شبرد وكان يجلس في شرفته بعض الانجليز، فوجد عبدالناصر نفسه يهتف «تسقط انجلترا» ثم تقدمت المظاهرة في اتجاه الجامعة لتنضم إلى الطلبة القادمين من الجيزة كان طلبة جامعة فؤاد الأول.. «القاهرة الآن».. وطلبة كلية الهندسة قد اجتمعوا في حديقة الاورمان المواجهة للجامعة قادمين عن طريق كوبري الروضة لأنهم علموا أن البوليس أغلق كوبري بولاق، كان كوبري الروضة به قسم متحرك يفتح في ساعات معينة من النهار لمرور المراكب الشراعية، فتحت الشرطة الكوبري وفصلت بين الطلبة والتلاميذ بثلاثين مترا من الماء، نزل جمال إلى الشاطئ واستأجر قاربا صغيرا وانضم إلى طلبة الهندسة في جزيرة الروضة.

مارس عبدالناصر التمثيل كهواية قبل أن يحترف العمل السياسي.. لكنه عندما أصبح في رأس السلطة احترف التمثيل أيضاً، فهناك الكثير من النقاط المشتركة التي تجمع بين السياسي والممثل، فكل منهما تقتله الرغبة في الشهرة.. وإن كان يفرق بينهما في حين أنه لا يهتم الممثل بأن يحظى باحترام جمهوره بنفس القدر الذي يحظى فيه بإعجابه.. فإن السياسي يحرص على أن يجمع الاحترام والإعجاب وربما الافتتان.. ولذلك لم يكن غريباً أن يستخدم عبدالناصر كل ما اتيح له من علاقات.. فقد أوحى إلى مصطفى أمين في أشهر الثورة الأولى أن يكتب مقالا عن الضباط التسعة الذين قاموا بالثورة وفعلها مصطفى.. لم يكتب فقط ولكنه نشر صورة عبدالناصر في الصفحة الأولى وحده.. وفي الصفحة الثالثة حيث نشر الموضوع أعاد نشر صورة عبدالناصر بحجم كبير والصور الأخرى بحجم أصغر.. وكان هذا كافياً ليعرف الناس أن عبدالناصر هو البطل الحقيقي في الثورة التي يقف على رأسها اللواء محمد نجيب.

أنكر عبدالناصر أنه كان وراء النشر عندما غضب الضباط الآخرون وأقنعهم أن مصطفى أمين تصرف من تلقاء نفسه.. وصدقه الضباط.. لكنهم كانوا يعرفون أنه كان وراء التعليمات التى صدرت للصحف والإذاعة بأن تخفف من نشر صور محمد نجيب وإذاعة كلماته فى الإذاعة.. لقد كان عبدالناصر واعيا لما يفعله.. فقد حركت شهوة الزعامة ليرسم الطريق كاملا.. يعتنى بكل تفاصيله، فالشهرة التى يحصدها محمد نجيب لا بد أن تؤثر على وجوده وشعبيته ولذلك لا بد أن يتدخل لإيقاف سيلها بكل الطرق.. ولأنه كان ذكيا بدرجة كبيرة فلم يظهر فى الصورة مطلقا.. ترك الأمور تسير فى نصابها حتى سقطت الثمرة فى حجره وحده.. فجناها كاملة.

إن عبدالناصر كان يحمل شخصية تحب الفن والفنانين.. لم يكن يحب التليفزيون كثيرا رغم أن ظهور التليفزيون ودخوله مصر كان عاملا حاسما فى تكوين كاريزمية عبدالناصر وأسطورته، فبعد أن كان الناس يسمعون صوته القوى فقط أصبحوا يسمعون صوته ويرون صورته ببنيانه الضخم المقتحم الذى ملأ على الناس أبصارهم وكيانهم فعظموه وأحبوه. ورغم ذلك فأنه كان يحب السينما وكانت قاعة العرض فى بيته هى مكانه المفضل فى ساعات الراحة.. كان مغرما بمشاهدة الأفلام الاجنبية وخاصة الأفلام الحربية ولا أستبعد أن الصور التى التقطت لعبدالناصر على مدار تاريخه كان يتم التقاطها بعناية شديدة.. وقد ظهر فى كثير منها وكأنه نجم سينمائى يعرف لغة الكاميرا جيدا وكيف يستعد لها.. وإلى جانب السينما كان عبدالناصر يحب الأغانى.. ومن بين برنامجه اليومى أنه كان يستيقظ مبكرا وفى طريقه إلى الحمام كان يدندن بأغنيات أم كلثوم التى كان أسيراً لها.. كانت أغنيات أم كلثوم جميعها مفضلة لديه.. ثم تأتى بعدها أغنيات عبدالوهاب.

ومن المفارقات العجيبة أن حنجرة أم كلثوم التقت بألحان عبدالوهاب لأول مرة فى أغنية «أنت عمرى» وهو التعاون الذى أطلق عليه الناقد جليل البندارى لقاء السحاب، وقد استمع عبدالناصر إلى هذه الأغنية من راديو سيارته وهو متوجه لاستراحة برج العرب.. يحكى خالد عبدالناصر كنا فى العادة نتبادل الحديث أثناء الطريق.. لزمنا الصمت، فالرئيس

يستمع لثومة على أنغام عبدالوهاب، هذه من المرات النادرة التى سمحت لنا الظروف أن نستمع مع والدى لصوت أم كلثوم، أبى كان يحفظ اللحن من أول مرة والكلمات بمجرد أن تجرى على حنجرة ثومة، وفى الخميس الأول من كل شهر كان يستمع بمفرده لحفلة ثومة المذاعة على الهواء مباشرة فى الغالب أثناء قراءة التقارير الرسمية والصحف وعندما لا تمكنه الظروف من سماع حفلة خميس ثومة، يطلب الشرائط من الإذاعة.

وهناك كذلك قصة إسماعيل يس مع أسرة عبدالناصر، لقد قدم إسماعيل سلسلة أفلامه فى أسلحة الجيش المختلفة بتعليمات من عبدالناصر، فقد شعر بحاسته الفنية قدر نجومية إسماعيل يس وأن الناس ستحب الجيش والتطوع فيه عندما ينقله إليهم عبر فنان محبوب، ويحكى خالد أنه ارتبط بعلاقة صداقة مع أسرة إسماعيل يس، فقد التحق ابنه يس بالمدرسة القومية فى مصر الجديدة عام ١٩٦٥ وكان خالد فى نهاية المرحلة الثانوية، بعد فترة قصيرة أصبحا صديقين يتبادلان الزيارات فى البيوت، تعرف خالد على إسماعيل يس عن قرب وتناول الطعام من يد زوجته، وعندما مر إسماعيل يس بمتاعب صحية لم يطلب أن يتدخل الرئيس لعلاجه.. ولما سأل خالد يس: لماذا لم يطلب والده أن يتدخل الرئيس.. قال له يس: إسماعيل يس مايعملهاش.

ورغم حب عبدالناصر للأفلام الأجنبية فإنه كان يشاهد الأفلام المصرية ليس فى العروض الخاصة فقط، ولكن فى السينما أيضاً، تم هذا فى البداية، فقد اصطحب ابناءه مرتين للسينما مرة شاهد معهم فيلما لأنور وجدى وفى المرة الثانية كان يعرض فيلم «لا أنام» بطولة فاتن حمامة ويحيى شاهين، وقال له ابناؤه «عايزين نشوف معاك فيلم فاتن حمامة يا بابا» دخلوا العرض فى حفلة السادسة بهدوء دون أن يلفتوا انتباه أحد، وبعد «لا أنام» لم يعد عبدالناصر يشاهد أفلاما سينمائية فى دور العرض العامة!

والآن نأتى إلى الممثل.. الذى كان يسكن تحت جلد جمال عبدالناصر.. لقد ظهر هذا الممثل فى عدة مشاهد أداها عبدالناصر ببراعة.. ولو جاءوا له بأعظم مخرج فى التاريخ ما كان ليخرجها بالصورة التى أخرجها ناصر..

المشهد الأول كان فى ميدان المنشية عندما أطلق عليه الرصاص. كان رد الفعل سريعا وموفقا.. لم يهتز.. حول الموقف كله لصالحه.. كان لا بد للممثل أن يظهر الشجاعة المطلوبة فى هذا الموقف.. ولم يظهر عبدالناصر شجاعة نادرة فحسب ولكنه ركب المشهد كله.. عندما قال: ليظل كل منكم فى مكانه.. فإذا مات جمال عبدالناصر فكلكم جمال عبدالناصر.. لقد أضاف هذا المشهد كثيرا لجمال وأكد أنه لا يرضى الهزيمة أو الاستسلام ببساطة.. وهذه كانت عادته.. ففى شبابه كان يلعب الشطرنج مع أصدقائه.. كان يخسر دائما ولا دور واحد فاز فيه، ذهب لدار الكتب قرأ كل كتب الشطرنج ودرس فنونه وأساليبه ولم يفز عليه بعدها أحد.

المشهد الثانى كان مسرحه الجامع الأزهر أثناء عدوان ١٩٥٦.. صعد جمال عبدالناصر منبر الجامع الأزهر وبصوته القوى أعلن أن الشعب المصرى سيقاتل حتى النهاية.. وإذا كان أحمد زكى قد أدى هذا المشهد فى فيلمه ناصر ٥٦ الذى كتبه محفوظ عبدالرحمن وأخرجه محمد فاضل، فإن يوسف شاهين لا بد وأنه استوحى منه مشهدا رائعا فى فيلمه المصير.. عندما صعد محمود حميدة منبر مسجد وكان يقوم بدور المنصور حاكم الاندلس.. ليخطب الناس بصوت قوى ويزف إليهم البشرى بأنه ليعلم الجمع ممن حضر مجلسنا أن الجنة آتية لا ريب فيها.. كانت قدرة عبدالناصر التمثيلية فائقة للدرجة التى جعلته لا يؤثر على جمهور الحاضرين فقط.. ولكنه أصبح موحيا للآخرين كما يستلهمون منه ما يقدمونه على شاشة السينما.

المشهد الثالث كان أثناء خطابه بعد النكسة الذى أعلن فيه تنحيه وأنه يتحمل المسئولية كاملة.. كان عبدالناصر قادرا على توصيل كل المعانى التى يريدها.. لقد جرب مع الناس أن يكون قويا وجبارا فاستجابوا له.. فليجرب معهم أن يكون منكسرا ضعيفا محطما.. فعلها ونجحت.. فى لحظات استجاب المصريون لنبرة الحزن والانكسار فى صوت قائدهم الكبير فطالبوه بألا يتنحى وألا يبتعد عنهم.. كانت لحظة عاطفية عاتية اجتاحت فى طريقها كل حسابات العقل والمنطق.. فرغم أنه قائد مهزوم لكن لا مانع من

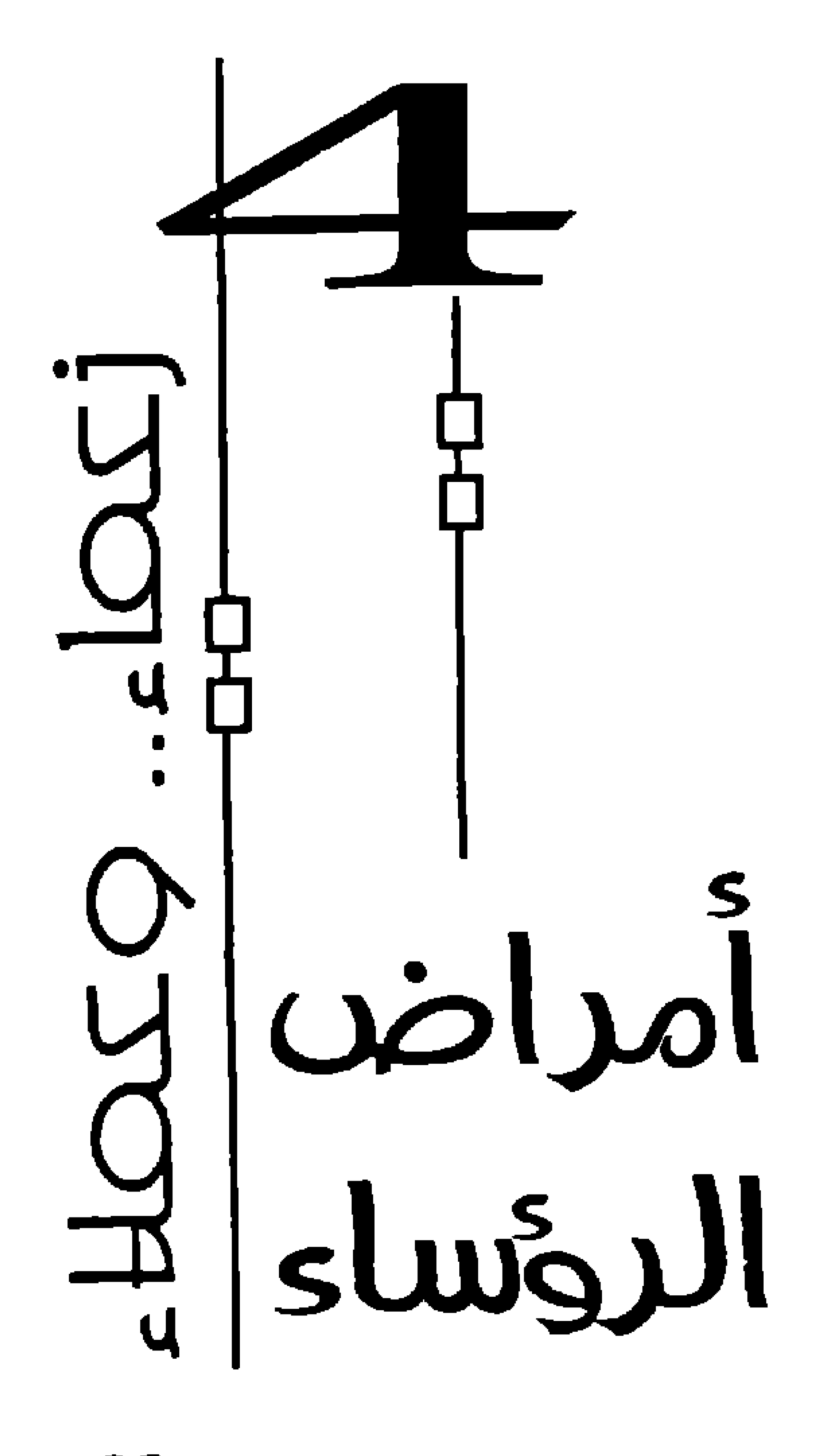
أن يبقى.. أما ما حدث وجرى على يديه.. فالله وحده هو الذى يتصرف فيه.. وهو منطق كان المصريون ولا زالوا يعيشون به وعليه.

لقد حجبت عبادة المصريين لعبدالناصر تأملهم فى جانب الممثل فيه.. وقد حاول نفسه أن يخفى هذا الجانب لأنه يعرف أن المصريين انطباعيين.. إننا نرى السادات ممثلا طوال الوقت لأنه حكى لنا عن حبه للتمثيل وعشقه له واستعداده فى فترة من الفترات لأن يصبح ممثلاً.. لكن عبدالناصر وحتى معلومة أنه أشترك فى فريق التمثيل بمدرسته الثانوية تجدها مهملة للغاية.. لم يلتفت إليها أحد لأننا لسنا على استعداد أن نصدق أن عبدالناصر ولو فى لحظات معينة كان يمثل ويتقن الدور رغم أن ذلك لا يعيبه ولا يسيئ إليه.

فارق اخر يفصل بين جمال عبدالناصر والسادات فعبدالناصر كان نجما.. أم السادات فكان ممثلا.

النجم يمثل دورا واحدا.. يقدمه فى كل أفلامه بتنويعات معينة.. لكنه فى كل مرة يؤدى نفس الحركات ولكن الممثل يؤدى فى كل فيلم دورا جديدا.. يتقمصه حتى النهاية.. لدرجة أنك تشعر فيها أنك أمام الشخصية وليس الممثل.. الحالة الأولى يمثلها عادل إمام فأدواره كلها تنويع على حالة واحدة.. والحالة الثانية يمثلها أحمد زكى فهو فى كل فيلم شخصية مختلفة تماما.. وهو ما حدث مع عبدالناصر والسادات.. عبدالناصر نجم.. قدم لنا دور الزعيم فى كل أيام حياته لكن السادات كان ممثلا يقدم لنا كل يوم دورا مختلفا ورغم أنه كان رئيسا يحكم دولة فإنه كان يؤدى أدوارا متناقضة ومتضاربة.. ما زلنا نعانى من آثارها حتى اليوم.

■■■


4
أمراض
الرؤساء

لم يصدق أحد أن جمال عبد الناصر مات إلا بعد أن رأى الجميع جنازته المهيبة، وأعتقد البعض أن الرصاصات التى اخترقت جسد السادات لن تنال منه ومؤكد أنه سينجو، وعندما لمت وعكة صحية بالرئيس مبارك استغرق علاجها أكثر من ٤٥ دقيقة أخذ الذهول الناس وكادوا يكذبون عيونهم.. حدث ذلك كله لأنه الناس لا يتصورون أن الرئيس يمكن أن يمرض.. فالحاكم أى حاكم يفرض على حالته الصحية أسوارا من العزلة يمنع بها تسريب أى أخبار عنها.. بل إن الأطباء الذين يعالجون الرؤساء يفرض عليهم ألا يتحدثوا حتى مع أقرب الناس إليهم عما يعرفونه، فصحة الرئيس قدس أقداس ليس من السهل اقتحامه أو الاقتراب منه!

ولذلك فإن أية أزمة صحية تلم بأى حاكم هى نزلة برد، وأى مرض يهاجمه ما هو إلا إرهاق عابر من كثرة العمل، وإذا حدث وسافر أى حاكم للاستشفاء فى أحد مستشفيات أوربا وأمريكا فهو فى رحلة عمل رسمية، هذا إذا تم الإعلان عنها من الأساس، فلا الناس تصدق أن الرئيس يمكن أن يمرض.. ولا الرئيس نفسه يحب أن تصبح حالته الصحية مكشوفة يردد الناس تفاصيلها فى جلساتهم الخاصة أو العامة.

إن من الطبيعى أن يمرض الرئيس أى رئيس وليس ذلك لأنه فى النهاية بشر مثلنا جميعا ولكن لأنه يتعرض لضغوط نفسية وعصبية رهيبة.. وهذه الضغوط تقف وراء كل الأمراض التى تصيب الرؤساء ليس فى مصر وحدها ولكن فى دول العالم.. فلا يسلم الرؤساء من أمراض الشرايين التاجية وأمراض القلب والذبحة الصدرية والجلطات وكلها

أمراض ترتبط بقوة بالحالة المزاجية لصاحبها .. فالتوتر الذى يعيش فيه الرؤساء والقلق الذى يحيط بهم وتداخل مواعيدهم وكثرة عملهم وقلة ما يحصلون عليه من راحة.. يؤدى بهم كل ذلك إلى حدوث ضيق وتصلب فى الشرايين.. بما يؤدى إلى تعطيل الشبكة الثانوية لشرايين القلب عن القيام بدورها فى تغذية عضلة القلب.. ويعطى هذا فرصة كبيرة لحدوث أزمات قلبية وذبحات صدرية متكررة.

توتر السلطة يقف كذلك وراء الإصابة بقرحة المعدة والاثنا عشر بالإضافة إلى اضطرابات القولون.. فالتوتر يزيد من نشاط الأعصاب الخاصة بإفرازات المعدة فيضعف الغشاء الواقى لجدارها فتحدث القرحة، وليس بعيدا عن ذلك أن يصاب الرؤساء بآلام فى الأمعاء وعدم انتظام فى الهضم.. وذلك بسبب عدم انتظام تناول الوجبات، فلديهم دائما مأدبات طعام تقام لتكريمهم أو يقيمونها لضيوفهم.

السرطان من أهم الأمراض التى تصيب الرؤساء.. وهو مرض ينتج فى النهاية بسبب خلل فى جهاز المناعة.. ولما كان جهاز المناعة لدى الرؤساء يتأثر بحالتهم النفسية والعصبية التى تخضع لتوترهم وقلقهم.. فإنهم يصبحون معرضون بشدة للإصابة بالسرطان، ولا يسلم الرؤساء كذلك من مرض السكر، فهو الآخر يرتبط بالقلق والتوتر.. كما أنه ينتج من التعرض لصدمات عصبية شديدة.. وفى رأى بعض الأطباء أن الرئيس جمال عبد الناصر أصيب بالسكر بعد صدمة هزيمة ١٩٦٧، وحدث له ذلك وكان وقتها لم يتجاوز الخمسين عاما من عمره!

كل هذه أمراض يمكن التعامل معها وتفهمها .. لكن هناك أمراضا تؤثر على قوى الرئيس العقلية.. وهذه لا يتم التسامح فيها. فالدستور فى كثير من الدول ينص على ضرورة عزل الحاكم إذا ثبت بالفعل عجزه عن إدارة مقاليد الحكم فى بلاده، وقد تم ذلك بالفعل.. ففى تونس تم تنحية الحبيب بورقيبة بسبب حالته الصحية وتولى الحكم زين العابدين بن علي، وفى الأردن تمت تنحية الملك طلال بسبب إصابته بمرض عقلى فى مايو ١٩٥٣ وتم تعيين ابنه الأمير حسين ملكا للأردن وكان عمره وقتها ١٨عاما فقط.

هناك عامل آخر قد لا يلتفت له الكثيرون.. وهو أن الحكام والرؤساء فى العالم العربى يصلون إلى الحكم فى المرحلة الأخيرة من حياتهم.. فمتوسط أعمارهم يكون بين ٥٠ و٦٠سنة.. وتمتد بهم السنوات فى الحكم حتى يصلون إلى ما فوق الثمانين عاما.. أى أن بعضهم يقضى فى السلطة أكثر من ثلاثين عاما.. فالملك حسين قضى فى حكم الأردن ٤٤عاما، والعقيد القذافى يمارس سلطاته فى ليبيا منذ عام ١٩٦٩ وحتى الآن أى منذ ٣٤عاما. وهى فترة كفيلة بأن تورث للحاكم كل أمراض الدنيا.

الملك حسين مثلا تدهورت صحته فى الثلاث سنوات الأخيرة من حياته.. فقد أصيب بسرطان الغدد الليمفاوية وبدأ يحصل على العلاج الكيمياوى بجرعات منتظمة، هذا غير العلاج بالإشعاع وهو ما تسبب فى سقوط شعر رأسه وذقنه وشاربه، لم يكن الملك حسين يخفى أخبار مرضه. بل إنه وبنفسه أعلن تفاصيله عام ١٩٩٢.. لكنه عندما أجرى عملية استئصال إحدى كليتيه التى أصيبت بورم سرطانى تكتم ذلك.. فقد كانت ظروف الأردن الداخلية لا تسمح بالحديث المفصل عن أمراض الملك.. ولذلك وقبل الوفاة بأيام فى فبراير ١٩٩٩ عاد إلى الأردن متحاملا على نفسه لينصب ابنه الأمير عبد الله كولى للعهد بدلا من شقيقه الأمير الحسن.

أما عن القذافى فقد ادعى معارضوه أن هناك تقريرا موقعا من عدد من الأطباء العرب يؤكد إصابته بمرض «الازما الوراثى العائلى» ومن أهم أعراضه الإصابة بنوبات حادة من ضيق التنفس مع ظهور أصوات ضيق كل مع شهيق.. وهو يتطلب العلاج بالإفيوفلين وهرمون الكريتزون.. وأسباب هذا المرض وراثية ولا علاقة لها بأى نوع من الحساسية، لم يترك القذافى الادعاء يمر عليه دون تعليق حيث أكد أنه لا يعانى من أى شىء غير عادى، لكن ما لم يستطع القذافى أن يخفيه هو ما أصيب به عام ١٩٩٤. فقد تساقط شعر رأسه بشكل يثير القلق وهو ما اضطره إلى تغطية رأسه بالعباءة الليبية المعروفة.. ولم يجد القذافى أمامه سوى أن يخضع لأول عملية زرع شعر فى صيف ١٩٩٤.. وقام بها جراح برازيلى اسمه منير خورى.. وفى عام ١٩٩٦ تعاون منير مع

القذافي في قيادة حملة على مصانع الشامبو العالمية التى تستخدم بيض الدجاج وتحرمه على الفقراء المحتاجين وذلك لإنتاج شامبو ومساحيق تضر بالشعر ونموه الطبيعى.

فى عام ١٩٩٨ تعرض القذافى لمحاولة اغتيال فى بنغازى قبل سفره إلى القاهرة.. وفى هذا الحادث أصيب قدمه ولزم الفراش لمدة طويلة داخل المستشفى، ووقتها قام الرئيس مبارك بزيارة سريعة إلى ليبيا للإطمئنان على صحة القذافى.

ليس معنى ذلك أن التقدم فى العمر شرط لإصابة الرؤساء والحكام بالأمراض، فتونى بلير رئيس وزراء بريطانيا والذى يبلغ من العمر خمسين عاما تحاصره الأمراض، وهذا ما كشفه متحدث باسمه.. حيث يعانى من آلام حادة فى معدته.. وقد هاجمته هذه الآلام بعد أن تماثل للشفاء من اضطرابات فى القلب.. وقد أجريت لبلير فحوصات عديدة للإطمئنان على صحته، ورغم أن بلير يمارس الحكم بطريقة تختلف عن الحكام العرب.. فإنه تورطه فى فضيحة العراق حاصره بضغوط عديدة أدخلته قائمة المرضى.

القائمة لاتزال طويلة ففى سوريا تعرض حافظ الأسد لعدة وعكات صحية.. لم يتم الإعلان عنها كالمعتاد.. وفى كل مرة كانت تكتفى الرئاسة السورية بأن الرئيس مصاب بالإرهاق.. كانت بعض وعكات حافظ الأسد تبعده عدة أيام عن وسائل الإعلام.. حدث هذا عام ١٩٩٩. وكانت هناك فرصة لانتشار الشائعات حول حالته الصحية.. ووجدها التليفزيون الإسرائيلى فرصة ليذيع تقرير عن صحة الأسد ختمه بتأكيد دخول الرئيس السورى المستشفى للعلاج من أزمة قلبية حادة.

لم تستسلم وسائل الإعلام السورية لتقرير التليفزيون الإسرائيلى.. وبعيدا عن المعلومات نشرت الصحف السورية صورة لحافظ الأسد وهو يبتسم للأمير عبد الله ولى عهد السعودية، وقام حافظ الأسد بنفسه ولتكذيب الشائعات باستقبال الأمير عبد الله فى المطار رغم أن البروتوكول السورى لا ينص على ذلك.. لكن صحة الرئيس السورى كانت أهم من البروتوكول وما ينصه عليه.

صورة الرئيس السورى فضحت المرض أكثر مما سترته.. فقد ظهر فيها حافظ الأسد شاحبا للغاية. ولذلك سارع جهاز الرئاسة السورى بإذاعة بيان يؤكد أن صحة الرئيس جيدة ولا أساس لما أذاعه التليفزيون الإسرائيلى.. وصرح وقتها محمد سلمان وزير الإعلام السورى أن كل الأنباء التى ترددت عن تدهور صحة الرئيس الأسد مجرد شائعات عارية من الصحة جملة وتفصيلا.

كان التليفزيون الإسرائيلى قد أسند معلوماته عن صحة الرئيس الأسد إلى مصادر مصرية، وهو ما جعل عمرو موسى وزير الخارجية وقتها يصدر بيانا يؤكد خلاله أن تقرير التليفزيون الإسرائيلى جزء من حملة تضليل حيث لم يصدر أى تعليق من مسئولين مصريين ولم يجر أى اتصال مع أى منهم حول صحة الرئيس الأسد، واعتبر عمرو موسى أن التليفزيون الإسرائيلى يستغل حالة الرئيس الأسد الصحية ليوقعوا بين مصر وسوريا، ووقتها استدعى عمرو موسى الملحق الصحفى الإسرائيلى فى القاهرة ليبلغه رسميا بأن هذا الأسلوب غير مقبول فى التعامل.

لا تخفى حالة عرفات الصحية على أحد.. فمظهره على شاشات التليفزيون يفضح كل شىء والغريب أن سها عرفات عندما سئلت عن صحة زوجها قالت: «الحمد لله. أبو عمار صحته جيدة وللدقة أقول إنها ممتازة» وعندما سئلت للمرة الثانية عن تفسير ما لارتجاف شفتيه فقالت: «أنها رجفة حميدة تبرز كلما أصيب أبو عمار بالإعياء والتعب.. ولكن عندما تتاح له فرصة الإستراحة من السفر بضعة أيام تختفى الرجفة».. هذه التصريحات التى تبدو غير دقيقة لا تمنع أن يكون عرفات من نجوم الرؤساء المرضى، تاريخه المرضى يعود إلى حادث سقوط طائرته فى صحراء ليبيا وإصابته فى رأسه وتمكن الأطباء بصعوبة من إنقاذ حياته، إلا أن الحادث ترك ذكرى أليمة تمثلت فى إصابته بارتعاش خفيف فى يده اليسرى وكذلك شفته السفلى.

وفى السعودية ظلت الحالة الصحية للملك فهد سر الأسرار، حتى فترة قريبة للغاية عندما تم الإعلان لأول مرة عن أن الملك فهد أجرى فحوصات طبية داخل إحدى

المستشفيات السعودية بسبب ألم فى المرارة.. كان الإعلان مفاجأة فهى المرة الأولى التى يصدر فيها بيان عن حالة ملك سعودى الصحية.. فرغم أن الملوك السابقين كانوا أصحاب تاريخ مرضى كبير... لكن ظل هذا التاريخ فى طى الكتمان.

الملك فهد تعرض لعدة وعكات صحية لم يعلن عنها بشكل تفصيلى.. ولم تحدد الأمراض التى أصيب بها.. رغم خطورة بعضها، ففى إحدى وعكاته الصحية فوض الأمير عبد الله رسميا لإدارة شئون البلاد، وفى عام ١٩٩٥ زار وفد طبى أمريكى ضخم الرياض لعلاج الملك فهد داخل مستشفى الملك فيصل.. ليظهر بعد ذلك أن من بين ما يعانيه الملك فهد مرض السكر والآلام الحادة فى الساقين وبعض الاضطرابات فى القلب.. هذا غير حاجته إلى تخفيض وزنه لأن السمنة التى يعانى منها تقلل من فرص نجاح علاجه.

أجرى الملك فهد عملية جراحية فى المرارة وأخرى فى الركبة.. ولم يعلن عنهما ولولا أن الفريق الطبى الأمريكى سرب ما لديه من معلومات عن صحة فهد إلى الصحف الغربية ما كنا عرفنا شيئا عما دار فى غرف مستشفيات السعودية المغلقة.. ويبدو أن هذا قدر الشعوب العربية.. فشعوب العالم كلها تعرف أدق أسرارنا وأسرار حكامنا.. ونكون نحن مثل الزوجة التى دائما تكون آخر من يعلم!

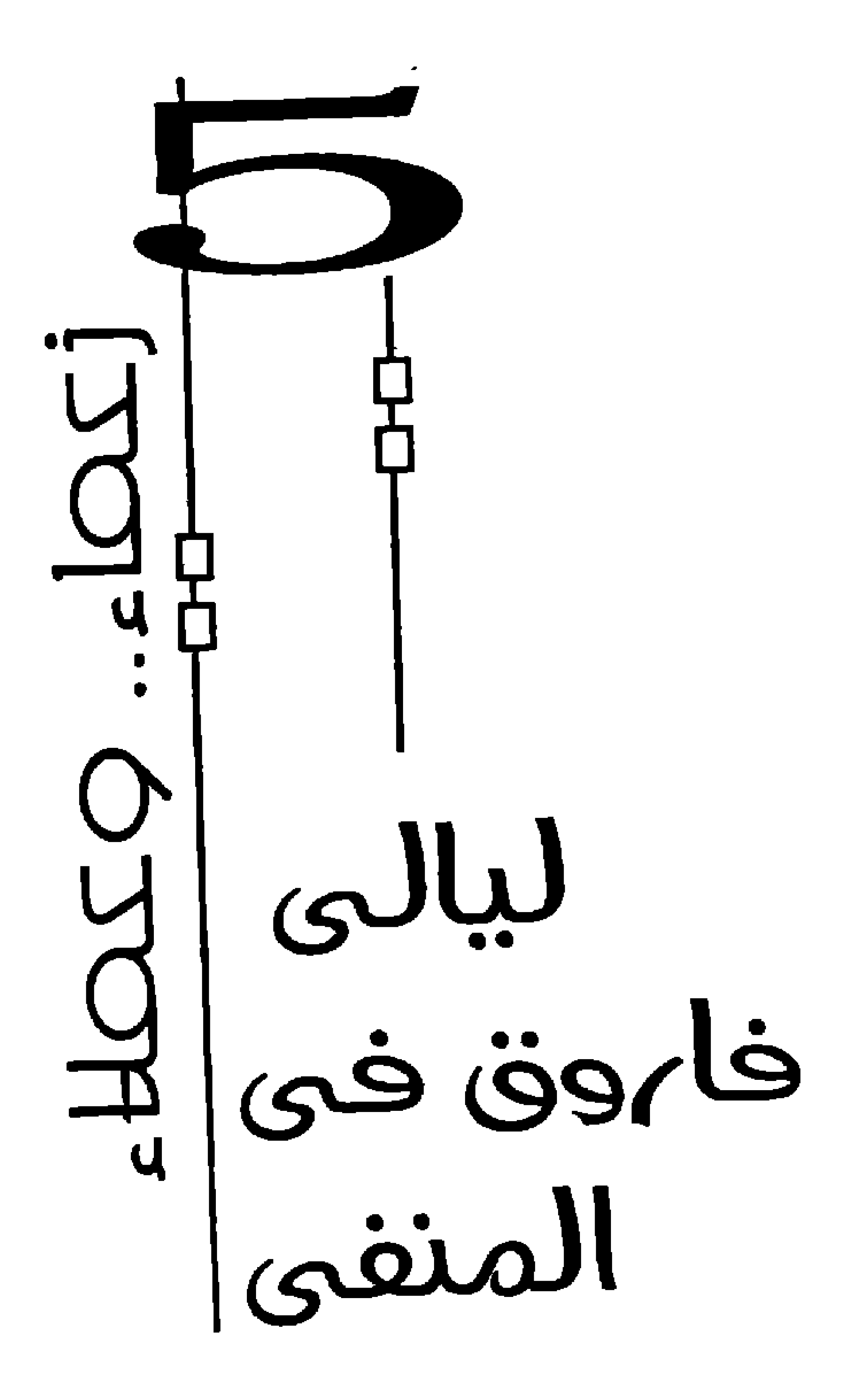
ومن السعودية إلى قطر فالشيخ حمد بن خليفة آل ثانى يعانى من متاعب مزمنة فى الكلى اضطرته إلى الذهاب إلى أمريكا لزرع كلية.. وقد أجرى عملية جراحية لذلك وتم بنجاح عام ١٩٩٧.. ورغم متاعب أمير قطر الصحية فإنه يواصل عمله بدأب.. فولى عهده ونجله الشيخ جاسم بن حمد يعانى من «اللوكيميا» سرطان الدم.. ولا يكف عن التردد على مستشفيات الولايات المتحدة الأمريكية من أجل العلاج.

فى الكويت لايشك أحد فى حالة أمير البلاد الصحية.. لكن الجديد أن ولى عهد الكويت الشيخ سعد الصباح يعانى هو الآخر من متاعب صحية عديدة، ومنذ عدة سنوات أصيب بغيبوبة وتم نقله إلى المستشفى الأميرى ومنها إلى لندن التى مكث فيها أكثر من

اربعة شهور للعلاج والنقاهة ثم عاد بعدها إلى الكويت دون أن يعرف أحد.. تفاصيل مرضه الذى أصيب به.. وكانت المعلومة الوحيدة أنه أجرى جراحة فى القولون بعد أن عاد الشيخ سعد إلى الكويت حدث صراع بينه وبين أعضاء البرلمان الكويتى انتهى بإعادة تشكيل الحكومة وتهديد الشيخ بحل البرلمان.. هذا الصراع أرهق الشيخ سعد بشدة.. وكان طبيعيا بعدها أن يتم الإعلان عن سفر الشيخ سعد إلى لندن لإجراء فحوصات طبية واستكمال العلاج.

المشهد السياسى العام يؤكد أن الرؤساء العرب فى النهاية بشر يمرضون ويعانون ولا يريدون أن يكشفهم أحد.. لأن ثقافتنا الشرقية تقول إن المرض أو الحديث عنه عيب، وقد يصح هذا مع البشر العاديين.. لكن الحكام الذين ترتبط مصائرنا بحالتهم الصحية.. فلابد أن نعرفها وبالتفصيل.. فمن حقنا أن نعرف على الأقل نعرف!

■■■


5
ليالى
فاروق فى
المنفى

فى إحدى ليالى صيف ١٩٤٦.. وكان الملك فاروق يقيم فى الاسكندرية، وجد نفسه فى حالة ملل، فأمر الحرس الملكى أن يبتعد عنه، وقرر أن يمشى بمفرده فى المدينة، بعد قليل وجد نفسه على كورنيش البحر، فأوقف عربة حنطور وطلب من العربجى أن يتمهل.. وفجأة فتح الملك حواراً مع العربجى، قال له: إيه رأيك فى الملك فؤاد؟ فرد العربجى: الله يرحمه كان ابن كلب، فسأله الملك بلهفة: وابنه، فقال العربجى بثقة: ألعن منه.

لم يعرف فاروق ماذا يفعل بالعربجى.. هل يضربه؟ هل يجره إلى القصر ويذيقه ألوانا من العذاب، قرر الملك أن يترك صاحب الحنطور فى حاله، لكنه لحظتها أدرك أنه يجب أن يترك مصر ويرحل، لقد سمع بأذنه كراهية البسطاء له وبغضهم لأبيه فقرر الفرار، وبدأ فى تأمين نفسه، أخذ يحول أمواله وسبائك الذهب إلى سويسرا.. حتى يرحل وهو مطمئن البال مرتاح النفس.

تكررت محاولات فاروق للهرب، قيل إنه فكر فى الفرار بطائرة هليكوبتر يوم حريق القاهرة، وقيل إنه فكر فى تجهيز اليخت «فخر البحار» بكل ما هو ثمين، ويأخذ أولاده، تحت زعم أنه طالع رحلة بحرية.. ثم يذهب ولا يعود، كلها كانت محاولات لم تتم، سبقه إليها الضباط الأحرار بقرارهم بطرده من مصر بعد تنازله عن العرش لابنه أحمد فؤاد، لقد قال فاروق لمحمد نجيب وهو يودعه على يخت المحروسة: أنتم سبقتمونى بما فعلتموه إلى ما كنت أريد أن أفعله.

كان كلام فاروق غريباً.. وقد حيرت عبارته الغامضة رجال الثورة والمؤرخين من بعدهم، فلا أحد يعرف ربما حتى الآن، هل كان الملك مثلاً سيتنازل عن العرش، أم أنه تأخر فى القبض على الضباط الأحرار، فسبقوه فى لعبة القط والفأر التى لعبوها معاً!

فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وقع الملك فاروق على وثيقة تنازله عن العرش.. كان نص الوثيقة التى صاغها د. عبدالرازق السنهورى رئيس مجلس الدولة ونائبه سليمان حافظ كالتالى: نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان.. لما كنا نتطلب الخير دائماً لأمتنا ونبغى سعادتها ورقيها، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ونزولاً على إرادة الشعب، قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا إلى حضرة المقام على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء بمقتضاه.

وقع فاروق على وثيقة التنازل دون مقاومة تذكر، كانت له بعد الشروط الشكلية فقط، فقد اشترط أن يأخذ معه ابنه الملك الرضيع الذى كان عمره ٦ أشهر وعشرة أيام و ٤ ساعات فقط، وأن تسافر معه زوجته وبناته، وأن يكون السفر على يخت «المحروسة»الذى بنى سنة ١٨٧٠ وأعيد إصلاحه فى سنة ١٩٤٦ وتكلف مليون دولار وأصبح اسمه فيما بعد الحرية، وطلب فاروق أن يودعه محمد نجيب شخصياً، وأن يكون وداعه رسميا، فتؤدى له التحية الملكية، وتطلق المدفعية ٢١ طلقة، كانت الشروط تافهة.. ولذلك استجاب لها مجلس قيادة الثورة جميعا، رفض المجلس فقط شرط الملك أن تصحب يخت المحروسة حراسة من المدرعات حتى المياه الإقليمية..

كان هناك شرط واحد طريف أملاه فاروق، ونفذ له دون أن يلتفت له أحد، أصر الملك على أن تكون وثيقة التنازل عن العرش مكتوبة على ورق فاخر مناسب وبصيغة تحفظ كرامته، كتبت الوثيقة على الورق المطلوب، وعندما ذهب سليمان حافظ ليحصل على توقيع الملك، قال له فاروق: ألا يمكن إضافة كلمة «وإرادتنا» بعد عبارة ونزولاً على إرادة الشعب، فرد عليه سليمان قائلاً: يا مولاى لقد وضعنا نزولكم عن العرش فى صورة أمر ملكى..

فهم فاروق ما وراء كلمات سليمان حافظ وأنه لا يريد أن يجرح شعوره، فوقع فى ذيل الوثيقة كالمعتاد.. ولكن التوقيع جاء مضطرباً.. فوقع فاروق توقيعاً ثانياً.. وكأنه لا يريد أن يترك القلم، فقد كان يعرف أنه عندما يترك القلم سيكون قد فقد عرشه للأبد.

انتهت أيام فاروق فى مصر.. ويأتى المشهد بسن قلم أحمد بهاء الدين.. قال: مضت ساعات عصر اليوم الأخير فى حياة فاروق ثقيلة وبطيئة، لم يخل فيها الملك السابق إلى جناحه الخاص إلا قليلاً، أما أكثر الوقت فقضاه سائراً على قدميه فى ردهات القصر، أو واقفا عند النافذة أو تحت هذه الصورة، ورأى الحقائب الكثيرة تحمل إلى يخت «المحروسة» فقال: إيه الشنط دى كلها؟ فقيل له: إنها طعام للرحلة.. فقرر بتأفف: أنا مش عاوز عفش كثير.. خذوا لى بدلتين خفاف بس!

كان عدد الحقائب التى خرجت من قصر فاروق ٢٢ حقيبة فقط، وهو رقم على مسئولية أحمد بهاء الدين الذى رفض ما نشرته الصحف عن أن عدد الحقائب هو ٢٠٠ بالتمام والكمال، ولكن على ما يبدو أن أرقام بهاء والصحف لم تكن صحيحة، فقد سجل أمين فهيم سكرتير فاروق فى المنفى فى مذكراته أن الشنط التى جاءت مع فاروق كانت ٢١٧ شنطة وأنه أحصاها بنفسه.

نعود مرة ثانية وأخيرة إلى رواية أحمد بهاء الدين يقول: وصل اللواء محمد نجيب متأخراً، فقال له على ماهر: ده مشى خلاص، ولكن نجيب أصر على أن يودعه، وأحضر له قارباً ركبه وصعد إلى المحروسة، وكان الملك السابق واقفا عند رأس السلم، وتصافح الغريمان، وكان الواقع الماثل أمام الملك السابق أقسى من أن يتحمله، فأثارته عصا فى يد ضابط يقف إلى جوار نجيب «الضابط هو جمال سالم»، فطلب فاروق من الضابط أن ينكسها، لم يجب الضابط ولم ينكس عصاه، ومر الملك السابق بهذا الواقع الجديد وكأنه لا يلاحظه، ثم نزل نجيب عائداً على الشاطئ، تحركت المحروسة يودعها غروب الشمس وغروب فاروق الطويل.. الذى كان غروباً بلا شروق.

ظل هذا المشهد هو آخر ما نعرفه عن فاروق فى مصر، وتوقف الذين كتبوا عن سقوط فاروق والملكية من ورائه عند لحظة خروجه هو وزوجته وبناته وبعض أفراد

حاشيته إلى منفاه فى إيطاليا واعتبروا ذلك المشهد الأخير.. لم يرصد أحد الملك المطرود فى منفاه.. ماذا فعل.. كيف كان يعيش أيامه ويقضى لياليه.. لم يهتم أحد بمتاعب فاروق وفضائحه.. هل كان يخطط للعودة مرة أخرى إلى مصر.. أم هده العجز وأضناه التعب.. فكف عن مجرد التفكير فى العرش الذى انهار والملك الذى ولى..

نزل الملك فاروق من يخت المحروسة وهو يرتدى بدلة بنية اللون، وإلى جواره زوجته ناريمان ترتدى فستانا لونه بنى أيضاً، وكان أول ما قاله فاروق بعد أن صافح عبدالعزيز بدر سفير مصر فى إيطاليا، خرجنا من مصر بالهدوم اللى علينا، لحظات وجاء قارب بخارى صغير ليحمل فاروق وناريمان والأولاد والحاشية إلى جزيرة كابرى، وقبل أن يصل فاروق إلى الشاطئ خلع حذاءه وصلى ركعتين شكراً على النجاة.. ولكنه سرعان ما واصل أشهر هواياته فى مطاردة النساء بمجرد استقراره فى فندق «بارادیزو» بكابرى.

الخطوة الأولى فى عالم ملذات المنفى يصفها أمين فهيم.. كان فاروق يجلس فى بهو الفندق، ولم تمض على جلسته لحظات حتى دخل بواب الفندق وتقدم إلى فاروق حاملاً على صينية من الفضة مظروفاً عليه اسم «اليخت - اليانورا» فض فاروق المظروف وقرأ الرسالة بسرعة ثم قال لسكرتيره: دى رسالة من أصدقاء أعرفهم من زمان، ويقولون إنهم جاءوا خصيصاً إلى كابرى لتقديم احتراماتهم.

طلب فاروق من سكرتيره أمين أن يبعث لأصدقائه رسولاً يبلغهم بأنه سيزورهم على اليخت بعد ساعتين.. فسأله أمين: هل يأذن مولاى أن أبلغ الملكة ناريمان كى تستعد هى الأخرى للزيارة.. لم يجب فاروق.. لكنه تجهم وقال فى عصبية: لا لا يا سيدى لازم تعرف من دلوقت إن الملكة مش مفروض تنط معانا فى كل حتة!

وصل فاروق إلى اليخت، كان صاحبه ينتظره مع صديق له اسمه «الكونت بولاسكى»، رحب الاثنان بفاروق، ثم اتجهوا إلى صالون صغير وجلسوا يدخنون السيجار، ولم تمض سوى دقائق حتى فتح باب الصالون، لتظهر فتاة عيونها سوداء وشعرها فى لون الكستناء، كان اسمها «جابى نيج» من بلجيكا.. وما إن رآها فاروق حتى انصرف تماماً

عن صاحبيه، التفت إليها بكل حواسه، وراح يسدد إليها نظراته التمثيلية المعروفة، التى كان يتظاهر بأنه رجل ذواقة خبير بجمال النساء.. غرق فاروق فى غزل جابى ونسى خلال ساعات المنفى الأولى ما جرى له فى مصر، فقد اندفع نحو النساء والطعام وكأنه لا يزال ملكاً.. أو كأنه لم يتعرض إلى أشد المواقف العصيبة فى حياته قبل أيام تعد على أصابع اليد الواحدة.

أضاف فاروق إلى هوايته فى مطاردة النساء.. هواية أخرى وهى تسجيل علاقاته النسائية فى مفكرة خاصة وصفت بأنها مفكرة الغرام، سجل فيها المعلومات الأساسية عن حريم المنفى، وعكست هذه الهواية إحساساً هائلاً بالملل والفراغ، ففى كل مساء كان يتوجه بسيارته إلى روما حيث يتناول عشاءه فى كافيه «دى بارى» وهى قهوة مفتوحة فى الهواء الطلق بها مطعم داخلى مغلق، وبعد العشاء كان يتردد على النوادى الليلية بمختلف مستوياتها، فقد كان زبونا شهيراً فى «جيكى كلوب» وهو كباريه تحت الأرض فى أحد سراديب روما القديمة، و«أوبن جيت» وهو من أرقى النوادى الليلية يتردد عليه صفوة القوم، و«البيجال» وهو ملهى ليلى متوسط المستوى، بالإضافة إلى علب الليل الرخيصة المنتشرة فى شارع «فينيتو» أو شارع الدعارة الذى انتعش بدولارات جنود الجيش الخامس الأمريكى بعد الحرب العالمية الثانية.

كان لفاروق طقوس خاصة فى التعامل مع النساء عندما يأتى بهن إلى البيت، كان يتصل بخادمه تليفونياً ليتخذ التدابير اللازمة لاستقبال الضيفة، وكانت هذه التدابير تختلف باختلاف المرأة، وتتغير حسب الوقت الذى قرر أن يقضيه مع الصيد الثمين، فإذا كانت المرأة ستقضى ليلة واحدة فإن التدابير تقضى إعداد مائدة صغيرة أمام حجرته عليها بعض الأطعمة، وكان فاروق يستعد استعداداً خاصاً لنسائه، كان يدلك وجهه ورأسه بعطره المفضل «ياردلى» ثم يرش العطر على مفرش السرير والسجادة ويقوم بعد ذلك إلى صيدليته فى الحمام المجاور لغرفة النوم، حيث يحتفظ بعدد من المركبات الطبية والوصفات البلدية التى يدخل فى تحضيرها العسل النحل. وإذا كانت المرأة ممن

عـرفـهن عن طريق وسـيط أو وسـيطة، فـإن فـاروق كـان يحـرص على أن يدعـو من باب المجـاملة من كان له الفـضل فى عملية التـعارف، ووقـتهـا كان يوفـد الطبـاخين والخـدم فى أى ساعة مـن ساعات الليل لإعداد مـأدبة تليق بالمناسبة السعيدة، وإذا كانت الضيـفة من ساحات الليل أمر فى سـاعة مبكرة من الصباح بتاكسـى يحملهـا من بيته إلى المدينة، وكان يدفع لها أجراً يتـراوح بين العشرين والخمسين جنيهاً، أما إذا كانت من النوع الممتاز فإنه يستقبلها لتتناول مـعه طعـام الفطور والغداء ثم يأمر بسيارته الخـاصة لتوصيلها، وكان يدفع للمـرأة من هذا النوع مـبلغاً يصل إلى مـائة جنيـه ويعطيهـا هدية تقليـديـة من التى يحتفظ بعدد كبير منها، كأن يعطيها فم سجائر من الذهب أو خاتما أو بروشاً..

لم يكن فـاروق يستقـبل كل نسائه فى بيتـه.. ومن بين مـا يذكر عن أيامـه فى المنفى أنه استأجـر شقة جرسونيـرة فى شـارع برونويوتس، وكـانت تقع فى الدور الثـالث وتتكون من حجرتى نوم وصالون وحمام وإيجارها الشهرى ٢٥٠ جنيهاً.

كانت أولى عشيقـات فـاروق فى المنفى شقـراء أمريكية اسـمهـا «دورى» أخذهـا فـاروق صـديقهـا عـازف البيـانو الذي كـان يتكسب قـوته من العزف أمـام رواد الملاهـى الليليـة، احتقـرته «دورى» فى البداية، وصفتـه بالسمين السخيف، ولكن هداياه التى أغرقـها بهـا جعلته فى عينيهـا رشيقاً خفيف الظل، على أن ليالى الغـرام لم تستـمر طويلاً، فـبعـد أن حصلت من الملك الولهان علـى ثمن سيارة، حملت أكوام الهـدايا وسافرت إلى باريس دون أن تودع فاروق بكلمة واحدة، كل ما تركته له كانت صورة كبيرة لها وهـى نصف عارية.

راحت «دورى» وجاءت «إيرمـا» فتـاة رشيـقة حلوة جذابة عمـرها ١٨ سنة رآهـا فـاروق فى مسابقـة للجمال بعد دقـائق من الفحص استقـرت فى مزاجه وقرر أن يحصـل عليها.. خسرت إيرما المسـابقـة فـاحتج فـاروق.. وبعـد تبـادل جـمل قصـيـرة أقنعته أنهـا من أسـرة عريقـة لا تقل عن عـراقـة أسـرته، أحبهـا بجنون.. وقـرر أن تقيم معـه فى بيتـه على بعد أمتار قليلة من بناته.. وقد ساعدته الظروف.. فقد تركت له ناريمان البيت بعد أن طلبت الطلاق.

عاش فاروق مع إيرما حياته كما أراد حتى بعد أن اكتشف أنها بنت سائق تاكسى فقير يعيش مع أمها فى إحدى حوارى نابولى، وكان أقصى ما يمكن أن تصل إليه أن تكون عاملة فى محل بقالة أو فى مطعم بيتزا أو فى بار رخيص.. وفى يوم استضاف فاروق أخته فايزة على الغداء، جلست فايزة على يسار فاروق، وجلست إيرما على يمينه، وبعد الغداء قالت فايزة: أنا شايفة إنها مؤدبة وبنت ناس، فأخذتها ابنة فاروق الكبرى فريال من يدها لتطل من نافذة حجرتها التى تكشف شرفة فاروق، فرأت فايزة شقيقها وإيرما وهما عاريان تماماً فقالت فايزة: «دى مش مؤدبة دى سافلة وبنت ستين كلب.. ثم قالت فى أسف.. هى مالهاش أهل يسألوا عليها..»

من رافقوا فاروق فى منفاه أكدوا أن ذوقه فى النساء تدهور كثيراً وهو نفس ما حدث فى مستواه فى القمار، فكثيرا ما كان الملك المعزول يتردد على كازينوهات القمار الصيفى، القريبة من ميدان «بابربرينى».. تراجع مستوى فاروق فى اللعب لأنه كان يقامر بأمواله فلا داعى للمجازفة، كذلك فهو كان يقامر كشخص عادى وليس كملك، ففى مصر كان الأثرياء يتعمدون أن يخسروا أمامه ليحققوا مطالبهم بعد ذلك، كانت الخسارة أمام فاروق رشوة سامية الأسلوب، لم يكن فاروق وهو فى صالات إيطاليا يغش فى اللعب كما كان يفعل فى مصر عندما كان الغش أبرز صفاته فى لعبة البوكر.. ولذلك كان يقامر بنقود قليلة، كما كان يراهن كل أسبوع فى ملاعب كرة القدم الإيطالية، والكثير من وقته - خاصة فى الصباح - كان يبدده فى إحتساء عصير الفواكة من الماكينات التى تقدمه بمجرد أن تضع فيها الليرات المعدنية.

أصبحت حياة فاروق بلا طعم.. وكان من الطبيعى أن تصبح حياة زوجته ناريمان بلا طعم أيضاً، فقد فضلت ناريمان الابتعادعن فاروق بعد أن عجزت عن احتمال تصرفاته الشائنة، لقد كانت تحتمل نزواته من أجل أن تظل ملكة على العرش، ولكن العرش لا وجود له الآن، فأصبحت نزواته بلا مقابل.. ولذلك انفجرت المشاحنات بينهما سريعاً وفور استقرارهما فى روما، ووصلت إلى حد إهانتها أمام الخدم والمربيات.. كان يقول

لها «أنت جزمة فى رجلى».. ثم زادت الإهانات حتى وصلت إلى مستوى الضرب ضربها مرة بقبضة يده، فسقطت على الأرض فاقدة الوعى، وكادت تموت من الصدمة بسكتة قلبية، لولا أن سارع طبيب الضاحية لإنقاذها، وقد ذهل الطبيب وسيطرت على ملامحه الدهشة، ثم حل محلها الاستنكار، ثم خرج وهو فى حالة قرف، فقد كانت هذه المرة الأولى فى حياته التى يسمع فيها أن ملكاً ضرب ملكة.. علقة.

اضطرب فاروق عندما فقدت ناريمان الوعى.. لكنه شعر بنشوة خاصة بعد أن افاقت، ووجد سكرتيره أمين فهيم أن الملك سعيد بما حدث، بل سمع منه محاضرة طويلة عريضة عن ضرب الزوجات قال له «لعل ناريمان تستفيد من هذه العلقة.. إننى اردت أن أعطيها درساً، أظن أن هذه الضربة سوف تؤدبها، أحسن طريقة لمعاملة الزوجة أن تضربها علقة، ألا تعرف أن أولاد البلد يضربون عرائسهم علقة ليلة الدخلة بغير سبب، ذلك لإشعار العروس أنها خادمة الزوج، ويبدو أن جو الأستاذية أخذ فاروق فأضاف: أنا لو كنت ضربت فريدة علقة يوم الزفاف لما حدث الطلاق، ولكانت زوجتى حتى الآن، ولو أننى ضربت ناريمان ليلة الزفاف لمشت مثل الكلبة، ولكنى غلطت أننى عاملت ناريمان وفريدة كملكات فشعرت كل منهما أنها مثلى تماماً.

بعد أن أفاقت ناريمان من الضربة الموجعة، تحدثت إلى أمين فهيم، كان وجهها متورماً وعليه آثار الضرب الشديد، وكانت فى يدها مرآة تنظر إليها لترى آثار الرضوض فى وجهها، قالت وهى تنتحب: يصح يا أمين إن الملك يضربنى زى أى واحد فى الشارع ما بيضرب مراته، يصح إنه كان ح يموتنى، كنت حاروح فى شربة ميه، أنا مش ممكن أقعد معاه لازم أمشى لازم أسافر، ثم أفصحت ناريمان عما ستفعله قالت: أنا راح أوديه فى داهية قبل ما يودينى فى داهية، طلب سكرتير الملك من الملكة أن تهدأ .. فأجابته بأنها يمكن أن تهدأ بشرط أن يدفع لها الملك ثمن العلقة.. وبسرعة حددت الثمن وهو ١٠٠ ألف جنيه.

فوجئ فاروق بالمبلغ ورفض أن يدفعه، وتصور أن الاعتذار لناريمان يكفى، لكنها لم تقبل الاعتذار، وأصرت على المبلغ، وهددته بالفضيحة، فقبل أن يدفع ألف جنيه، ثم

رفع المبلغ إلى ٢٠ ألف جنيه، فهزت ناريمان كتفيها وقالت: أنا ما بيعش ترمس. وأضافت: مائة ألف جنيه يعنى مائة ألف جنيه.. هذه فرصتى الوحيدة الآن، ولو لم أستغلها فسيجئ اليوم الذى يطردنى فيه من البيت، يجب أن أفكر فى مستقبلى من الآن، أنا أريد أن أخرج من هنا لأشحت فى الشوارع، لا بد أن يدفع المائة ألف جنيه.

استسلم فاروق، ووافق على دفع المبلغ المطلوب، وحول من حسابه إلى حساب ناريمان فى أحد البنوك السويسرية ١٠٠ ألف جنيه، لكنه قال وهو يوقع بإمضائه على خطاب التحويل: هذه عقلية كباريهات لا عقلية قصور، يا سلام.. مائة ألف جنيه من أجل علقة؟ إن هذا تفكير راقصة لا تفكير ملكة..!

هدأت الأمور بين فاروق وناريمان بعض الوقت.. وفى ليلة أصر على اصطحابها للسهر فى ملهى «أوبن جيت» أكثر الملاهى الليلية أرستقراطية فى روما.. كان فاروق فى أفضل حالاته يتعامل معها برقة وشياكة، لم يغازل راقصة، لم يحتك بامرأة، لم يعبث بما حوله، ودهشت ناريمان، وأحست بالثقة ورد الاعتبار.. فتعمدت استعراض نفسها وقامت لتمر بين الموائد، وفجأة ضج المكان بالضحك، ولم تعرف السبب إلا بعد أن اكتشفت فى مرآة الحمام أن فاروق علق على ظهرها ورقة مكتوب عليها باللغة الإيطالية «ناريمان جارية فاروق»..

كان لا بد أن يقع الطلاق.. قضت ناريمان فترة فى سويسرا وعندما عادت إلى إيطاليا كانت معها أمها حماة فاروق، بدأت الحماة الكلام قالت لفاروق: لا تؤاخذنى يا مولاى.. نفرض لا سمح الله جرى لك حاجة مفيش ضمان لبنتى فى المستقبل، ثار فاروق ورد عليها بعنف قال لها: أنا لا أسمح بهذا الكلام.. كل كلامك أنت وبنتك فلوس، عاوزين بس فلوس، وفى هذه اللحظة استدعى فاروق سكرتيره أمين فهيم وقال له: يا أمين شوف الولية دى عايزه إيه.. اتكلم معاها!

انتهت المفاوضات بطلاق ناريمان وأصر فاروق على أن تسافر ناريمان وأمها بلا وداع، واستقلا سيارة تاكسى من القصر إلى المطار، وعندما ذهبت تودع ابنها، وجدت المربية

والحارس الألبانى فى حجرته، وبقيا حسب تعليمات فاروق وهى تودعه، ولم يبد على الولد أنه يعرف أن أمه سوف تفارقه إلى الأبد.. فظل يلعب ويضحك.. ولم يكن فى عينى ناريمان أية دموع.. لا على طلاقها ولا على فراق ابنها.

وكما اضطربت حياة فاروق العائلية.. اضطربت حياته السياسية، ففى خلال إقامته بكابرى جاءت موافقة الحكومة الإيطالية على منحه حق اللجوء السياسى، وفى المقابل تعهد إليها بألا يقوم بأى عمل يحمل معنى النشاط السياسى.. حاول فاروق أن يخرج عن هذا التعهد.. لكنه لم يحقق شيئاً يذكر، فعندما وصله نبأ إعلان الجمهورية فكر لأول مرة فى العمل ضد الثورة، ولكنه لم يكن بارعاً بما فيه الكفاية، فوقع فى شرك عدة نصابين من محترفى اصطياد الثروات، أوهموه أنهم سيعيدون الملكية إلى مصر والعرش إلى أسرته.

كانت المحاولة الأولى للعودة على يد شخص يدعى فيليب حنا، اتصل بالملك فاروق ليشرح له خطة إعادته إلى مصر، كانت الخطة تقوم على أن ينقل فيليب إلى الغرب صورة فوضى النظام الثورى فى مصر، ثم يطلب من انجلترا التدخل لحماية الأقليات فى مصر، وفى المقابل كان الثمن المطلوب لتنفيذ الخطة هو عشرة آلاف جنيه.

وفى صيف ١٩٥٤ اتصل صديق قديم لفاروق من جنيف، وطلب منه توحيد الجهود بينه وبين الصحفى المصرى محمود أبوالفتح طريد الثورة والذى تفرغ فى سويسرا للهجوم عليها، كان هذا الصديق يحمل الجنسية الهندية، وقد وافق فاروق على الفكرة وكان الطلب الأول لتنفيذ الخطة أن يدفع فاروق ١٠٠ ألف جنيه، وفى كل مرة كانت تعرض خطة من هذه العينة على فاروق كان يسرح بعيداً بخياله ويفرط فى الحديث عما سيفعله لو استرد العرش، أصيب فاروق فى هذه الفترة بانفصام فى الشخصية، فهو يلعب القمار ثم يصلى، ويختفى مع عشيقته إيرما فى مكان بعيد ثم يعود ليبدأ فى الصوم، أصبح لا يعرف الصواب من الخطأ، وأصبح يندم على الخطيئة ثم يعود إليها.

وظل هكذا حتى جاء يوم النهاية، فى ١٧ مارس ١٩٦٥، ضرب النعاس عينى إيرما مينو تولو عشيقة الملك فاروق.. وملكة المنفى، فى تلك الليلة مر عليها فاروق ثم تركها

ليذهب مع صديقتها آنا ماريا جاتى إلى مطعم أيل دى فرانس الفاخر، وصلا قبل منتصف الليل بساعة، وفى قاعة «سانت تروبيز» أكل فاروق بمفرده دستة من المحار وجراد البحر، وشريحتين من لحم الحمل مع بطاطس محمرة وبقول فرنسية، ورفض أكل الفطائر المحلاة لأنهم كانوا قد وضعوا بها خموراً، لكنه أكل كمية كبيرة من الكعك المحشو بالمربى والفواكه، بعد هذه الوجبة الدسمة جلس فاروق مستلقياً على أحد المقاعد الوثيرة، وقد أشعل سيجاراً، وقبل أن يحرق نصف السيجار أحس بشئ ثقيل يطبق على صدره، وضاق تنفسه وأحمر وجهه ورفع يده إلى حلقه وبصعوبة طلب النجدة.

أسرع البارمان إليه، حمل فاروق بسرعة وألقاه بهدوء على كنبة فى القاعة وراح يرفع ساقيه إلى أعلى ثم يخفضهما إلى أسفل، وخلال دقائق وصلت سيارة الإسعاف، حملته إلى مستشفى «سان كاميللو» وفى المستشفى وضعوه فى خيمة أوكسجين واستمروا فى عمليات إنعاش القلب إلا أن قلب فاروق لم يستجب، وأخذ نبضه يتذبذب بصورة مستمرة، وفى الساعة الواحدة والنصف صباحاً توقف النبض نهائياً.. ومات فاروق، لحقت بموته شائعات عن قتله بالسم وتورط المخابرات المصرية فى ذلك.. لكن هذه قصة أخرى.

فى سنة ١٩٥٤ كان فاروق قد كتب وصيته.. وجعل الوصى فيها الملك سعود بن عبدالعزيز حتى يضمن المزيد من المساعدة المالية له ولأولاده من بعده وكانت البنود الأساسية للوصية «أنا فاروق الأول ابن المرحوم أحمد فؤاد ملك مصر سابقاً، تلك هى وصيتى إذا هم القضاء فإنى أعهد بأولادى من بعدى إلى أخى وصديقى الكريم حضرة صاحب الجلالة الملك سعود الأول ملك المملكة العربية السعودية، ليكونوا فى كنفه وتحت رعايته وفى حراسته.

وأوصى بألا يكون لزوجتى السابقة ناريمان والدة ابنى أحمد فؤاد ولا لفريدة والدة بناتى الحق فى أى شئ من التركة، وأوصى بثروتى العقار والمنقول إلى ورثتى المذكورين من بعدى وهم ابنى أحمد فؤاد وابنتى فريال وابنتى فوزية وابنتى فادية، وأعهد إلى

سكرتيرى الخاص أمين محمد فهيم وإلى مربية بناتى الآنسة «سيمون تابوريه» بتولى أمر أطفالى وتدبير شئونهم والقيام على إتمام تعليمهم فى الخارج، وهما على علم بشروطى فيما يتعلق بزواج البنات.

كانت هذه الشروط أن يكون الزوج مسلماً وغنياً وألا يكون من ضباط الثورة الذين عزلوه، فقد كان فاروق يردد وهو فى منفاه: لو كنت تركت بناتى فى مصر لكانت الثورة انتقمت منهن وزوجتهن من عساكر، وقد ختم فاروق الوصية بختم الملكية، وأودعها عند موثق العقود الإيطالى فى روما، ولكنه سحب الوصية وغيرها أكثر من مرة ألغى وصاية الملك سعود بعد أن أصبح خارج السلطة وألغى اسم سكرتيره الخاص منها بعد أن تركه وأصبح سكرتيرا خاصا لمطلقته ناريمان صادق، وأشيع أنه على علاقة بها، وألغى اسم مربية أولاده أيضاً بعد أن طردها على أثر اكتشاف تعاطفها مع الملكة السابقة، وأعاد فاروق كتابة الوصية، بعد أن نزع كل الأسماء، وجعل النصيب الأكبر من الثروة لابنه احمد فؤاد، بعد أن تصور أن النقود قد تسانده فى استعادة العرش فى الوقت المناسب.

لم يبق من حياة فاروق فى المنفى إلا وقائع دفنه فى مصر، فى أيامه الأخيرة عبر الملك المخلوع عن رغبته فى أن يدفن إما فى مصر بجوار والده ومعظم أسلافه فى مسجد الرفاعى، وإما فى المملكة العربية السعودية أو على الأقل فى أيه دولة عربية، وقد نجح إسماعيل شيرين وزير الحربية الأسبق وزوج شقيقة فاروق فى إقناع السلطات المصرية بنقل جثمان الملك السابق من مقابر روما إلى مدافن أسرته فى مسجد الرفاعى، وبعد عشرة أيام من المساعى وافق جمال عبدالناصر على ذلك ولكن بشرط السرية التامة.

وفى ٢٧ مارس ١٩٦٥ نقلت طائرة مدنية من طراز كوميت تابعة لشركة الطيران العربية المتحدة جثمان فاروق إلى القاهرة، وتحت حراسة أمنية مشددة نقل الجثمان إلى ميكروباص يقوده مخبر سرى، أخترق طريق صلاح سالم حتى منطقة القلعة، ثم نقل الجثمان إلى قبر إبراهيم باشا ابن محمد على الكبير حيث دفن فى الساعة الثانية بعد

منتصف الليل، استغرقت عملية الدفن عشر دقائق، حضرها من أسرته الأميرة فوزية والأميرة فايقة مع زوجيهما، وبعد أن رحل الجميع بقى الجثمان فى عهدة راعى القبور الملكية حافظ خطاب.

قد تشفق على فاروق بعد أن تتعرف على تفاصيل حياته فى المنفى.. لكنك ستكون على قناعة فى النهاية.. أن حياة فاروق كان ولا بد أن تقوده إلى هذا المصير.. الذى سيق إليه كما تساق الشاة إلى ذبحها.. فقد ظل طوال حياته يعيش مثل الطفل الأبله.. الذى لا يدرى ماذا يحدث حوله.. لم يسأل عندما وجد نفسه ملكاً ولم يسأل عندما خلعوه من على عرشه.. ولم يغضب عندما عاش مطروداً منفياً.. وحتى عندما مات.. جاءت لحظته بسرعة.. حتى لا يتعذب.. فهو حتى لا يستحق العذاب.

سهرات الصيف الأخير للملكية

فى صيف ١٩٥٢، كانت مصر كلها تغلى من الداخل، لكن السطح كان هادئا، الناس يعيشون حياتهم اليومية بحلوها ومرها، ويبدو أن قدرة المصريين على امتصاص الصدمات والتعايش مع الفساد والقهر والظلم جعلتهم ينصرفون عن السياسة إلى قضاء أوقاتهم فى الحديث عن المشاكل اليومية المعتادة.. كان الناس مشغولون فى أيام الصيف التى سبقت الثورة بما حدث لمصيف رأس البر من تدهور، حيث شهد المصيف الذى كان يرتاده نجوم المجتمع تراجعاً فى الإقبال عليه وشكا أصحاب المحلات من الركود الذى سيخرب بيوتهم.

الاسكندرية لم تعان من الركود.. حيث شهد صيف الاسكندرية حفلات صاخبة وسهرات حتى ساعات الفجر الأولى.. وهذا بعض مما كان يحدث، فى الأسبوع الأول من يوليو.. شهد سان ستيفانو سهرة بالمايوهات، ظهرت فيها حرم إبراهيم بك ذوالفقار بثوب أسود، وحرم مؤيد بك العظم بثوب أسود مثله ومدام رينيه أجيون بشعر ذى لون جديد.

كانت السهرة أطول وأكثر صخبا، مما كان يظن رواد سان ستيفانو نفسه بسبب المباراة الساخنة التى خاضتها المايوهات والأجساد الجميلة أمام عيون المتفرجين تحت

الأنوار الكاشفة، كانت المباراة جديدة فى أسلوبها، فهى لم تكن بين السيقان فقط ولا بين الأجساد فقط.. ولكن بين ذلك كله دفعة واحدة،وكان واضحا أثناء المسابقة أن المايوه البكينى لم يعد موضة الموسم، وأن الذى حل محله هو المايوه الجديد الذى يتألف من قطعة واحدة بلا أكتاف.

فى هذه المسابقة أيضا فازت مدام ايمى جنيد بمايوها المبتكر «روز مارى» أما الآنسة نازلى شاهين وثوبها الذى كان يكشف عن كتفيها فلم تفز بشئ لسبب بسيط هو أنها لم تدخل المباراة أصلا، وكان غريبا ألا تدخل نازلى شاهين المباراة لأن شفاه المتفرجين وألسنتهم الطويلة، كانت تتحدث عنها كما لو كانت هى الفائزة!

لم تشهد الاسكندرية فى الصيف الأخير قبل الثورة سهرات الكبار فقط ولكنها شهدت أيضاً حفلات زفافهم التى لا تختلف عن حفلات زفاف اليوم، فى الخميس الأول من يوليو ١٩٥٢، شهدت حديقة آل البتانونى حفل زفاف كريمة عزمى النشاشيبى بك وكيل وزارة الخارجية الأردنية، تألقت العروسة الجميلة فى ثوب من الدانتيلا والتافتاه رقيق مثلها، وتمكنت العروس أمام المدعوين المذهولين من إقناع رفعة حسين سرى باشا أن يضحك كباقى خلق الله.

كان هاشم باشا وغزالى باشا ومحافظ الاسكندرية والسيدة زوجته من بين الذين رفضوا أن يصدقوا أعينهم وهم يرون سرى باشا يضحك، اشتد الذهول بالموسيقار محمد عبدالوهاب فلم يحاول على الإطلاق أن يغنى للمدعوين، وكانت كاريوكا وثريا حلمى هما الوحيدتين اللتان لم تزعجهما ضحكات رئيس الوزراء فرقصت الأولى وغنت الثانية، وعندما عادت التكشيرة الطبيعية إلى ملامح سرى باشا، تمكن المدعوون من التوجه مطمئنين إلى البوفيه فى الدور الأعلى حيث كانت تنتظرهم ألوان من أطعمة الشرق لا يقوى أحد على مقاومة إغرائها ولا على هضمها.

لم تكن الاسكندرية ليلاً فقط - ولكنها كانت للنهار أيضاً، فعلى شاطئ سيدى بشر كانت تظهر كل يوم زينب الوكيل حرم النحاس باشا، لكنها كانت تكتفى بساعة واحدة

تقضيها فى الشمس أمام كابينتها ثم تتصرف بهدوء وحرص على ألا يضايقها أحد، وبعيداً عن وقار حرم النحاس باشا فإن بلاج الاسكندرية كان يشهد كل يوم شقاوة «شلة الصغار» التى كانت تتزعمها غادة توفيق صبرى بشورتها الأبيض القصير الذى كله إثارة.

لم يختلف صيف القاهرة كثيراً عن صيف الاسكندرية، اللهم إلا فى حرها الشديد وجوها الخانق.. لكن سهرات الكبار وحفلاتهم لم تختلف فبسبب الحر الشديد والملل الخانق الذى يكتم الأنفاس فى القاهرة لم يجد الدكتور يوسف رشاد وهو طبيب الملك فاروق - بدأ من أن يؤلف اتحاداً للشطرنج، كان مجرد إعلان تشكيل الاتحاد كافيا لينضم إليه كل ضحايا الملل يتقدمهم النبيل عباس حليم ووزير كوبا المفوض فى مصر، وعندما اجتمع اتحاد الشطرنج دارت مناقشات كثيرة حول أهمية اللعبة ومزاياها، وانتهت إلى قرار بإرسال فريق من الاتحاد إلى دورة هلسنكى للاشتراك فى مبارياتها.

سهرات القاهرة لم تكن أقل صخباً من سهرات الاسكندرية، ففى النادى التونسى الذى افتتح فى أوائل يوليو ١٩٥٢ أقيمت عدة حفلات.. وفى إحداها تداعت أعصاب واحد من السادة المحتفلين وهو يرقص مع واحدة من الرشيقات فاستجابت له الرشيقة بصفعة، وأسرع سيد آخر من الحاضرين يؤيد الصفعة بصفعة مماثلة ونشبت معركة بين الرجلين.. انسحبت أثناءها الآنسة الرشيقة بعيداً إلى حيث يمكنها الاستمتاع بالمنظر!

وفى نادى الصيد لم تتغير الصورة كثيراً، فقد لمعت الأنوار الكاشفة فى الأسبوع الثانى من يوليو.. الأضواء لم تكشف المايوهات الساخنة هذه المرة، ولكنها أظهرت الحمام الذى كان صيده قبل ذلك يتعب الضاربين فى الضوء الهزيل، كانت الأضواء فى نادى الصيد خافتة.. لكن بعد أن زودها النادى أصبحت سهراته تمتد إلى الواحدة صباحاً، وأصبح لا يتخلف عنها أبداً النبيل سليمان داود وحرمه، ولا الوجيه إبراهيم يكن ولا الوجيه صالح صادق، ولا حرم عمر فتحى ولا حتى «توتو» وهو الوجيه محمد سلطان.

لم يبتعد الفنانون عن جو الترفيه والحفلات عن المصيفين فى الاسكندرية، فعندما حلت أيام المصيف، قررت فرقة «ملوك الفن» التى تضم بين أعضائها شادية وتحية

كاريوكا وإسماعيل ياسين وعبدالغنى السيد، أن تنتقل إلى الاسكندرية.. لكن الفرقة وقعت فى مأزق فقد اعتذرت تحية كاريوكا عن السفر معهم إلى الاسكندرية لأنها مرتبطة بعقد عمل فى بيروت، المسئولون عن الفرقة أنقذوا الموقف واتفقوا مع ثريا سالم راقصة مصر الرسمية (!!) على أن تحيى ليالى الفرقة إلى جوار أغانى شادية ومنولوجات اسماعيل ياسين الضاحكة وتمثيل شكرى سرحان المسلى!

لم تكن كل السهرات فى مصر فى صيف ١٩٥٢ صيدا ورقصا.. فى النادى الأهلى كانت هناك سهرة رياضية خالصة شهدها شهر يونيو الذى توافق مع شهر رمضان فى هذا العام، نظم النادى الأهلى مهرجاناً للسياحة تضمن سباقاً للقوارب والبراميل، وشهد الحفل جمهوراً كبيراً من أعضاء النادى الذين اعتادوا على طرافة حفلات ناديهم.. وظل الجمهور الكبير يتابع فقرات الحفل حتى آخر دقيقة فيه، بل إنهم كانوا عند انصرافهم ينهبون الأرض نهبا إلى بيوتهم حتى لا يفوتهم وقت السحور.

بعيداً عن جو الحفلات والسهرات كان الناس فى مصر يتحدثون عن أشياء كثيرة تعبر عن همومهم واحتياجاتهم اليومية، نقلتها الصحافة وهى تغطى أحوال الناس وهذا بعض مما كتبته الصحافة:

فى أهرام أول يوليو كتب د. إبراهيم ناجى بك - وأغلب الظن أنه هو إبراهيم ناجى مؤلف أغنية الأطلال الشهيرة لأم كلثوم - عن أمراض الكبد فى مصر وقسمها إلى قسمين، أمراض خاصة بالمرارة وأمراض خاصة بالكبد ذاته.. وأمراض الكبد التى كتب عنها ناجى تعود فى رأيه إلى أن خلايا الكبد قد تتلاشى تماما وقد تضمر.. والنتيجة فى النهاية واحدة، لم يتحدث ناجى عن نسبة اصابة المصريين بالكبد لأنه.. والعلم لله - لم يكن أحد يهتم بذلك.

امتحانات الطلبة كانت شغل الناس الشاغل، وما كتبته الأهرام تحت عنوان أعصاب محطمة وقرائح مكدودة وحقن مسكنة وزجاجات كولونيا ووسائل مبتكرة للغش فى الامتحانات هذا العام، يؤكد أن امتحانات قبل الثورة هى امتحانات ما بعد الثورة بلا أدنى فرق.

قالت الأهرام ازدادت ظاهرة اعتماد الطلاب على الغش فى الامتحانات هذا العام، ومرجع هذا بالطبع إلى ضعف مستوى الطلاب، وثقتهم فى عجزهم عن استيعاب دروسهم إلى جانب ازدياد هذه الظاهرة نجد أن الطلاب قد ازدادوا جرأة أيضاً فى نوع الوسائل التى يلجأون إليها، وإذا كان الطلاب الضعاف فى الماضى يتحايلون على الغش فإن الطلاب فى هذا العهد يمتازون بالجرأة بعدم المبالاة حتى ليقدم بعضهم على حمل كتبهم معهم أو صفحات منها أو صفحات كبيرة من قطع «الفولسكاب» محشوة بما لم تستطع عقولهم أن تعيه من المعلومات. ويؤكد كاتب التقرير فى الأهرام فتحى محمد عبده أنه لا يمكن الآن بعد أن ضبطت كل حوادث الغش التى تواترت عنها الأنباء فى لجان الامتحانات أن نعتبرها مجرد حوادث فردية، بل هى حوادث اجتماعية تنظمها عصابات منظمة بدليل أن كثيراً من أوراق البرشام وهى أوراق الغش كما يسميها الطلاب كانت مكتوبة بالكربون لاستخراج نسخ متعددة منها لتوزيعها على الطلاب بالطبع.

وبعيداً عن الامتحانات أعاد وزير المالية البحث فى الميزانية الجديدة فى ظل موازنة فى حدود ٢٠٠ مليون جنيه وعجز ٤٢ مليونا، وزير المالية وقتها محمد زكى عبدالمتعال باشا وعد بعدم الالتجاء إلى الاحتياطى وضمان تنفيذ المشروعات الضرورية لكنه عكف فى نفس الوقت على إعداد أربعة مشروعات قوانين لفرض ضرائب جديدة ورسوم اجتماعية، وبرر وزير المالية هذه الضرائب بأن الدولة تتحمل أعباء مالية فاحشة.

ولأن أعباء الحكومة كانت ثقيلة، فقد استجابت للتدابير الدولية التى أقرتها هيئة الصحة العالمية لمكافحة الأمراض التناسلية فى مصر، بدأ فريق العمل الذى تكون من أعضاء وزارة الصحة المصرية وهيئة الصحة العالمية مباشرة مهمته من إدفا بسوهاج.. رأس فريق العمل د. إبراهيم حنفى بك مدير قسم الأمراض التناسلية بالوزارة.. الغريب أن اختيار إدفا لم يكن لأن الأمراض التناسلية منتشرة فيها لا سمح الله، ولكن لأن أعيان هذه القرية ورجال الإدارة بها أبدوا ترحيباً بالفكرة وتفهما لرسالة وزارة الصحة على وجهها الصحيح.. ليس أكثر ولا أقل!

الصحف فى صيف ١٩٥٢ كانت تعلن عن كل شئ.. فهذا إعلان عن مايوهات أمريكانى مشجرة للأولاد من ٢ إلى ١٠ سنوات مع مجموعة فريدة من القمصان الأمريكانى، وهذا إعلان آخر عن بطولة الرقص لعام ١٩٥٢ بكازينو صوفر.. ويشير الاعلان إلى أن جوائز المسابقة تصل إلى ٢٠٠ جنيه للمشتركين، وتذكرة الدخول ١٢,٥ قرش بالضريبة.

إعلانات التهانى والتعازى كانت حاضرة بقوة قبل الثورة أيضاً، فهؤلاء هم سائقوا القاطرات يتقدمون بأرق عبارات التهانى وأجمل الأمانى لحضرة صاحب المعالى الدكتور سيد عبدالواحد بك وزير المواصلات بمنصبه الوزارى، وبالثقة السامية، ويرجون لمعاليه من سويداء قلوبهم دوام التوفيق والنجاح، وهذه هى رابطة مديرية بنى سويف بالقاهرة تهنئ ابنها البار معالى حسين كامل الغمراوى بك بتولى الوزارة وتدعو الله لمعاليه بالتوفيق لخدمة الوطن فى ظل الملك المفدى.

المضحك أن مجلة روز اليوسف فى عدد ٢١ يوليو ١٩٥٢ أعلنت عن رواية نجيب محفوظ «خان الخليلى» بهذه الصيغة «نجيب محفوظ الكاتب الذى يفوز بكل الجوائز يقدمه نادى القصة فى القصة الخالدة.. «خان الخليلى».. الاعلانات كانت تخاطب جمال الرجل أيضاً .. وهذا نص إعلان آخر «هل أنت جميل المنظر.. العالم بأجمعه يمجد المنظر الأنيق، وليس معنى هذا إلا شعرا مرتبا ومنسقا تنسيقا بديعا، فلم لا تشترى اليوم برطمان من «بريانتين» روز مارى لتكسب شعرك رونقا وجمالا.

الغريب وأنت تطالع الأهرام صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ستجد عجبا، خبراً تحت عنوان «إسرائيل لم تتلق ردود الدول الغربية على طلبها نقل وزارة خارجيتها إلى القدس. كان نص الخبر.. صرحت المصادر العليمة أن وزارة الخارجية الإسرائيلية تجمع الآن معلومات عن استعداد البعثات الدبلوماسية لنقل مكاتبها من تل أبيب إلى القدس تمهيداً لنقل وزارة الخارجية الإسرائيلية إلى القدس، ويقال إنها لم تتلق ردوداً مباشرة، وأبرق مراسل الأهرام الخاص فى لندن يقول: بينما لا ترحب دول الغرب بنقل وزارة الخارجية

الإسرائيلية إلى القدس فإن هذا القرار قد يعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها القادمة لتنقض القرار الذى سبق واتخذته بخصوص تدويل القدس، ولكن إسرائيل ما زالت متمسكة برأيها رغم المذكرة التفسيرية التى أرسلتها إليها تؤكد فيها أن مستقبل القدس لا تقرره إسرائيل، وإنما تقرره الأمم المتحدة، والرأى السائد فى لندن أنه كلما طال الوضع الراهن بين اليهود والعرب كان من الصعب ضمان هذا التدويل.. قد تكون الألفاظ تغيرت بعض الشئ.. وقد تكون الأسماء تغيرت بعض الشئ.. لكن إسرائيل ما زالت كما هى تكسب كل يوم جديداً.

حوادث صيف الثورة لا جديد فيها.. قتل وخطف وسرقة.. عناوين الحوادث تشى لنا بالكثير.. وهذه بعضها «طالب بالحقوق متهم بإتلاف ملهى، وموزع بالبريد يحرز بندقية فيعاقب بالحبس، يضرب ابنه حتى الموت بسبب المناقشة على البيع، ثلاثة قتلى وثمانية جرحى فى معركة كبيرة بين أسرتين، مريض يحاول الانتحار بسبب اعتداء الموظفين عليه، جثة شاب فى بئر.. خنقه الجناة ثم مثلوا بجثته، جندى مراسلة يخطف كريمة ضابط كبير.. يبيع مصوغاتها ويتزوجها ثم يقضيان شهر العسل فى المصايف، مداعبة بين ثلاثة تؤدى إلى قتل أحدهم، يهشمون رأسه بالبلط، يريد أن يعلم ولدى أخيه الشحاذة فتقرر المحكمة الشرعية رفض دعواه وتلقى عليه درساً فى رعاية الكرامة القومية، تطالب بإلغاء حكم صادر بطلاقها وتلجأ إلى القضاء الوطنى فى هذا الطلب.

قد تلحظ اختفاء جرائم الاغتصاب والفساد التى ازدادت هذه الأيام.. ولا يعنى هذا أنها لم تكن موجودة.. لكن الصحف لم تكن تقترب منها كثيراً.. كانت تهتم بجرائم الفقراء.. ربما لأنها كانت تعتقد أن الأغنياء لا يقترفون الجرائم.

لم تكن الصحف على حق بالطبع.. ففساد رجال الأعمال كان على أشده، يروى محمد حسنين هيكل فى كتابه «ملفات حرب السويس» أنه فى يوم ٧ يوليو ١٩٥٢ نشرت الصحف البريطانية تفاصيل غريبة، كانت الديلى اكسبريس إحدى هذه الصحف التى نشرت القصة نقلاً عن مراسل لها فى جنيف وقد جاء فيها ما يلى بالنص «تآمر أغنى

أغنياء مصر لطرد حكومة الهلالى وكلفته العملية مليون جنيه دفعها الممثلون عن الملك فاروق أثناء اجتماع جرى بينهم فى جنيف».. والرجل الذى يعمل من وراء الستار هو أحمد عبود باشا الذى تقدر ثروته بمبلغ ٢٠ مليون جنيه، فهو يملك شركات سفن ومصانع ومساحات كبيرة من الأراضى يزرع معظمها بقصب السكر، الذى يملك عبود باشا احتكار صناعته، والحقيقة أن احتكار عبود باشا للسكر هو مصدر كبير للمال، وعندما علم عبود أن حكومة الهلالى باشا تفكر فى إرغامه على وضع ضرائب على أرباحه من السكر قرر طردها، وأدخل عبود فى مؤامرته إلياس أندراوس باشا المستشار الاقتصادى للملك والذى يدير عدداً من الشركات الكبرى، كذلك أدخل عبود فى المؤامرة أحد أصدقاء فاروق فى لعب البوكر - وهو كريم ثابت الصحفى اللبنانى السابق ووزير الدولة الجديد فى الوزارة التى أعقبت وزارة الهلالى، وكذلك دخل معهم صاحب جريدة المصرى المليونير محمود أبوالفتح الذى جمع ملايينه من تجارة الورق فى السوق السوداء فترة الحرب والذى يؤيد حزب الوفد، وقد اتصل كريم ثابت والياس أندراوس بكافرى سفير الولايات المتحدة فى القاهرة، وأبلغاه أن فرص نجاح خطط تنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط سوف تزداد إذا ما مارس الضغط على فاروق وأقنعه بطرد الهلالى وقد استمع لهم جيفرسون كافرى ولكنه لم يتحدث مع الملك وبدلاً من ذلك أبلغ حسونة باشا وزير خارجية الهلالى بالأمر وهكذا أخذ الهلالى علماً بالأمر وقدم استقالته فوراً.

انتهت رواية هيكل.. لكن لن تنتهى المقارنات بين رجال الأعمال الأمس ورجال أعمال اليوم.. صيف الثورة شهد رجل أعمال يسقط وزارة حتى لا يدفع خمسة ملايين جنيه ضرائب مستحقة عليه.. والآن رجال أعمال يهربون إلى الخارج ومعهم الجمل بما حمل.

حياة الناس لم تكن كلها سهرات والآم فقط.. كان هناك أيضاً ما يفجر الضحك.. فقد أصدرت محكمة القاهرة الابتدائية للضرائب برئاسة محمد السكرى حكما عاما فى قضية رفعتها إحدى الراقصات ضد مصلحة الضرائب، كانت المصلحة قد اعتبرت الرقص من المهن التجارية كالبقالة وتجارة المانيفاتورة، ومن ثم تسرى عليها ضريبة

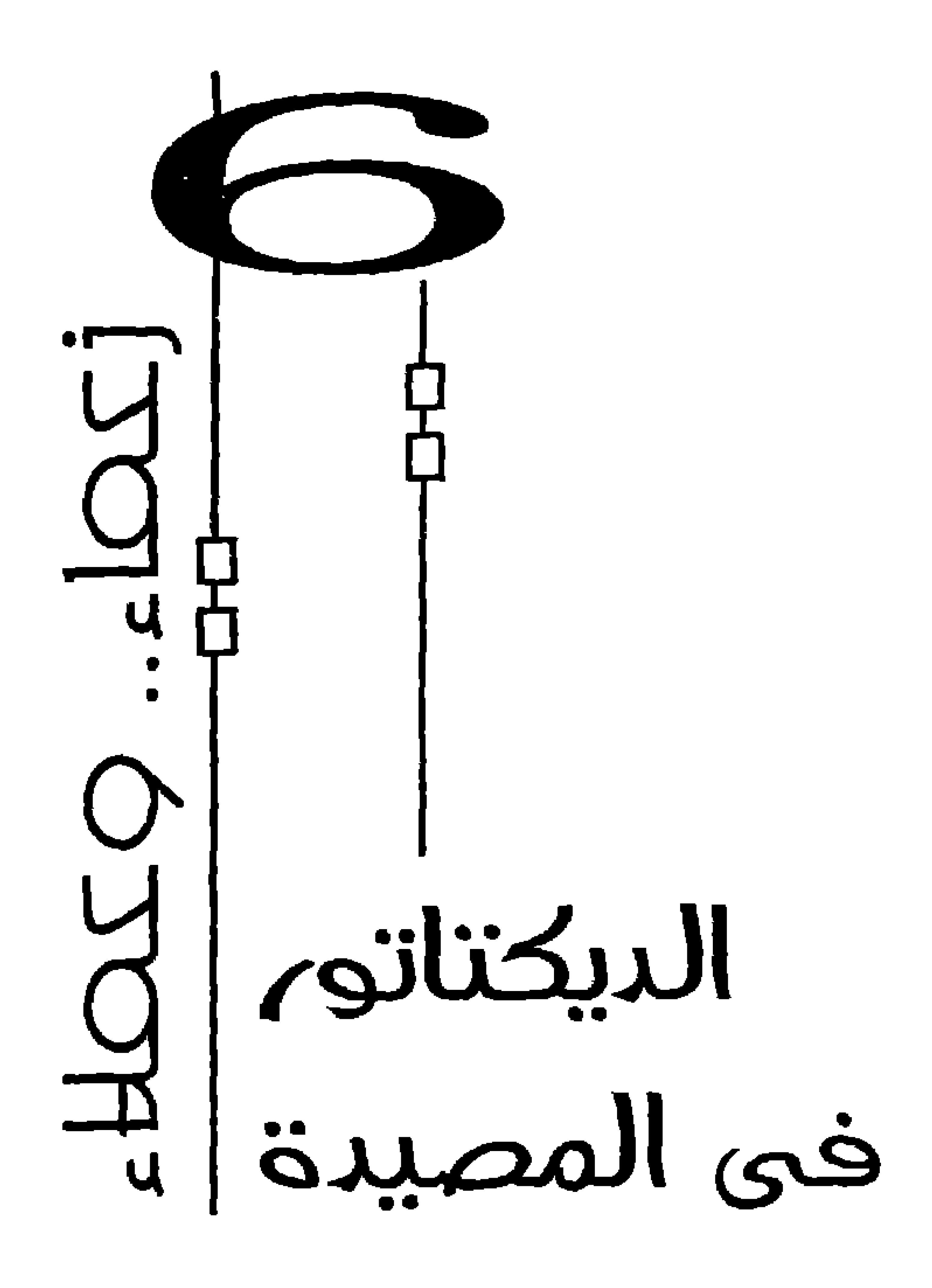
الأرباح التجارية، على أساس أنها تستعين فى عملها وهو الرقص بأربع بنات من جنسها يزاولن نفس المهنة، وأن هذا يبعد نشاطها عن أن يكون فى نطاق المهن كالطب والمحاماة، كما اعتبرت المصلحة اتفاقها مع الجمهور على إقامة حفلات مقابل أجر معين متفق عليه مبدئياً عملا تجاريا لأنه يشتمل على المضاربة التى تحتمل المكسب والخسارة.

دخلت المصلحة فى مناقشة طويلة مع الراقصة عندما قالت أنها تستعين بمعاوناتها الأربع للعمل على الوجه الآتى: الأولى تحمل الرق والثانية لالقاء المونولوجات والأخيرتان للزفة، أنكرت المصلحة ذلك وأكدت أنه لم تجر العادة على استعمال رق ولا إلقاء مونولوجات مع وجود تخت، أصرت الراقصة على أنه ليس فى امتهان الرقص أيه ناحية تجارية، إذ هو يتطلب دائماً ممن تزاوله جهوداً فنية خاصة تماما كجهود الطبيبة والمحامية.

انتصرت المحكمة لوجهة نظر الراقصة فأصدرت حكمها باعتبار الرقص من المهن الحرة وقد جاء فى حكم المحكمة أن مهنة الرقص تندرج مع مهنة العازف أو الممثل أو المغنى التى جعلها القرار الوزارى رقم ٢٥ لسنة ١٩٤٥ مهنا غير تجارية وأما القول بأن طبيعة عمل الراقصة المقاولة على إقامة الحفلات راجع إلى شخصيتها بالذات فهى لا تتعاقد على حفلات لا تشترك فيها كراقصة، وأما استخدام الغير فى هذه الحفلات بأى عدد مع تنويع عمل هذا الغير فليس معنى المضارية التجارية وإنما تقتضيه مزاولة مهنتها كراقصة.

كانت هذه هى الحياة فى مصر يوم قامت الثورة.. قوم لاهون.. وقوم يعانون.. والجميع يشكو.. ولا شئ يتغير!

■■■


6
الديكتاتور
في المصيدة
زعماء.. وعملاء

اهتز الملايين فى الشارع العربى لمشهد صدام حسين الأخير وهو تحت الفحص يقلبه طبيب أمريكى بين يديه دون أن يبدى الرئيس العراقى أى اعتراض أو امتعاض، بدأ كفأر مذعور فتعاطف الناس معه وحتى يخففوا من شعور الهزيمة الذى غمرهم حاولوا إنكار أن الصيد الذى وقع هو صدام حسين.. مواطن أردنى أقسم برأس أبيه أن صدام لم يقع بعد.. وأن الله لابد وأن ينصره.. مواطن عراقى من تكريت مسقط رأس صدام حسين قال وهو يبكى: إن الأمريكان خدروا صدام حسين ولذلك لم يقاومهم.. ففى رأيه أنه أسد.. والأسد لا يقع إلا ميتا.

بعد ساعات من اختفاء الصورة المهينة التى ظهر بها صدام.. غابت السكرة وسيطرت الفكرة على الناس وأفسح المصريون لقريحتهم الساخرة ساحة التنكيت فقال أحدهم وهو جالس على مقهى فى شارع فيصل إن أمريكا مازالت تعتقد أن العراق بها أسلحة كيماوية.. وعندما اعتقلت صدام حسين فتشت فمه اعتقادا منها أنه يخفى هذه الأسلحة بين أسنانه!

لن تبرح صورة الديكتاتور وقد زالت سطوته أذهان الناس، فقد أخذها البسطاء والمقهورون فى أرجاء الوطن العربى وسيلة أراحوا بها أنفسهم، فمصير ظالميهم لن يختلف كثيرا عما لحق بصدام حسين، ونهاية جلاديهم لن تقل بشاعة عما رأوه بأعينهم بالصوت والصورة على الهواء مباشرة.

لقد انشغل الناس بسؤال وجدوا أنه منطقى للغاية وهو.. لماذا لم ينتحر صدام حسين مع أنه كان يستطيع أن يفعل ذلك وهو ما أكده أحمد الجلبى زعيم المؤتمر الوطنى العراقى حيث قال: إن صدام لم يبد أى نوع من المقاومة لدى اعتقاله وكان أمامه متسع من الوقت للانتحار ولكنه لم يفعل.. لم يسأل الناس أنفسهم هذا السؤال وألحوا على عقولهم به خوفا على صدام مما سيلاقيه على أيدى الأمريكان ولكنهم تمنوا ذلك حتى يريحهم من ساعات المهانة والمذلة التى شعروا بها وهم يشاهدون لحظاته الأولى بعد السقوط على شاشة الفضائيات.

البعض التمس لصدام العذر وأراحوا أنفسهم بأنه كان مخدرا لا يسيطر على ردود أفعاله وقد قام الأمريكان بذلك حتى يصطادوه حيا.. لكن البعض الآخر وهم كثيرون أكدوا أن صدام حسين أجبن من أن يقتل نفسه.. وهذه هى شيمة الطغاة.. فهم يقتلون ويدمرون ويسفكون الدماء من وراء حجاب.. لكنهم فى المواجهة جبناء غير قادرين على اتخاذ أصغر القرارات وأتفهها.

لا أحد يعرف الآن فى أى شىء يفكر صدام حسين وهو فى مجلسه الآمن فى بغداد التى وعد أن ينتحر مغول العصر على أسوارها، فإذا به سجينا فى حجرة صغيرة من حجراتها.. بعد أن ظل سجينا فى قبو صغير فى بلدته تكريت.. ولا أعتقد أن أحدا يهتم بمشاعر الرئيس السابق الذى خلع عن عرشه رغما عنه، مصيره الآن أصبح فى يد أعدائه الذين لن يرحموه ولن يراعوا فى محاكمته عدلا ولا ضميرا رغم أنهم أعلنوا عكس ذلك.. عن نفسى لست متعاطفا مع صدام حسين.. رغم أسفى على حالة الانكسار التى نعيشها جميعا الآن.. وكل ما أملكه أن أقدم لكم قصة حياة صدام حسين كاملة.. لعل وعسى أن ينتبه السائرون على خطاه فينقذوا أنفسهم قبل أن يصافحهم مصيره.

بائع البطيخ.. الذى سقط أخيراً

فى ملفات صدام حسين الشخصية والتى أصبحت بعد اعتقاله ملقاة على قارعة الطريق مباحة مستباحة لكل عابر طريق قرأت هذه العبارة: «ولصدام حسين دراسات

وأعمال فكرية عديدة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم العسكرية والجوانب التربوية ترجمت إلى لغات العالم الحية».. وهى عبارة غريبة للغاية.. فما أعرفه أن صدام عندما أنهى دراسته الثانوية التى كان منتظماً بها فى مدرسة قصر النيل الثانوية بحى الدقى بالقاهرة.. انتسب إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة.. لكن ولانغماسه المتزايد فى أنشطة حزب البعث لم يتمكن من إكمال دراسته الجامعية.. فمن أين لصدام بكل هذه المعرفة التى استطاع من خلالها أن يضع مؤلفات فى كل شىء.

لم تكن هذه العبارة التى ربما ألقيت ضمن محاولات تجميل صدام حسين.. إلا وجهاً واحداً من وجوه صناعة الرؤساء فى عالمنا العربى.. فرغم أنهم يكونون على باب الله.. بلا علم ولا أدب.. لكنهم فى غمضة عين.. أو فى غفلة من الزمن يصبحون أرباب العلم والأدب.. وآلهة المعرفة.. رغم أن تاريخهم ليس فيه شىء يدل على أحقيتهم لما وصلوا إليه، وصدام ليس إلا مثالاً صغيراً على ذلك..

كل من عرفوه أكدوا أنه لم يكن يصلح إلا ليكون رجل مخابرات من الطراز الأول.. وأنه لا يستحق أن يكون بمنصب أكبر من هذا.. ربما يصلح أيضاً أن يكون وزيراً للداخلية فى أحسن الأحوال.. لكن الأقدار صنعت منه رئيساً للجمهورية.. لم يجعل الفرصة تفلت من بين أصابعه.. وكان طبيعياً أن تكون النتيجة دماراً شاملاً واستسلاماً تاماً.. فقد قضى على دولة حكمها كان أكبر من قدراته وإمكاناته.

هذه رؤية مهذبة للغاية.. لتحديد مصير صدام حسين فبعض تفاصيل حياته وخاصة فى نشأته كانت تؤهله ليكون زعيم عصابة من الطراز الأول.. ولد فى ٢٨ أبريل عام ١٩٣٧.. وهو تاريخ ميلاده الرسمى.. فكل زملائه لم يكونوا يعرفون تاريخ ميلاده.. لكنه ومنذ عام ١٩٨٠ أصبح الاحتفال بعيد ميلاد الرئيس الرسمى يتم فى ٢٨ أبريل.. وكان طبيعياً وصدام بشخصيته الطاغية تلك أن يتحول يوم مولده إلى عيد رسمى تحتفل به العراق كلها..

استقبل صدام الحياة بين يدى أسرة فقيرة للغاية تعيش فى قرية «العوجة».. التى تتبع مدينة تكريت التى تقع فى وسط العراق.. عاش طفولة بائسة.. ويبدو أن عائلته تنبأت له بما سوف يفعله فمنحته اسماً يحمل إحساساً بالعنف والقسوة والحزم، مات أبوه حسين المجيد قبل ولادته بشهور.. وعندما بدأ يدرك الحياة من حوله.. وجد نفسه فى بيت زوج أمه إبراهيم الحسن.. لم تكن أمه تحبه.. فعندما كانت حاملاً فيه مات أبوه متأثراً بإصابته بالسرطان وعندما كانت فى شهرها الثامن مات ابنها البالغ ١٢ عاماً بسبب السرطان أيضاً، أصيبت الأم بكآبة شديدة إلى الدرجة التى دفعتها لمحاولة التخلص من الجنين المشئوم المزعج، لكن صدام تشبث بأحشاء أمه إلى أن نزل سالماً للحياة.

كان زوج الأم يذل صدام ويضربه ويهينه باستمرار، ويرى د. «جيرولد بوست» الخبير فى السمات النفسية أن معاملة الأم وزوجها لصدام كانت مفتاحاً لشخصية صدام العنيفة فقد كانت أمه وراء عدم استقراره فى فترة الصبا والمراهقة وشعوره بالدونية والهشاشة، ولذلك فإن الصور والنصب التذكارية والبوسترات العملاقة التى كانت لا تحصى فى شوارع بغداد أو فى مبانى الدوائر الحكومية كل ذلك كان دليلاً على الذات الهشة لرئيس كان يدارى ضعفه بقتل الأبرياء وسحقهم بلا رحمة.

بل ان استخدام صدام حسين أسلحة الدمار الشامل فى بعض معاركه ضد معارضيه والتلويح باستخدامها ضد الأمريكان فى السنوات الأخيرة، لم يكن ذلك دليل بطولة ولكنه كان يفعل ذلك فى رأى د. «بوست» ليظهر لجيشه تميزه المتواصل بالهيبة والسلطة فهو يتحدى المجتمع الدولى ويذكر جيشه باستمرار بأنه لم يذعن ولم يخضع، لأنه يعتقد أن ذلك سيجعله أكثر أهمية واحتراماً فى نظر شعبه وجيشه.

قسوة أمه لم تجعله يهينها فى النهاية بل أكرمها.. ربما ليحافظ على صورته التى رسمها، كان اسمها «صبحة طلفاح».. كانت تتمتع بشخصية قوية وقد عاشت فى تكريت حتى وفاتها عام ١٩٨٢.. وقد بنى لها صدام مقبرة فاخرة ولقبها «بأم المناضلين».

من عاش فى تكريت أكد أنها مدينة تتميز بالكرم والتمسك بالدين، كما يشتهر أهلها بالهدوء والمسالمة.. وقد دفعهم هذا إلى مقاطعة ليست معلنة لكل الأغراب النازحين من

المدن والقرى الأخرى إلى تكريت لأن الكثيرين منهم كانوا يتجولون بسلاحهم فى حالة غريبة من العنجهية والغطرسة، وقد يكونون كذلك هاربين من قرى أو مدن أخرى بسبب ثأر أو مشاكل عائلية أو نزاع حاد وهؤلاء يكونون على عكس أهالى تكريت بعيدين تماماً عن الدين.. ولذلك رفض أهالى تكريت استقبال جد صدام حسين «عمر بيك» الذى كان قد نزح إليها من مكان غير معلوم فلم يعرف أحد من أين جاء؟.. ولا لماذا كان يلقب بـ«بيك» وإن كان خال صدام حسين خير الله طلفاح يزعم أن نسبهم يتصل بآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، قال ذلك دون أن يكون معه دليل قاطع على كلامه سوى روايات أو شهادات رجال دين من النجف وكربلاء.. من المحتمل أنهم أجبروا على قولها خوفاً من بطش وجبروت عائلة صدام.

خرج عمر بيك من تكريت إلى قرية «العوجة» جنوب تكريت.. بنى بها داراً صغيرة من الطين على ضفة النهر وبدأ يعيش حياة الفلاحين التى تعتمد على زراعة المحاصيل الزراعية وخصوصاً الخضروات وتربية الأغنام والدجاج.. والغريب أن اسم «العوجة» جاء ليتناسب مع طبائع أهلها.. فطبائعهم عوجاء وأفعالهم غير مستقيمة!

فى طفولته التى شهدتها «العوجة» كان صدام حسين حزيناً وانطوائياً.. وكان طبيعياً بعد ذلك أن يقول هو نفسه عن نفسه: لم أشعر أننى طفل أبداً.. كنت أميل إلى الانزواء وغالباً ما أتجنب مرافقة الآخرين.. وفى الوقت الذى يمكن أن تعتقد فيه أن نشأة صدام خلقت منه شخصاً معقداً فإنه كان يرى أن الظروف التى نشأ فيها منحته الصبر والتحمل والاعتماد على الذات.

كان صدام حسين فقيراً للغاية.. عاش حياة يسيطر عليها الشقاء.. بدأ منذ صغره يعمل حتى ينفق على نفسه وعلى أمه.. فقد كان يبيع البطيخ لركاب القطار الذى كانت تكريت إحدى محطاته فى طريقه من الموصل إلى بغداد وعندما كان يفرغ من بيع البطيخ.. كان يمسك بعصا حديدية يطرد بها الكلاب الضالة عن بيوت الأغنياء بمقابل زهيد للغاية..

قبل أن يكمل صدام حسين عامه العاشر انتقل إلى بيت خاله خير الله طلفاح.. ويبدو أنه لم يكن رجلاً عادياً.. وإذا كنا نريد أن نعيد الحق لأهله.. فإن خير الله طلفاح هذا كانت له بصمات ضخمة للغاية على شخصية صدام حسين الدموية.. كما أنه فتح له الطريق واسعاً فى اتجاه السلطة، كانت فلسفة خير الله تقوم على أن الله خلق ثلاثة أشياء لا يمكن التعامل معها اليهود والفرس والذباب.. زرع خير الله الكراهية فى نفس صدام فاستجاب لكل متطلباتها.. تأثر صدام بشدة بأفكار خاله خير الله السياسية ويمفرداته المبسطة المبنية على إطلاق شعارات براقة مثل معاداة الاستعمار وتبنى روح قومية عربية تدعو إلى التجدد والتغيير.

كان خير الله يتمتع بعلاقات ضخمة وضعت قدمى صدام حسين على باب حزب البعث، كان الحزب وقتها وتحديداً فى عام ١٩٥٦ يدعو إلى القومية العربية ومعاداة الاستعمار.. توحدت الأهواء وفى يوم وليلة أصبح صدام حسين أحد أبناء الحزب الأقوياء.. كان الحزب يخطط لاغتيال عبدالكريم قاسم ووضعت المهمة على كتف مجموعة من الحزب على رأسها صدام حسين.. لم يكن وقتها قد تعدى الثانية والعشرين من عمره.. لكنه كان الأكثر جراة وصلابة وشجاعة واقتحاماً.

فى شارع الرشيد ببغداد كان يمر موكب قاسم فاعترضه القتلة وأمطروا سيارته بوابل من الرصاص، ورغم أن المحاولة فشلت فإن صدام حسين بعد ذلك أصر على أن يصورها كاملة تصويراً سينمائياً ليحتفظ بها فى أرشيفه.. لم تفشل عملية الاغتيال فقط ولكنها تركت علامة على ساق صدام حيث أصيب خلالها بطلق نارى كان يفتخر به ويعتبره علامة على نضاله.. وعندما أخرج توفيق صالح فيلماً صور فيه السيرة الذاتية لصدام حسين وكان اسمه «الليالى الطويلة» وضع مشهداً طويلاً فى الفيلم يصور من خلاله عملية إخراج الرصاصة من قدمه.. ولأن توفيق صالح رغم تورطه فى إخراج الفيلم.. فإنه أصر أن عمله متكاملاً.. فجعل الممثل الذى يقوم بأداء دور صدام حسين يصرخ من شدة الألم، اعترض بعض منافقى صدام على هذا المشهد.. فالقائد لا يتألم.. ولا

يصرخ.. ولا يليق أن يراه شعبه فى موقف ضعف.. وأصروا على أن يبدو صدام حسين طبيعياً هادئاً أثناء إخراج الرصاصة من قدمه.. استولى الخوف على توفيق صالح فهو يعرف ماذا يمكن أن يحدث له إذا خالف أعضاء حزب البعث.. لكن صدام حسين نفسه أنقذه من هذه الورطة عندما أقر المشهد كاملاً وكما تم تصويره بالضبط.

كانت مشاركة صدام حسين فى اغتيال عبدالكريم قاسم نقطة فاصلة فى تاريخه.. فقد وضعته ضمن قائمة المناضلين.. وأصبحت حياته كلها فصلاً طويلاً من الصراع على السلطة، فر صدام حسين إلى بلدته تكريت ليختفى فيها عن الأنظار.. ويبدو أن مسقط رأسه كان دائماً هو الملجأ الآمن له.. فقد هرب إليها أيضاً بعد أن سقطت بغداد فى ٩ أبريل.. ظل بها لعدة شهور.. لم تكن مشاركة صدام حسين فى اغتيال عبدالكريم قاسم هى المرة الأولى التى يقدم فيها صدام حسين على القتل.. فقد اتهم بقتل زوج أمه الذى كان يهينه ويعذبه ويذله.. وقد اعتقل وقضى فى السجن ستة أشهر بين عامى ١٩٥٨ و١٩٥٩ بسبب اغتياله لأحد رجال السلطة فى تكريت.. لكن فى النهاية أفرج عنه ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام عبدالكريم قاسم.

ففى عام ١٩٥٨ حدث تغيير سياسى مهم فى العراق تمثل فى نجاح مجموعة من ضباط الجيش غير البعثيين بقيادة عبدالكريم قاسم فى الإطاحة بالملك فيصل الثانى وتولى الحكم، فشل صدام البعثى فى الإطاحة بعبد الكريم قاسم الذى كان يضطهد رجال البعث.. فهرب صدام إلى سوريا ومنها إلى مصر.. وقضى بها عدة سنوات حتى عام ١٩٦٣.. عندما خرج منها مطروداً بعد تخطيطه لاغتيال جمال عبدالناصر.. فى هذا العام نجح حزب البعث فى السيطرة على الحكم والإطاحة بعبدالكريم قاسم وأصبح عبدالسلام عارف رئيساً للعراق.. لكن سرعان ما دب الخلاف بين الحزب وبين عارف.. ويبدو أنه كان الأقوى.. فقد اعتقل معظم قادة حزب البعث ورمى بهم فى السجن وكان من بينهم صدام حسين.. الذى نجح فى الهرب من السجن.. ولما كان العراق لم يسعه فى هذا الوقت فقد سافر إلى سوريا.

فى دمشق وكان ذلك عام ١٩٥٩ التقى صدام حسين بميشيل عفلق مؤسس حزب البعث، دارت بينهما حوارات طويلة.. ووضعا أمامهما الاضطرابات والانشقاقات التى تحدث فى الحزب بالعراق، ولم يعد إلى بلده إلا بعد أن حقق عدة مكاسب سياسية كان منها تعيينه عضواً فى القيادة القومية لحزب البعث وتوثيق صلته بقيادة الحزب فى سوريا، قبل أن يرحل صدام من دمشق رفض نصيحة قيادات الحزب السورى للبقاء فى دمشق هرباً من بطش عبدالسلام عارف.. الذى اكتشف محاولة للإطاحة به كان يدبرها الحزب.. وعندما عاد إلى العراق تم إلقاء القبض عليه ودخل السجن ليبقى فترة طويلة فى زنزانة منفردة فى مديرية الأمن ببغداد وقد تعرض فيها لتعذيب رهيب.

كان لابد أن يلقى مكافأة من الحزب على صموده الرائع.. ولذلك قررت قيادة الحزب عام ١٩٦٦ انتخابه ليكون أمين سر القيادة القطرية لحزب البعث وهو لايزال فى سجنه، استطاع صدام بعد هذا التقدير بمساعدة بعض رفاقه أن يضع خطة للهروب من السجن أثناء خروجه لإحدى جلسات محاكمته، نجحت الخطة بالفعل واستطاع الفرار من قيود اعتقاله، وبعد أن صافح حريته بدأ فى ممارسة نشاطه حيث أنشأ نظاماً أمنياً داخل الحزب عرف باسم «جهاز حنين».. كان ينفذ العمليات الخاصة التى كان يخطط لها الحزب.. كما تولى صدام حسين كذلك الإشراف على التنظيم الفلاحى والنسائى.

فى هذا الوقت كان عبدالسلام عارف قد لقى مصرعه فى حادث سقوط طائرته العمودية.. وكان لصدام حسين دور بارز ومهم فى التخطيط والإشراف على هذه العملية.. وبدلاً من أن يستولى حزب البعث على السلطة.. أصبح عبدالرحمن عارف شقيق عبدالسلام رئيساً للعراق، فلم يضيع الحزب وقته حيث خطط للإطاحة بعبدالرحمن عارف الذى كان أضعف كثيراً من أخيه.. وبالفعل نفذ الحزب خطته لإبعاد عبدالرحمن عن السلطة.. وكان صدام حسين بنفسه على رأس المجموعة المسلحة التى اقتحمت القصر الجمهورى.

لم يكن الوقت قد حان بعد ليتولى صدام حسين الحكم فى العراق.. فقد كان هناك أحمد حسن البكر الذى أصبح رئيساً للعراق.. ومكافأة لجهود صدام حسين تم تعيينه

نائباً لرئيس قيادة الثورة بداية من نوفمبر ١٩٦٩ وكان يبلغ من العمر وقتها اثنين وثلاثين عاماً.. هذا غير مسئوليته عن الأمن الداخلى فى العراق، ظل صدام حسين لمدة عشر سنوات فى هذا المنصب لعب خلالها عدة أدوار وضعته وحده فى دائرة الضوء منها..

قام بتعيين عدداً كبيراً من أقاربه وأفراد عشيرته فى مناصب مهمة فى الحكومة العراقية وبصفته نائباً ومسئولاً عن الأمن الداخلى بنى جهازاً أمنياً ضخماً وكانت له عيون فى كل مكان بدوائر السلطة فى العراق.

لعب دوراً مهماً فى تأميم صناعة النفط العراقى عام ١٩٧٢ وفى الوقت نفسه بدأ مشروعاً ضخماً على مستوى العراق كلها لتعليم القراءة والكتابة.. ولإنجاح المشروع مارس سطوته وقسوته حيث فرض عقوبة تصل إلى ثلاث سنوات سجناً لمن لا يحضر دروس محو الأمية. وكان من آثار هذا المشروع أن تعلم آلاف الرجال والنساء والأطفال القراءة والكتابة.

فى عام ١٩٧٥ وقع صدام حسين بصفته نائباً لرئيس الجمهورية وشاه إيران اتفاقية لإعادة ترسيم الحدود فى منطقة شط العرب وقسمت بالفعل مناصفة بين إيران والعراق مقابل أن توقف إيران دعمها للمعارضة الكردية فى الشمال.

بعد هذا التاريخ السياسى المحمل بالاغتيالات وصل صدام حسين إلى رئاسة العراق فى ١٦ يوليو ١٩٧٩.. كان أحمد حسن البكر قد قدم استقالته وقيل وقتها إنها بسبب كبر سنه وضعفه وتردى حالته الصحية.. ولذلك كان طبيعياً أن تنتقل السلطة بهدوء شديد منه إلى نائبه.. فانتخب صدام رئيساً للجمهورية وأميناً عاماً لحزب البعث العراقى وقائداً لمجلس قيادة الثورة.. ظل قابضاً ومسيطراً على كل شىء فى العراق حتى اختفى من على وجه الأرض فى ٩ أبريل ٢٠٠٣.. ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً.. ظل فيها صدام حسين هو الرئيس الأوحد.. لا يعرف العراقيون غيره.. ولم يسمح هو لهم أن يعرفوا غيره.

بعد أن تولى الحكم توالت الزوابع على العراق خارجياً وداخلياً.. بعد أيام قليلة من توليه السلطة وفى ظل حاجته الماسة لتعزيز سلطاته وتقوية أركان حكمه الجديد وللقضاء

على الأصوات التى حاولت أن تظهر وكأنها معارضة له.. أعلن صدام عن اكتشاف محاولة انقلاب عليه يدبرها بعض قادة حزب البعث فى العراق بدعم من سوريا.. ألقى القبض على المتآمرين عليه.. وحاكمهم محاكمة عسكرية ولم يكتف بسجنهم.. بل أمر بإعدام ١٧ من قادة وكوادر الحزب.. وكأنه كان يسير على المثل الشعبى «بذبح القطة ليلة الدخلة».. لم يذبح صدام قطة لشعبه ولكنه ذبح لهم ١٧ من قادة حزبه.. وأطاح بـ٤٥٠ من قادة الجيش حتى تكون الحركة ضخمة وعنيفة وتؤتى ثمارها.

بعد ذلك لم يهدأ مطلقاً.. دخل بالعراق فى حروب متتالية.. وبعد أقل من عام من جلوسه على عرش العراق.. شن حرباً على إيران استمرت ثمانية أعوام.. كان الخمينى قد قاد ثورة شعبية نجحت فى الإطاحة بحكم الشاه فى إيران وإعلان الجمهورية الإسلامية، ووضع الغرب وخاصة أمريكا أيديهم على قلوبهم.. فما فعله الخمينى فى إيران يمكن أن يمتد إلى دول أخرى مجاورة.. وساعتها ستجد أمامها وحشاً كاسراً لا يهدد مصالحها فقط ولكن يقضى عليها.. لم يجدوا أمامهم سوى صدام حسين فدفعوا به فى ساحة المعركة.. واستغلوا أن صدام نفسه كان قد أبدى انزعاجه الشديد من احتمال امتداد تأثير ثورة الخمينى إلى داخل الأراضى العراقية خاصة وسط الشيعة والأكراد.

أخذ صدام حسين القرار.. دخل الحرب ضد إيران.. ألغى الاتفاقية الخاصة بشط العرب، وبعد ثمانى سنوات من الدعم والإمداد بالسلاح والتأييد لصدام حسين كانت النتيجة هى خسارة أكثر من مليون شخص من الجانبين.. ووصلت الخسائر المباشرة وغير المباشرة لحرب تافهة إلى عدة مليارات من الدولارات.. بلغت فى بعض التقديرات غير الرسمية إلى ٨٠٠ مليار دولار، هذا غير ما خلفته وراءها من مئات الآلاف من الأسر التى فقدت رجالها.. ومئات الآلاف من الأسرى والجرحى والمعاقين إضافة إلى اقتصاد منهك ودمار شامل غطى كل مكان فى البلدين.

عامان فقط قضاهما صدام حسين دون حرب.. لكنه وجد أمامه مليون جندى عراقى مدربين ومستعدين لخوض أعتى الحروب.. فكان أن دفعهم إلى حرب جديدة.. بعد أن

هدأت عاصفته مع إيران، بدأت خلافاته تتصاعد مع الكويت على خلفية ديون مالية كانت العراق قد حصلت عليها من الجارة الصغيرة، ثم وهذا هو الأهم كانت هناك خلافات حول استغلال حقول البترول المشتركة التى تقع على حدود البلدين.. اتهمت العراق الكويت بتعويم سوق النفط.. وتدنى أسعاره، حاولت الكثير من الدول العربية ألا يصل الخلاف إلى حرب خاصة وهم يعرفون صدام وطموحه.. لكن كل المحاولات فشلت.. أغراه جيشه وإشارة كانت خفية من الولايات المتحدة الأمريكية بأنه يمكن أن يعبر لأنها لن تتدخل مهما حدث.

ابتلع صدام حسين الطعم كاملاً.. وفى صباح ٢ أغسطس ١٩٩٠ أعلن العراق أنه عين حاكماً عسكرياً على الكويت باعتباره المحافظة التاسعة عشرة من محافظات العراق.. تحركت أمريكا.. فقد أوقعت الديكتاتور فى الفخ.. أقنعته أن الكويت تسطو على بتروله قدمت له الوثائق الكاملة التى تؤكد ذلك، وقالت له اذهب.. ولما ذهب تحالفت أمريكا ضده.. فقد كان هدفها تكسيره ثم السيطرة على المنطقة بكاملها.. رفض النصيحة بأن ينسحب وصمم على أن يواصل حماقاته.. لم تستغرق عاصفة الصحراء التى أعلنتها أمريكا على العراق طويلاً.. فقد أجبر الجيش العراقى على الانسحاب تاركاً وراءه دماراً شاملاً فى الكويت.. كانوا قد دمروا محطات الكهرباء والمياه وأشعلوا النيران فى آبار النفط ونقلوا الأرشيف الوطنى الكويتى إلى العراقى.. وهو الأرشيف الذى لابد أنه احترق عندما احترقت دار الوثائق العراقية بعد أن سقطت بغداد..

كان لابد أن يعاقب صدام حسين ليس على غزوه للكويت فقط.. ولكن على تحديه لأمريكا وتعديه الخطوط الحمراء التى وضعتها له.. كان مجلس الأمن عقب اجتياح الكويت قد فرض على صدام عدداً من القرارات منها انسحابه الفورى دون قيد أو شرط وإعادة الممتلكات الكويتية وفى النهاية.. تم فرض حصار اقتصادى كامل على العراق.. مع تدمير ترسانة العراق من أسلحة الدمار الشامل وضمان عدم تطويرها فى المستقبل.. وقبل أن تنتهى قائمة القرارات أضافت الولايات المتحدة إلى هذه الإجراءات جعل

منطقتين فى الشمال ذات الأغلبية الكردية والجنوب ذات الكثافة الشيعية منطقتى حظر جوى.

عاد صدام حسين إلى العراق ورغم هزيمته الساحقة ووصول القوات الأمريكية إلى عمق العراق.. ليهيىء للعراقيين أنه انتصر.. فقد خاض «أم المعارك» التى فى رأيه أذلت رقاب الأمريكان.. وقد ظل يحتفل بذكرى أم المعارك كل عام حتى تحولت إلى أم المخابئ، وبدلاً من أن يعيد صدام حساباته شن حرباً عامة على معارضيه.. ففى مارس ١٩٩١ عمت مناطق كثيرة من العراق انتفاضات شعبية تعترض على ما يحدث.. تعامل معها بمنتهى القسوة.. وفتحت المقابر الجماعية لتستقبل أعداداً ضخمة من العراقيين المعارضين.. ولم يتورع صدام حسين عن استخدام الأسلحة الكيماوية ضد خصومه.. هذه الأسلحة التى لم تظهر فى حروبه مع الأمريكان مطلقاً.. لكنها ظهرت فقط على شعبه.

لم يخضع صدام للأمريكان.. عاندهم.. فقرر مجلس الأمن الدولى تشكيل لجان للتفتيش عن أسلحة العراق، كلف «ريتشارد بتلر» برئاسة اللجنة الأولى و«هانز بليكس» بالثانية، بدأ بتلر عمله عام ١٩٩٤ وانتهى من مهمته عام ١٩٩٨.. واستطاعت فرق التفتيش التابعة له تدمير العديد من أسلحة العراق وتفتيش العديد من الأماكن الخاصة جداً.. والتى كان صدام يصمم على عدم إتاحتها لهم.. لكنه كان يتراجع فى النهاية ويفتح الأبواب على مصراعيها.. ورغم التعاون الكبير الذى أبداه العراقيون مع لجنة التفتيش إلا أن بتلر اتهم العراق بعدم التعاون مع المفتشين فقامت الطائرات الأمريكية والبريطانية بقصف مراكز الاتصال العراقية والأهداف الحكومية والعسكرية لمدة أربعة أيام متواصلة وأعلنت الدولتان وقتها أن الهدف النهائى لهما من الآن فصاعداً هو الإطاحة الكاملة بصدام حسين من رئاسة العراق.

لم تهدأ المناوشات بين أمريكا والعراق.. حتى جاءت الفرصة كاملة لبوش الابن.. أهينت أمريكا إهانة كاملة فى هجمات ١١ سبتمبر.. ورغم أن أمريكا اتهمت أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة بارتكاب الكارث.. إلا أن بوش قرر أن يغتنم الفرصة كاملة ليصفى

من خلالها كل خصومه.. وفى واشنطن أعلن أن العراق هو أحد دول محور الشر الداعمة للجماعات الإرهابية ولابد من مقاومته ضمن ما يعرف بالحرب على الإرهاب.. وقال بوش بعد استشارة رجال إدارته.. لابد من توجيه ضربات استباقية للعراق تغير نظامه.. لم يضيع بوش وقتاً وبعد أقل من عام من هجمات سبتمبر وبعد أن انتهى من أفغانستان أعلن أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة أن نظام صدام حسين يشكل تهديداً مباشراً لأمريكا وذلك بسبب تاريخه الحافل فى مهاجمة جيرانه واستخدامه للأسلحة الكيميائية ومساندته للجماعات الإرهابية وتحديه السافر والمستمر لقرارات مجلس الأمن.

وفى ٢٠ مارس ٢٠٠٣ كانت الأقدار قد قالت كلمتها.. غزت أمريكا وبريطانيا العراق.. ولم تتراجعا إلا بعد أن سقطت بغداد فى أيديهم فى ٩ أبريل، اختفى النظام العراقى كله.. وكأن الأرض انشقت وابتلعتهم جميعاً.. حتى ظهر أن الجميع فروا كالفئران المذعورة.. ليختفوا فى مخابئ ومنازل مهدمة.. وقد تركوا العراق غنيمة مستباحة للصوص الأوطان الجدد.

هذا التحطيم الخارجى للعراق كان على طرفه الثانى تحطيم داخلى ضخم لكل من كان يرفع صوته بالمعارضة للنظام العراقى.. ولشخص صدام حسين والشهادات على ذلك كثيرة وفوق أن تحصى فمنذ وصل للحكم لم يكف نظامه عن الإعدام والتعذيب والسجن والاغتصاب والإرهاب والقمع.. أسكت أصوات الجميع.. ولم يكن هناك إلا صوته.. وحتى يضفى على نظامه شيئاً من المهابة والأهمية.. فقد استضاف طوال سنوات حكمه عدداً من العلماء والمثقفين.. ليعودوا وقد امتلأت جيوبهم بالمال وعقولهم بأوهام رددوها طويلاً عن صدام حسين وديمقراطيته وثقافته ونهضته بالعراق.. وهؤلاء يشكلون الآن حزباً من الأرامل.. خلا بهم صدام وتركهم بلا سند.. لا يصدقهم أحد.. ولا يريد أحد أن يسمع كلامهم من الأساس.

لقد ابتكر صدام حسين نظاماً للانتقام من معارضيه كان يقوم على العقاب الجماعى.. حيث كان يعذب عائلات أو جماعات كاملة بسبب أعمال يمكن أن يكون قام

بها أحد المعارضين من بينها.. وإمعاناً فى الإذلال كان النظام يغتصب النساء ويلتقط لهن أفلاماً عارية تصور عمليات الاغتصاب لابتزاز عائلاتهن، كانت تقطع رءوس مواطنين على مرأى شهود ويفرض على عائلاتهم عرض رءوس المقتولين كتحذير لغيرهم من الذين قد يحاولون الخروج على النظام.. لقد ابتكر صدام حسين خلال فترة حكمه طريقة جديدة لتعبير الشعب عن رأيه.. وهى تخييره بين البقاء صامتاً أو تحمل نتائج عدم السكوت.

كان صدام حسين ينفذ الإعدام فى خصومه على طريقته الخاصة.. ابتكر لذلك أشكالاً عديدة تفوق الخيال، كان يرغم جميع الذكور من سكان قرية ما على الوقوف صفاً واحداً ثم يطلق عليهم النار بصورة منتظمة واحداً تلو الآخر إلى أن يتم القضاء عليهم جميعاً.. ورغم هذه الطريقة إلا أن نظام صدام كان يفضل أكثر أساليب القتل التى تستغرق وقتاً أطول وتنزل عذاباً شديداً بالضحايا وبأفراد عائلاتهم، فقد قام نظام صدام بتسميم عدد كبير من السجناء السياسيين من خلال اعطائهم سم «الثاليوم» بطىء المفعول، وهو سم ينتشر فى الجسم ببطء ويحتاج إلى بضعة أيام ليؤدى إلى الموت.. وكان لابد أن يصل الإبداع إلى مداه الأخير.. فعزز صدام حسين أساليب القتل لتصل إلى درجة الكمال.. وقد ظهر ذلك فى استخدامه إياها فى إبادته للأكراد فى شمال العراق والقيادات الدينية الشيعية بحجة أنهم ليسوا مخلصين للحكومة.. وامعاناً فى الانتقام كان صدام حسين يدفن جثث معارضيه فى قبور دون أسماء كى لا يتمكن أفراد عائلاتهم من زيارتها.

القتل لم يكن وحده سيد الموقف فى التعامل مع معارضى النظام العراقى.. كان التعذيب أيضاً لا ينتهى وخلال عامى ١٩٩٤ و١٩٩٥ فقط قطعت أجزاء من آذان أعداد كبيرة من الجنود بسبب الفرار من الجندية وقامت الحكومة بوشم اشارة (×) بالحديد على جبين هؤلاء الجنود كى لا يعتقد المواطنون العراقيون أنهم ضحايا للحرب، وقد تم تهديد الأطباء الذين رفضوا تنفيذ هذه العمليات بالانتقام وجرى بالفعل إيقاف وسجن العديدين منهم، كما أصدرت السلطات العراقية قانوناً عام ١٩٩٤ جعلت بموجبه قيام الأطباء الجراحين بعمليات تجميل أو تصحيح لضحايا الوشم والبتر أمراً مخالفاً للقانون

وفى عام ٢٠٠٠ صدر قانون عراقى أجاز للحكومة قطع ألسنة المواطنين الذين ينتقدون صدام حسين وحكومته.. أى أن التعذيب كان بالقانون.. ولذلك تعددت صوره التى كان منها: إجراء تجارب طبية، الضرب المبرح، الصلب، طرق الأظافر لإدخالها فى الأصابع والأيدى، بتر القضيب أو الثديين بواسطة سكين كهربائية، رش مبيدات الحشرات على عين الضحية، الوشم بواسطة مكواة ساخنة، اغتصاب النساء مع إجبار أزواجهن على مشاهدة عملية الاغتصاب كاملة، تسمير اللسان على لوح خشبى، قلع الأسنان بكماشة.. ثم استعمال النحل والعقارب للدغ أطفال عراة أمام أنظار أهاليهم.

ولم ينكر صدام حسين أن نظامه كان يعذب النساء بوحشية شديدة، وليس أدل على ذلك مما نشرته جريدة بابل التى كان يملكها عدى صدام حسين.. ففى عددها الصادر فى ١٢ فبراير ٢٠٠١ جاء هذا الخبر: بحجة مكافحة البغاء قامت وحدات من فدائيى صدام وهى المنظمة شبه العسكرية التى يقودها عدى صدام حسين بقطع رءوس ٢٠٠ امرأة فى كافة أنحاء البلاد، وقذفوا بالرءوس المقطوعة أمام أبواب منازل عائلاتهن، كانت العديدات من الضحايا نساء مهنيات بريئات ومن ضمنهن بعض النساء المشتبه بمعارضتهن للنظام، وقد نفذت هذه الأعمال البربرية فى غياب كامل لأى إجراءات قضائية صحيحة حتى استناداً إلى أحكام القانون الجنائى العراقى.

كل امرأة فى العراق كان يمكن أن تواجه قطع الرأس إذا وجهت إليها تهمة ممارسة البغاء، والاغتصاب إذا كانت قريبة لشخص يعتقد النظام أنه غير مخلص له، والتعذيب إذا كانت قريبة لأحد المناهضين لنظام الحكم.. وتوضح التقارير التى خرجت من العراق عن حالة حقوق الإنسان بها أنه طلب من عائلات عديدة أن تعرض رأس الضحية المقطوع على السياج الخارجى لمنزلها لعدة أيام، وقد استخدمت هذه الممارسات الهمجية ضد نساء من جميع المهن، من ذلك أنه تم إلقاء القبض على طبيبة توليد لانتقادها الفساد السائد فى دوائر الخدمات الصحية، وقطعت رأسها بتهمة ممارسة البغاء، كما قطعت رأس امرأة أخرى كانت متزوجة ولها ثلاثة أولاد دون توجيه تهمة إليها أو محاكمتها، وكل

ذلك لأن زوجها كان مطلوباً من سلطات الأمن العراقية بسبب الاشتباه فى اشتراكه فى نشاطات مسلحة ضد النظام، تمكن الزوج من الفرار من البلاد ولكن بعض فدائيى صدام ذهبوا إلى منزله فوجدوا زوجته وأولاده وحماته، اقتادوا الزوجة إلى الشارع وأمسك رجلان بذراعيها فى حين شد رجل ثالث رأسها من الخلف وقطعها أمام سكان المنطقة التى تعيش فيها.. وبعد أن تمت الجريمة نقل رجال الأمن الجثة والرأس فى كيس من البلاستيك وأخذوا الأولاد والحماة معهم!

لقد حاول صدام حسين أن يتاجر بصور الأطفال الضحايا.. لكنه نسى أنه هو قاتلهم.. فبعد حرب الخليج الثانية ورغم الحصار الذى فرض على العراق بنى صدام ٤٨ قصراً لنفسه، وفى الوقت نفسه كانت الأدوية التى تصل إلى أطفال العراق يعاد تصديرها إلى خارج البلاد مرة أخرى.. بل إن الأدوية والتجهيزات الطبية التى كان الأطفال يحتاجونها كانت تتأخر بشدة بسبب الرشاوى التى كان يطلبها أفراد النظام العراقى من مورديها، وقد أدى غياب الرعاية الصحية فى العراق إلى عودة ظهور أمراض كان قد تم القضاء عليها بالكامل قبل عدة سنوات ومن بينها الكوليرا وشلل الأطفال.

لم يكن النظام العراقى يتورع كذلك عن أخذ الأطفال كرهائن لإجبار عائلاتهم على الانتقال للعيش فى مناطق أخرى بهدف زيادة الغالبية العربية السنية فى مناطق معينة، كما كان نظام صدام يرغم الأولاد بين سن العاشرة والخامسة عشر على الالتحاق بدورات تدريبية لمدة ثلاثة أسابيع للتدريب على استعمال السلاح والقتال بالسلاح الأبيض والهبوط من الطائرات وأساليب قتال المشاة مما كان يعرضهم إلى ضغوط جسدية ونفسية هائلة.. وكانت العائلات التى ترفض إرسال أبنائها إلى مثل هذه الدورات تلقى تهديدات قاسية تصل إلى حد حرمانها من الإعاشة، وفى ظل نظام صدام حسين أصبح كل طفل يتعرض لتغذية غير كافية أو نقص فى الأدوية لأن صدام يحدد المستوردات ويوزع الكثير من هذه المواد على أصدقائه وحلفائه، ويتعرض للاختطاف إذا كان غير عربى ويعيش فى منطقة منتجة للنفط، ومطلوب منه أن يبلغ ما يقوله والده حول نظام صدام حسين.

الجميع كانوا يعيشون حالة من الخوف إذن.. كان الجميع يعرفون من هو صدام حسين.. لكن الشعوب العربية تعرضت إلى عملية تزييف وعى كاملة.. إن المعلومات التى تؤكد ديكتاتورية وظلم وقسوة ولصوصية صدام حسين لم تخرج للنور الآن.. لكنها موجودة منذ البداية.. حجبت لمصالح أصحابها.. الذين حصلوا على كل ما أرادوا من خزينة حاكم العراق..

لقد كان صدام طوال الوقت خارج العراق وداخلها قاتلاً.. كان نذلاً فى معاركه يضربهم فى نقاط ضعفهم مباشرة.. وقد ترسخ مبدأ الإمساك بنقاط ضعف الخصم فى عقل صدام حسين مبكراً للغاية، سرى هذا المبدأ فى سلوكه مع كافة أعوانه ثم عممه ليصبح سلاحاً يفتك به بكل العراقيين، ثم سلوكاً لقادة البعث.. ومن بين ما اشتهر عن صدام قوله: اننى أعرف كل شىء عن كل واحد فيكم وعندى براهين ووثائق عنكم ونضعكم دائماً تحت رقابة دقيقة، كان يقول ذلك لأعوانه.. فما بالك بما كان يفعله مع خصومه.

لقد طور صدام هذا السلاح ليتحول من مجرد معرفة نقاط الضعف عند الخصم إلى تلفيق الأدلة ضد خصومه ثم عرض تلك الأدلة على حاشيته أو أعضاء الحزب قبل الانقضاض على الخصم الذى يريد الإطاحة به، والغريب أن صدام حسين شرب من نفس الكأس، فقد استخدم كولين باول نفس المبدأ فى حصار صدام.. عندما عرض أدلة مهلهلة عن مخاطر الأسلحة العراقية أثناء جلسة مجلس الأمن قبل الحرب فى حين عجز عن عرض الأدلة الدامغة أو الإمساك ببعضها.

كل ذلك انتهى الآن فى العراق.. لكن رعونة صدام وحماقاته جعلت العراقيين يستبدلون ديكتاتوراً بدائياً بديكتاتور على الطريقة التكنولوجية أشد بطشاً وفتكاً وتدميراً.. لقد حزنت الناس فى الشوارع على اصطياد صدام حسين بهذه الطريقة.. ليس لأنهم يحبون صدام حسين أو كانوا ينتظرون منه شيئاً بعد أن فر هارباً.. ولكن لأن القبض عليه كان انتصاراً هائلاً لأمريكا.. عبر عنه الحاكم الأمريكى للعراق بريمر بجملة مقتضبة هى «سيداتى وسادتى.. اصطدناه».. بمنتهى الاستهانة والاستخفاف انتهى تاريخ صدام حسين بعد أن عاد بنا مائة عام إلى الوراء..

وكما بدأ انتهى.. بدأ فقيراً معدماً لا يجد قوت يومه.. وانتهى بعد أن صودرت كل أمواله وجرد من كل ممتلكاته.. بدأ فى بيت حقير فى قرية العوجة يتكون من غرفة واحدة ذات أرضية طينية لا توجد بها المستلزمات الأساسية مثل الماء والكهرباء.. وانتهى هارباً فى بيت بسيط للغاية.. وحجرة ضيقة عليه كان يهرب منها إلى حفرة كلما جاء الأمريكان إلى تكريت.. كل من حوله باعوه.. وخذلوه.. حتى طارق عزيز نائبه وصديقه بعد أن اعتقلوا زعيمه أرسل من محبسه ليغير اسم ابنه الأصغر من صدام إلى زهير.. الكل باعه.. لكنه هو نفسه قد باع الجميع ليشترى نفسه.. لكن حتى هذه لم يربحها صدام حسين.. ومشهد النهاية يفضح ذلك كله.

نزوات صدام العاطفية فى القاهرة!

فى عام ١٩٥٩ قرر حزب البعث اغتيال عبدالكريم قاسم.. وأوكل الحزب هذه المهمة إلى مجموعة من كوادر الحزب كان من بينهم صدام حسين، وبالفعل أطلقوا النار على موكبه فى شارع الرشيد ببغداد فى ٧ أكتوبر، باءت المحاولة بالفشل وأصيب خلالها صدام بعيار نارى فى ساقه، فر بعدها إلى بلدته تكريت خوفا من بطش الاجهزة الامنية التابعة لعبدالكريم قاسم، ومنذ هذه اللحظة بدأ نجم صدام يلمع ومكانته تزداد لدى قادة حزب البعث.

لم يكن أمام صدام حسين طريق سوى الهرب خارج العراق، فقد أصبحت حياته مهددة.. لجأ فى البداية إلى سوريا فى رحلة شاقة اكتنفتها المخاطر من كل جانب وأقام بها ثلاثة أشهر.. توجه بعدها الى مصر فى ٢١ فبراير ١٩٦٠، وفى القاهرة التحق بالصف الخامس الإعدادى بمدرسة قصر النيل لإكمال دراسته والحصول على شهادة التوجيهية وسكن مع عدد من رفاقه فى حى الدقى وارتقى فى صفوف القيادة الطلابية لحزب البعث حتى أصبح مسئولا عن الطلاب المنتمين للحزب فرع مصر.

أثناء وجوده فى القاهرة أصدرت المحكمة العسكرية العليا الخاصة فى بغداد حكما بالإعدام ليس على صدام حسين نفسه ولكن على مجموعة من أعضاء الحزب الهاربين خارج البلاد لمشاركتهم فى محاولة اغتيال عبدالكريم قاسم.

فى القاهرة قضى فترة طويلة من شبابه.. جلس على مقاهى القاهرة، تعرف على أصحابها وروادها.. ومن نوادر ما يحكى أن صدام كان صديقا لصاحب مقهى فى الجيزة.. وكان يستلف منه كلما مر بضائقة مالية.. ولما عاد صدام إلى العراق كان مدينا لصاحب المقهى.. وبعد أن أصبح رئيساً أرسل لصاحب المقهى مبلغاً كبيراً من المال.. فلم يكن من صاحب المقهى إلا أن قال ساخراً لمن حمل الرسالة: هو الواد صدام لقى شغل.

القصة قد تكون مجرد مزحة.. لكن الذى لم يكن مزاحاً.. هو ما سجله فتحى الديب عن حياة صدام حسين فى القاهرة.. وعن محاولته لاغتيال عبدالناصر والسيطرة على الحكم فى مصر، وقبل أن ندخل لمعترك حياة صدام فى القاهرة.. لابد أن يستوقفنا فتحى الديب.. رجل عبدالناصر القوى وبوابته السرية للدخول إلى علاقة عبدالناصر بالثورات العربية، فبعد أقل من شهرين على نجاح ثورة يوليو ١٩٥٢، كلف «ناصر» فتحى الديب بحماية الثورات وحركات التحرر العربية.. كان هذا هو الهدف.. أما التنفيذ فجاء من خلال تكوين شبكة متماسكة تضم عدداً كبيراً من الطلبة العرب.. وقد تدرب بعضهم سياسياً وعسكرياً فى معسكرات خاصة فى صحراء مصر الجديدة، فى المكان الذى يقع فيه نادى الشمس الآن، على أن يتولى أفراد هذا التنظيم مسئوليات سياسية ودبلوماسية ووزارية فى بلادهم.

كان صدام حسين واحداً من هؤلاء الطلبة.. كان فى الثانوية العامة عندما تعرف عليه فتحى الديب، وكما حكى فتحى، فإن صدام كان يعيش فى حى العجوزة.. وكان يشتهر بالعنف والقسوة حتى فى علاقاته الغرامية العابرة، التى كانت نوعية النساء فيها نوعية فقيرة متواضعة لا تزيد فى بعض الأحيان على بائعة فجل أو خادمة أو فتاة من الشارع.

علاقات صدام الغرامية فى شوارع القاهرة كانت تنتهى دائماً بمشاجرات عنيفة.. حتى إنه نال مزاجه من بائعة فجل.. ورفض أن يعطيها حقها.. ووصل الخلاف إلى الشرطة.. لكن - وكما كان يحدث كل مرة - وجد صدام من يخرجه من مأزقه الذى وضع نفسه فيه بطمعه فى عرق فتاة فقيرة، كان ذلك يتم لأنه «بعثى».. والبعثيون.. كانوا يعتبرون أنفسهم.. فوق الجميع.. حتى لو كانوا لا يقدمون شيئاً للآخرين.

كان صدام حسين مزعجاً بدرجة كبيرة.. فلا يذكر له أحد حسنة واحدة فعلها وهو فى القاهرة، حتى فتحى الديب عندما قابلته فى لقاء عابر فى بيته قبل وفاته بشهور.. قال لى إنه لو كان هناك شىء إيجابى واحد فى صدام كنت قلته لك.. لكن حقيقى لا يوجد.. إزعاج صدام ومتاعبه زادت على الحد لدرجة جعلته يغادر القاهرة دون أن يأسف عليه أحد.. ودون أن يسمع كلمة وداع واحدة تعزيه عن أيامه التى قضاها بين ناس وشوارع مصر.

مشاغبات صدام كان يمكن أن تمر لو توقفت عند غراميات عابرة.. أو مشاجرات تصل إلى أقسام الشرطة، لكن ما يجعلنا نتوقف عند أيام صدام فى القاهرة أنه عمل جاهداً على اغتيال عبدالناصر وإزاحته.. ليتولى هو ومن وراءه حزب البعث حكم مصر.

الحكاية تكشفها التفاصيل وتعمقها المنمنمات، ففى فبراير ١٩٧٠ كون صدام خلايا فى القاهرة وصل عددها إلى ٧٠٠ شاب من البعث العراقى يدرسون فى الجامعات المصرية، وكان سينضم إليهم ٧٠ قيادة بعثية يأتون من بغداد، كانت كل خلية لا تزيد على ١٠ أفراد، وكانت خطتهم هى الاستيلاء على المرافق الحيوية وخلق حالة بلبلة.. يتم فى نهايتها التخلص من جمال عبدالناصر ومحاكمته وإعدامه.

استطاع فتحى الديب أن يخترق التنظيم من خلال بعض أعضائه، طلب منهم أسماء كل المشتركين فى المؤامرة وأماكنهم وتحركاتهم، كان الديب وقتها فى ليبيا وعندما عاد ذهب إلى عبدالناصر ليخبره بكل ما لديه من معلومات، لم يصدق ناصر ما سمع وتشكك فيه.. لكن ثقته فى فتحى الديب الذى كان وقتها مسئولاً عن شبكة المخابرات العربية.. جعلته يقتنع بما سمع بل ويتحرك.

عاد فتحى إلى ليبيا فقد كان مكلفا بحماية الثورة الليبية.. لكنه كان يتابع تحركات تنظيم صدام حسين، بعد أربعة شهور كاملة تلقى الديب مكالمة تليفونية بالشفرة تقول: الأخ ممدوح منتشى ويظهر أنه سيتعشى بعد يومين أو ثلاثة، فقفز فتحى الديب من مكانه وهو يصرخ، يا خبر أسود، عاد إلى القاهرة بعد ساعات قليلة، فكلمة العشاء هى كلمة السر التى تعنى ساعة الصفر وكان ذلك فى شهر يوليو عام ١٩٧٠.

جلس فتحى الديب مع عبدالناصر ساعتين ونصف الساعة، يشرح له أبعاد المؤامرة، وكيف جند بعض العناصر لمتابعة ما يجرى فى الخفاء لمدة تقترب من ٦ أشهر أمكن خلالها الإلمام بكل أسرار الشبكة والتعرف على قادتها حتى مستوى الخلية وتمويلها وأنواع تسليحها.

أراد فتحى الديب أن ينصرف لكن عبدالناصر استبقاه حتى يلتقى مدير المخابرات العامة حافظ إسماعيل ووزير الداخلية شعراوى جمعة ووزير الإرشاد القومى محمد حسنين هيكل، سأل جمال وزير الداخلية عن معلوماته عن هذا التنظيم فقال له إنه على علم به، فقال له جمال ومتى ستتحركون؟ لم يرد شعراوى، وكانت المفاجأة أن حافظ إسماعيل مدير المخابرات لم يكن يعرف شيئاً عن هذا التنظيم.. ثم تحدث الجميع عن الأمن المستتب فى مصر.

شعر جمال بصدمة فالمسئولون يحدثونه عن الأمن وهناك مؤامرة لاغتياله والتخلص منه ومن نظامه.. أبدى حافظ إسماعيل وشعراوى جمعة أن يقدما استقالتهما.. لكن جمال قال لهما متجاوزاً كلامهما: إن أخطر ما فى أجهزة الأمن انها لا تتصرف إلا على طريقة رغاوى المياه الغازية.. فهى لا تتحرك إلا متأخرة بعد أن تفور المياه الغازية وتخرج عن السيطرة.

طلب عبدالناصر من أحد مساعديه طبع ثلاث نسخ من تقرير فتحى الديب وأعطاه لحافظ وشعراوى وهيكل وقال لهم: لقد تركنا الحبل على الغارب حتى نجح حزب البعث العراقى فى تسريب هذه الأعداد الكبيرة داخل البلاد فى غفلة من أجهزة الأمن.. وقبل أن يجيبوه بشىء عاجلهم بقوله: أريد أن أعرف ساعة الصفر بدقة فلست الوحيد الذى سيدفع حياته ثمناً للمؤامرة.. سيذبحونكم قبلى!

تم القبض على قيادات شبكة صدام البعثية بعد أن أخذ شعراوى جمعة الأسماء والعناوين من فتحى الديب، وباشرت نيابة أمن الدولة التحقيق مع أعضاء الشبكة.. وعندما أعلن الخبر سارع أهالى الطلبة المقبوض عليهم بالاتصال بالسفير المصرى فى

العراق لطفى متولى.. مستنكرين ما حدث من أبنائهم، طالبين نقل رسالة إلى الرئيس جمال عبدالناصر ليعفو عن أبنائهم.

فى يوم ١٠ سبتمبر من العام نفسه جاءت رسالة السفير المصرى فى بغداد.. وبعد أن قرأها عبدالناصر أشر عليها قائلاً: أرى الإفراج عنهم بكفالة وترحيلهم إلى العراق دون محاكمة مع الاعلان عن ذلك.. تنتهى بذلك قصة صدام حسين فى القاهرة أيام شبابه.

زوجات وعشيقات فى حياة صدام

كما كانت حياته العامة المعلنة صاخبة.. كانت حياة صدام حسين الخاصة صاخبة كذلك.. تزوج مرتين الأولى عام ١٩٦٢ من ابنة خاله ساجدة خير الله طلفاح.. والثانية من سميرة شاهبندر صافى التى لمع اسمها بقوة بعد ساعات من القبض على صدام، وما بين المراتين كانت لصدام حياة سرية لا يعرف تفاصيلها إلا المقربون منه.. لدينا إذن ثلاث حكايات..

الأولى بطلتها ساجدة خير الله ابنة الخال التى عاشت معه أخطر أيام حياته.. تزوجها فى ظروف صعبة ومعقدة.. كان وقتها مطاردا من النظام العراقى عقب استيلاء عبدالكريم قاسم على الحكم عام ١٩٥٨.. ترك صدام العراق إلى القاهرة ومنها أرسل إلى خاله خير الله رسالة يطلب فيها منه الزواج من ابنته ساجدة.

لم تدخل ساجدة بيت صدام حسين لتكون مجرد زوجة.. فبعد سنوات الضيق بدأ نفوذها يتصاعد فى بلاط سلطة زوجها.. احتلت موقعا مهما فى حزب البعث حافظت عليه من خلال شخصيتها القوية. قبل أن تتزوج صدام حسين كان لها تاريخ طويل فى النضال الحزبى وفى دعم الثورة فى العراق.. ومما يذكر عنها أنها ضحت بحياتها أكثر من مرة وتحملت المخاطر.. فعندما دخل صدام السجن عام ١٩٦٤ بعد اتهامه بمحاولة قلب نظام حكم عبدالسلام عارف كانت ساجدة تزوره بشكل منتظم وتحمل معها طفلها عدى.. وبعض المنشورات التى كان حزب البعث يصدرها ليطلع عليها.. فعلت ذلك لفترة طويلة دون أن تخاف من افتضاح أمرها.. ودون أن يكشفها أحد.

أنجبت ساجدة لصدام حسين خمسة أبناء هم قصى وعدى وحلا ورنا ورغد التي قالت بعد أن تم القبض على والدها «ليتنى ماعشت حتى أرى هذا اليوم»، ومن طرائف ما يذكر عن علاقة صدام حسين وساجدة الخاصة.. أن صدام منذ بدأ العمل السياسى وهو يستخدم البديل.. أو الشبيه ليحل محله فى كل شىء.. ففى أوائل السبعينيات اختارت المخابرات العراقية عددا من الشباب العراقى استقر من بينهم على اثنين كى يكونا صدام حسين إذا اقتضت الضرورة ذلك.

سافر الشابان إلى ألمانيا الشرقية، مكثا هناك قرابة ثلاثة أعوام حيث خضعا للعديد من عمليات التجميل على أيدى اخصائيين من رجال المخابرات فى سرية تامة كما تم تدريبهما على استخدام صوت الرئيس العراقى والعناية بأوزانهما وطريقة مشى الرئيس وردود فعله أثناء المفاوضات وطريقة ضحكته وسلامه على الضيوف وتمرير يده على وجهه من آن لآخر.. وهى حركة معروفة عن صدام، هذا غير اتقان لهجته والعبارات التى يستخدمها عادة فى أحاديثه حتى أصبحا نستختين طبق الأصل من صدام حسين.

دعيت ساجدة صدام لمقابلة زوجها ذات مرة.. فلما بدأت فى الحديث معه شكت فيه وأمرته أن يعرى إحدى ساقيه التى كانت قد أصيبت بطلق نارى أثناء محاولة الانقلاب التى تمت ضد حكم عبدالكريم قاسم للتأكد من أنه هو صدام وليس البديل. كان لساجدة تأثير كبير على صدام.. كما كان لها دور مهم فى كل ما يحدث داخل إطار الأسرة فعندما هربت ابنتاها وزوجاهما إلى الأردن كثفت اتصالاتها بهما.. وأعدت عدة زيارات سرية قام بها بعض أفراد الأسرة إلى الأردن لإقناعهم بالعودة.. وكانت أبرز هذه الزيارات لشقيقة صدام حسين.. ومنال يونس رئيس الاتحاد النسائى العراقى والصديقة الشخصية لساجدة.

استطاعت ساجدة رغم عناد صدام أن تستدر عطف زوجها للعفو عن ابنتيه.. وأتت بهما إلى بغداد مرة ثانية ولم تكن تدرى ما يدور فى رأس زوجها وابنها عدى الذى كان قد أقسم أنه سيقتل شقيقتيه وزوجيهما وأبناءهما.. ولم يتراجع عدى عما فى رأسه إلا

بعد أن هددت ساجدة بأنها ستقتل نفسها إذا حدث لبنتيها شيء.. لكن ما حدث أن الزوجين أرغما على تطليق بنتى صدام.. وبعد الطلاق بأيام تم قتلهما فى مذبحة هائلة.

الحكاية الثانية بطلتها زوجة صدام الثانية سميرة شاهبندر التى يتردد أنها ربما كانت السر فى تسليمه للقوات الأمريكية أو على الأقل فهى تمسك فى يدها طرف الخيط الذى يمكن أن يقود إلى الحقيقة..

كانت سميرة تنتمى إلى عائلة ارستقراطية، وهذا ما كان يجعلها تنظر بازدراء شديد لأبناء الريف من أمثال صدام حسين.. عندما التقت بصدام فى المرة الأولى وقتها كانت متزوجة من طيار عراقى وله منها ولد وبنت، كانت تعانى من مشاكل مع زوجها.. فى هذا اليوم كان صدام يقضى نزهة مدرسية مع ابنته الصغرى حلا. وقعت عيناه على سميرة فأحبها من أول نظرة.

بعد أسبوعين من اللقاء الأول ذهب صدام حسين إلى منزل سميرة.. وكان زوجها قد سافر إلى الخارج.. حمل معه باقة ورد وعلبة حلويات.. وعندما سألته سميرة عما يريد.. لم يستطع أن ينطق بشيء فأيقنت وقتها كما قالت فى حوارها مع صحيفة «صنداى تايمز» الذى نقلته عنها الشرق الأوسط - أن صدام يحبها.

استولى صدام على سميرة إذن وعين زوجها بعد ذلك مديرا للخطوط الجوية العراقية، ولكن الزواج ظل سرا.. كان صدام يحب ساجدة كأم لأبنائه وزوجة.. لكنه أحب سميرة حب العشاق.. تحولت معه إلى غجرية تنتقل معه من مكان إلى مكان.. سميرة كانت تراه - وربما لا تزال - أنه كان زوجا صالحا، عندما سقطت بغداد فى ٩ إبريل الماضى زارها وأعطاها ٥ ملايين دولار.. بكى أمامها وشكا من الخيانة.. وبعد ذلك ظل يتصل بها هاتفيا ويرسل لها رسائل.. لقد ظهر حوار سميرة شاهبندر فى الصنداى تايمز فى نفس اليوم الذى أعلن فيه عن اعتقال صدام حسين فهل كان ذلك مصادفة؟!.. الله أعلم..

الحكاية الثالثة.. عن حياة صدام حسين السرية التى كشفت كاملة.. فبعد سقوط بغداد.. اقتحم الجنود الأمريكان قصوره ومخابئه.. فلم يفضحوا فساده السياسى فقط

لكنهم فضحوا فساده الجنسى أيضا.. ليتأكد لنا أن الديكتاتور لايكتفى بمصادرة القوة والنفوذ والثروات فقط ولكنه يصادر النساء أيضا يجعلهن فى بلاطه جوارى.. تصبح المرأة عنده مجرد فتحة يصب فيها رغبته فى الاستحواذ واستعراض القوة.

تحت أقدام الأمريكان سقط مخبأ جنسى لصدام حسين فى حى المنصور ببغداد، مراسل إذاعة الجيش الامريكى السير جنت سبينسر كشف تفاصيل ما رآه ووصفه بأنه مذهل للغاية.. المخبأ مكون من مبنيين كل منهما من طابقين، اهتم جنت بالحجرة الرئيسية فى المخبأ التى يبدو أنها ألهبت خياله حتى وصل بها الى حكايات ألف ليلة وليلة، الحجرة الواسعة بها مرايا فى السقف وعلى جميع الجدران مع مصابيح بألوان متنوعة.. وأشكال مختلفة، أحد المصابيح على شكل حسناء عارية، اللوحات المعلقة على الحوائط كلها لنساء عاريات، لم تنفرد صور النساء بجدران المخبأ.. فهناك فى إحدى الطرقات تمثال لرجل ذى عضلات وبشارب كثيف يقاوم تمساحا ضخما.. وأغلب الظن أن هذا التمثال يرمز الى صدام حسين شخصيا.

صور صدام حسين وتماثيله التى انتشرت فى كل بيوت وشوارع وميادين العراق لم تمنعه من أن يضع لنفسه صورة فى مخبئه الجنسى، ولأن المكان يفرض طبيعة خاصة وساخنة فإن الصورة لابد أن تكون مناسبة، ولذلك علق صدام عدة صور لنفسه فى الردهات والغرف والممرات، إحداها مع امرأة عارية ذات ملامح عربية وهو يحتضنها من الخلف، هذه الصورة تأتى متسقة للغاية مع منطق صدام فى الصور التى كان العراقيون - قبل أن يضربوها بالحذاء - يعلقونها فى المحلات العامة، فى السنترالات كانت صورة صدام وهو يتحدث فى التليفون، وفى المقاهى صورته وهو يشرب الشاى، وفى الجامعات صورته وهو يقرأ.. فقد كان صدام الرئيس الأوحد والعالم الأوحد والصانع الأوحد والزارع الأوحد.. فلم يكن فى العراق غيره!

الجنود الأمريكان وجدوا فى أحد المبنيين كمية كبيرة من الاسلحة.. ولا أعرف ما الذى يفعله صدام حسين بالاسلحة فى مخبأ جنسى فهل كان يمارس الجنس مع النساء

تحت تهديد السلاح مثلا، الاسلحة كانت عبارة عن بنادق من طراز «سيج ساور» ومسدسات بلجيكية عيار ٦,٦٥مم، هذا غير صندوق ذخيرة متنوعة.

تفصل بين المبنيين اللذين يتكون منهما المخبأ حديقة كبيرة فيها مشاو للحم من الرخام وبار أرفقه مملوءة بزجاجات النبيذ الايطالى والفرنسى بعضها من مواسم ١٩٨٤، ١٩٨٦، ١٩٨٩ مع زجاجات ويسكى اسكتلندى وشمبانيا وعلب سيجار كوبى، المفاجأة والتى ربما أراد الأمريكان من خلالها تشويه سمعة صدام حسين المشوهة اصلا، أنه كان يتناول طعامه فى مخبئه الجنسى فى صحون من بورسلان سرقها جنوده من الكويت أثناء غزوهم لها عام ١٩٩٠.

كل طابق من طوابق المخبأ يوجد بها عدد من الأسرة المختلفة الاحجام وفى الخزائن الكثيرة المنتشرة فى الغرف مجموعة كبيرة من أفلام الفيديو المتنوعة التى تحتوى معظمها على أفلام بورنو، يبدو أن صدام كان يتقوى بها على ممارساته المتعددة مع عشيقاته وبنات الليل اللاتى كان يجلبهن إلى مخبئه.

مخبأ حى المنصور لم يكن وحده الذى كان يستقبل نساء صدام حسين، ففى منطقة أخرى فى بغداد يسكنها الكثير من الجنرالات وكبار المسئولين فى حزب البعث، عثر على بيت آخر خصصه صدام لإحدى عشيقاته، البيت مكون من طابقين أحدهما مفتوح على الآخر.. مقاعده عبارة عن أكياس مملوءة بحبات شبيهة بالبازلاء وكانت تستخدم فى فترة الستينيات، ويضم هذا المبنى أيضا حديقة صغيرة ذات ورد بلاستيكى، هناك كذلك مطبخ فى الطابق الأرضى وغرفة للخدم.

الطابق الثانى من المبنى له طابع خاص فغرفة التليفزيون مطلية باللون الأزرق الساطع، الوسائد اختلفت ألوانها بين الأصفر والزهرى، والحمام به بانيو به دوامات، أما السرير فكان من الحجم الذى يطلق عليه كينج سايز، أى أعرض من السرير المزدوج، كان السرير مثبتاً فى الحائط وعلى جانبيه مرايا عديدة وفى ظهره لوحة لامرأة عارية، لم يعثر الجنود الامريكان على شىء له قيمة فى هذا المبنى، لكنهم وجدوا بيجامات رجالية وزوجين من الملابس الداخلية وقميصين وروب استحمام وكلها كانت ملفوفة بالبلاستيك.

كريس كارتر التى صاحبت فريق البحث العسكرى عن قصور صدام حسين ـ وكما نقلت جريدة الشرق الاوسط ـ تعتقد أن هذا البيت خصصه صدام حسين لعشيقته اليونانية الشهيرة «باريسولا لامبوس» وأرجعت ذلك إلى أنها عثرت على صورة تضم صدام حسين وباريسولا فى وضع غرامى ساخن على إحدى الكنبات فى إحدى حجرات هذا البيت.

اسم باريسولا لم يكن غريبا فهى ـ على حد كلامها ـ كانت عشيقة لصدام حسين فترة طويلة وقد هربت العام الماضى فقط من العراق واستقرت فى بيروت وربما تكون مختبئة الآن، فقد فضحت صدام حسين، استضافتها إحدى الشبكات التليفزيونية الأمريكية لتتحدث عن علاقتها بصدام فكانت كريمة زيادة عن اللازم فلم تتحدث عن معرفتها بصدام حسين فقط لكنها تطرقت الى مزاجه الجنسى وأى نوع من النساء كان يفضل.. وكيف كان يتعامل معهن فى الفراش.

لم تشر باريسولا الى استخدام صدام حسين للفياجرا.. لكن محاولة اغتيال فاشلة لصدام هى التى كشفت ذلك - والكلام على مسئولية مجلة «نيوزويك الامريكية» التى تقول إن المخابرات المركزية الأمريكية علمت بإن عملاء صدام حسين يقومون بشراء كميات كبيرة للغاية من عقار الفياجرا المنشط جنسيا من عمان لحساب صدام، وقد فكر عملاء CiA فى تلغيم المنشط الجنسى الذى كان يشترى لصدام.. لكن الفكرة رفضت من الأساس. ورغم أن المجلة الامريكية لم تقل لنا كيف يتم تلغيم قرص الفياجرا ولا ما هى اللحظة الحاسمة التى سيتم تفجيره فيها.. لكن ما نعرفه أن صدام حسين كان مقبلا على عقار الفياجرا.. لعله كان يريد أن يصلح به ما أفسده الدهر.

من المنطقى أن نقول مثلا إن رجلا مثل صدام حسين قضى حياته فى الحروب والمؤامرات لم يكن ليجد وقتا كافيا يتفرغ فيه لنزواته الجنسية ونزواته مع عشيقاته، وقد يكون هذا صحيحا عندما يكون صدام حسين رجلا طبيعيا، ففى ملامح شخصيته ترى انكسارا عابرا فى علاقته بالنساء تحديدا أمه وزوجته.

نبدأ بالأم.. التى أسهمت فى أن يعيش الطفل صدام حياة رهيبة من الآلام والمتاعب.. فقد كانت أمه قاسية للغاية وربما أسهم هو شخصيا فى ذلك ربما دون أن يقصد فعندما كانت أمه حاملا فيه فى شهرها الثانى مات أبوه متأثرا بالسرطان وعندما وصلت بالحمل الى الشهر الثامن مات ابنها البالغ من العمر ١٢ عاما متأثرا بالسرطان أيضا اصبح الطفل القادم بالنسبة للأم طفلا شؤما.. لم تكن تريده حاولت جاهدة أن تجهضه وعندما فشلت فى ذلك حاولت الانتحار لكنها فشلت أكثر من مرة، كان طبيعيا ألا تهتم به ولاترعاه وعندما ولد اعتبرته طفلا منبوذا.. تركته لخاله يرعاه ويربيه خلال السنوات الثلاث الأولى من حياته.. تزوجت رجلا آخر غير أبيه.. سبع سنوات كاملة قضاها صدام مع أمه وزوجها الذى لم يكن بينهما ود متبادل.. ولم يكن زوج الأم يتردد فى أن يضرب صدام ويهينه ويرهبه ويطرده من البيت فى ظل صمت تام من الأم التى كانت ترى ابنها يهان دون أن تدافع عنه أو حتى تطيب خاطره بعد ذلك.

ترك صدام بيت أمه وهو فى العاشرة من عمره وفى نفسه جرح غائر، وتقدير منخفض للغاية لذاته.. كان يحمل أمه السبب فى ذلك، فقد ساعدت فى سحقه وإهانته، رباه خاله وربما لذلك السبب وحده تزوج من ابنته ساجدة.. وهذه هى المرأة الثانية التى تركت فى نفس صدام جرحا غائرا ليس بقسوتها هذه المرة لكن بقوتها وتسلطها وتدخلها فى كل صغيرة وكبيرة فى شئون الحكم.

هذا الانكسار النفسى ظهر بوضوح فى علاقات صدام حسين الجنسية العديدة.. فقد أحب أن يرى نساء ذليلات بعد أن عجز عن التعامل مع أمه والسيطرة على زوجته أو الحد من طموحها الجامح.. وكانت الوسيلة سهلة للغاية فالوصفة معلومة للرجل الشرقى العادى فما بالك وهو حاكم ديكتاتور يملك كل شىء فى العراق حتى البشر.. لقد قاد النساء إلى فراشه بعد اغرائهن بسطوته ونفوذه وقوته ليشعر فيهن بالضعف الذى لم يره فى عينى أمه أو زوجته.. أضف الى ذلك أيضا أنه وبتركيبة الديكتاتور لم يكن ليحرم نفسه من متعة النساء اللواتى يراهن على أطراف اصابعه ولن يبذل مجهودا كى يفوز بهن.

لم تكن مخابئ صدام حسين التى أنفق عليها الملايين من أموال الشعب العراقى لحمايته من الامريكان فقط لكنها كانت لاشباع رغباته ونزواته، كذلك لم يشعر صدام حسين ولو للحظة واحدة بمأساة شعبه.. فقد مارس حياته كاملة.. وزيارة واحدة لأحد قصوره التى ضربت بقنابل الامريكان تكشف جانبا من المتع التى كان يعيش فيها صدام بينما العراقيون جوعى، فى القصر الشهير الذى كان يرقد على ضفاف نهر دجلة والذى قصف بقنبلة وزنها ٢٠٠٠ رطل كنت تجد حمام سباحة وجراجا خاصا يسع أربع سيارات وحدائق واسعة.. القصر نفسه مكون من خمس عمارات فخمة للغاية تزينها صور الرئيس العراقى فى أوضاع مختلفة وهو يمتطى حصانا مرة ويحمل سيفا مرة أخرى ويتمثال نصفى مرة ثالثة وفى إحدى العمارات هناك بروفيل لصدام على الواجهة الصخرية لها وبالقرب من السلم الرخامى توجد صورة لعائلة صدام حسين فى ملابس رسمية.. الحديقة تنتشر فيها تماثيل لأشكال عارية وأسود من السيراميك مطلية بماء الذهب.

الجنود الأمريكان أذهلهم القصر فأصروا على إحصاء مافيه، وامسك اعصابك فالقصر به ١٤٢ مكتبا و٦٤ حماما و١٩ قاعة اجتماعات و٢٢ مطبخا وغرف نوم لا حصر لها ولا عدد وبه دار سينما وخمس قاعات كبرى للرقص إحداها فى مساحة ملعب كرة كبير.

ما يدهشك أن عدى ابن صدام كان له أيضا مخبأه الجنسى ففى أحد قصوره عثر الجنود الامريكان على زجاجات شمبانيا وصور لنساء عاريات وصورة كبيرة لابنتى الرئيس الامريكى جورج بوش جينا وبربارا وهما ترتديان فساتين مسائية تكشف عن أجزاء كبيرة من جسديهما.. ويبدو أن عدى كان يريد أن ينتقم من بوش على طريقته الخاصة

صدام فى جيب الأمريكان

أنهت أمريكا علاقتها بصدام حسين بصورة درامية لم يكن لأكثر كتاب السيناريو فى العالم موهبة أن يصنعوا تفاصيلها. الثابت عند الجميع الآن أن صدام كان عدوا ضخما أرق منام الامريكان جميعا.. لكن ما لم تعرف تفاصيله حتى الآن.. هو أن العلاقة بين

صدام حسين وأمريكا قصة طويلة للغاية بدأت بقوة مع الأيام الاولى لحرب صدام على ايران.. ووصلت الى أفضل صورها أيام رئاسة رونالد ريجان.

وقتها كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعتقد أن العراق يمكن أن يلعب دورا محوريا فى تقييد النفوذ الصاعد بقوة لإيران وثورتها الاسلامية.. وهى الثورة التى قضت على حكم شاه ايران الذى كان أقرب الحلفاء لأمريكا فى المنطقة.. كما أن أمريكا كانت تخاف بشدة على مصادر النفط، خاصة فى السعودية والكويت.. وقد خشيت أن تقود إيران ثورات مشابهة لزعزعة أنظمة الحكم فى هذه البلاد فتفقد السيطرة على البترول فى هذه الدول.

صدام نفسه كانت له مصالحه الخاصة جدا فى مد جسور التعاون مع الولايات المتحدة الامريكية.. فقد أخذ منها حائط صد لحمايته من إيران وأفكارها.. فقد كان يخشى على سلطته من امتداد أفكار الثورة الإيرانية فى أوساط الأكراد والشيعة.

وتأكيدا لذلك يرى بعض المسئولين الأمريكيين أن هناك علاقة وثيقة ربطت صدام حسين و الـ CIAبدأت عام ١٩٥٩ عندما كان صدام فى العشرينيات من عمره وتم تجنيده ضمن ستة من زملائه البعثيين وحصل على شقة فى شارع الرشيد بالعاصمة العراقية مواجهة لمكتب عبد الكريم قاسم فى وزارة الدفاع لرصد تحركاته تمهيدا لاغتياله. وهى العملية الفاشلة التى نفذت فى ٧ أكتوبر ١٩٥٩ فر على إثرها صدام إلى القاهرة.

وفى فبراير ١٩٦٣ تم اغتيال عبد الكريم قاسم صاحب التوجه السوفييتى فى انقلاب لحزب البعث. ووفقا لما يؤكده روجر موريس الذى كان موظفا بالخارجية الأمريكية وعضوا بفريق مجلس الأمن القومى، فإن المخابرات المركزية كان لها دور كبير فى وضع صدام على طريق السلطة بتدبيرها لهذا الانقلاب الدموى. ووفقا لموريس كان صدام وهو يدرس بالقاهرة يتردد على السفارة الأمريكية بالقاهرة، ويتلقى راتبا منتظما من الـCIA فى إطار تشجيعها لعناصر من حزب البعث شاركوا بعد ذلك بخمس سنوات فى انقلاب بقيادة احمد حسن البكر الذى كان يرعى صدام منذ فترة وسلمه السلطة فى عام ١٩٧٩.

بعد انقلاب ١٩٦٨ قامت الـ CIA بتزويد الحرس الوطنى العراقى بمدافع رشاشة وبقوائم تضم اسماء الشيوعيين الذين ألقى القبض عليهم وإعدامهم تحت إشراف صدام حسين وبعلم الـ CIA بل إن جيم كيتشفيلد مسئول وكالة المخابرات الأمريكية وقتها أكد أن اغتيال قاسم والشيوعيين كان ينظر له على انه انتصار كبير.

وعندما استولى آية الله الخمينى على السلطة فى إيران عام ١٩٧٩، عملت أمريكا على تحويل صدام إلى "رجل أمريكا فى منطقة الخليج". وأيدته طوال الحرب العراقية. الإيرانية التى استمرت فى الفترة بين عامى ١٩٨٠ و١٩٨٨. فقد قامت الولايات المتحدة بتوفير معلومات سرية لصدام عن مواقع القوات الإيرانية فى حرب الخليج الأولى كما شجعت الولايات المتحدة دول الخليج على تقديم الدعم المادى للعراق فى هذه الحرب. وأرسل الرئيس الأسبق رونالد ريجان مبعوثا رئاسيا خاصا للتحدث إلى صدام حسين. واسم هذا المبعوث هو دونالد رامسفيلد. واستمر هذا التأييد حتى بعد أن استخدمت حكومة بغداد أسلحة كيماوية لقتل الجنود الإيرانيين وآلاف الأكراد فى حلبجة. وقتها اتجه الزعماء الأكراد إلى أمريكا طلبا للمساعدة. وكان السياسى العراقى الكردى، محمود عثمان بين هؤلاء، إلا أن أصدقاءه فى وزارة الخارجية الأمريكية لم يردوا على مكالماته الهاتفية.

والمفارقة أن الجراثيم التى استخدمها العراق فى برنامجه للأسلحة البيولوجية -التى كانت المبرر فى شن الحرب الأمريكية ضده- جاءت من مراكز أمريكية للرقابة والوقاية من الأمراض، وكذلك من مستودع عينات بيولوجية خاص مقره فى منساس بولاية فرجينيا الأمريكية. وأكد مسئولون فى المؤسستين أن شحنات "الجمرة الخبيثة" وفيروس "غرب النيل" وغيرهما من الجراثيم أرسلت إلى العراق فى الثمانينيات، بموافقة وزارة التجارة الأمريكية. ووفقا لجماعة «مبادرة الحظر النووى» ومقرها واشنطن، حتى البرنامج النووى العراقى أنشئ بمساعدة من برنامج لإدارة الرئيس ايزنهاور فى الخمسينيات عرف باسم "الذرة من أجل السلام"

فعلت أمريكا لصدام حسين ماهو أكثر من ذلك.. ففى عام ١٩٨٢رفعت وزارة الخارجية الأمريكية اسم العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب كى تتمكن واشنطن قانونا من تزويد بغداد بالسلاح والاعتمادات الزراعية ووسائل الدعم الأخرى فى حربه على إيران وقد قبلت ادارة الرئيس ريجان اصرار العراق على أن الغارة الجوية العراقية فى عام ١٩٨٧ والتى تسببت فى قتل ٣٧ بحارا أمريكيا على متن السفينة «يو اس اس ستارك» كانت حادثا عرضيا وتغافلت عن استخدام صدام للأسلحة الكيميائية ضد القوات الايرانية وضد الاكراد العراقيين خلال حملة «الانفال» المشهورة.

وفى منتصف ٢٠٠٣ نشرت صحيفة الواشنطن بوست أنه أثناء مراجعة كم كبير من وثائق الحكومة الامريكية التى أطلق سراحها مؤخرا كشفت عن قيام ادارتى الرئيس ريجان وبوش الأب بموافقتهما على تزويد العراق بدعم معلوماتى دعمته الـ CIA واصدر الرئيسان الأوامر ببيع مواد للعراق ذات استخدام مزدوج عسكرى ومدنى.. وقد شملت هذه الصفقة بيع مواد كيميائية وجرثومية.. والجمرة الخبيثة والطاعون.

يوضح ذلك كله.. لماذا أخطأ صدام كليا عام ١٩٩١ فى تقديراته لأهميته الاستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة فقد غضت أمريكا والعالم العربى النظر عن كل مافعله خلال أكثر من عقد من الزمان.. فلماذا يتغير الأمر؟ ولماذا لايمكنه الاستيلاء على الكويت؟.. كان طبيعيا أن يتوقع أن يأتى رد الفعل الأمريكى بطيئاً، ويصبح الأمر الواقع غير قابل للتغيير. لم يتوقع صدام أبدا تذبذب السياسة الأمريكية تجاهه إلى حد استخدام القوة العسكرية لطرده من الكويت. وحتى بعد أن خابت توقعاته لم يتصور أن من وضعوه على طريق السلطة هم أنفسهم من سيسقطونه عن مقعده ولو بعد أربعين عاما.

ذنوب الرئيس المؤمن

عندما كان الصوت الأعلى فى بغداد للقنابل والأسلحة.. وعندما كانت العيون تتعلق بها دون غيرها.. حاول صدام حسين أن يخدع الناس بروحانياته وقواه الإيمانية.. أوحى لمتابعيه أنه لا يستسلم للنوم كل ليلة إلا بعد أن يقرأ بعض آيات من القرآن الكريم..

اعتقد صدام أن تاريخه الدموى يمكن أن ينسى بسهولة وهو التاريخ الملىء بالمؤامرات ومحاولات الاغتيال والسلب والنهب حتى قبل أن يصل إلى السلطة.. وبعد أن وصل إليها منذ أكثر من ربع قرن ظل رمزاً للديكتاتور الذى يضحى براحة شعبه وسلامته من أجل أن يحقق أهدافه.. ضرب معارضيه بشدة، استخدم ضدهم جميع أنواع الأسلحة المحرمة دولياً، لمجرد أنه لم يكن يحب سماع كلمة لا.. شن حروباً ظالمة على جيرانه ولم يراع فيهم دينا ولا رحماً.

بعد كل ذلك حاول صدام حسين أن يخلع رداء الطاغية الذى لا يعرف الله ويصبح ولياً من أولياء الله الصالحين، فعل ذلك كثيراً ومنذ حرب الخليج الثانية فقد أقدم على خداع المسلمين بأنه الحاكم المسلم الذى يحمى الإسلام ويقف ضد حلف الكفار الذى جاء ليدنس الأرض المقدسة، وقد ساعدت الإذاعة العراقية وقتها على إذاعة أغنية كان مطلعها يقول: انقذونا يا مسلمين مكة فى أيدى المشركين.

لم يكتف صدام بذلك لكنه ومنذ سنوات ليست بعيدة أعلن عن الحملة الوطنية الإيمانية الكبرى، منع بمقتضاها تناول الخمور فى أى مكان بالعراق بل أصدر صدام كتيباً صغيراً يحمل اسم الحملة، احتوى الكتاب على كم هائل من الأرقام والإحصائيات بالإضافة إلى شرح مفصل لتوجهات الحملة الإيمانية، فى صدر الكتاب صورة ملونة للرئيس صدام حسين وهو يصلى ويدعو الله مكتوب تحتها: قائد الجمع المؤمن قائد الحملة الإيمانية الوطنية الكبرى السيد الرئيس القائد المجاهد صدام حسين حفظه الله ورعاه.

أنفقت الحكومة العراقية ما يزيد على المليار ونصف المليار دينار عراقى على الحملة الإيمانية، أنفق معظمها على طباعة كتب القرآن الكريم والتربية الإسلامية فى جميع مراحل التعليم، وأنشأ صدام كذلك إذاعة للقرآن الكريم تبث لمدة ١٦ ساعة يومياً وأمر بزيادة الجرعة الدينية فى برامج الإذاعة والتليفزيون وزيادة الأبواب الدينية فى الصحف، وفاز رجال الدين بمساحة أكبر فى وسائل الإعلام تحت شعار الحملة الإيمانية الوطنية،

وأطلق لهم العنان فى المساجد ودور العبادة، بل إن صدام حسين حرص فى كل عام - وتحديداً يوم ٢٨ أبريل - وهو يوم عيد ميلاده على فتح مسجد ضخم فى إحدى محافظات العراق الثمانى عشرة وفى الوقت نفسه يضع حجر الأساس لمسجد جديد.

ومن أهم ملامح حملة صدام حسين الإيمانية التى كانت، أنه حرص على أن يفهم الطالب العراقى القرآن الكريم تماماً عندما ينهى دراسته الثانوية لأن ذلك يحقق أهدافاً مهمة من بينها رفع مستوى الإيمان بالمقدسات وترصين السلوك المعزز بالقيم والعادات الحسنة وقد نفذ المسئولون عن التربية والتعليم فى العراق هذه التوجيهات على التلاميذ بداية من الصف الأول الابتدائى وحتى الصف السادس ومن جميع مراحل التعليم العام والمهنى.

لقد حرصت الصحف العراقية أن تنشر كل ما يشير إلى أن الله يؤيد صدام حسين ويبارك خطاه.. أحد الكتاب العراقيين كتب فى صحيفة القادسية: قبل أيام حدثنى رجل تقى عن حلم راوده فى منامه قال: رأيت الرئيس صدام حسين وسط بحر هائج كان يرتدى جلباباً أبيض وفى لجة الموج جاء طائر عملاق وحمله إلى الأفق وتفسير الحلم أن هناك قوة ربانية تنقذ قائدنا من خطوب الدهر، ثم حكى الكاتب نفسه قصة أخرى عن سيدة عراقية معروفة بالزهد والتقوى رأت فى منامها أن إماماً يرتدى جلباباً أبيض، أطل عليها بوجه ربانى وخاطبها قائلاً: قولى لأعداء صدام حسين أن يكفوا عن عدوانهم، إن الله يريد هذا الرئيس ويحرسه من كل مكروه..

وهذه قصة ثالثة حيث أكدت سيدة طاعنة فى السن أنها رأت الرئيس القائد فى منامها بهيئة عملاق مبتسم يترفع عن الرد على أقزام يحاولون مس أذيال جلباب أبيض يرتديه، لم يكتف صدام بنبؤات المسلمين، ولذا استعانوا بالسيدة العذراء.. شابة مسيحية اسمها فداء حكت لصحيفة بابل أنها شاهدت امرأة تشبه السيدة مريم العذراء وبقربها كان يجلس السيد المسيح وذلك بعد أن كانت تصلى وتطلب من الله أن يمن على بلدها بالسلام والخير.. شمت الشابة المسيحية رائحة زيت طيبة انتشرت فى بيت فداء، ولم

تجد ما تقوله إلا أن هذه الرؤيا هى رسالة حب للعراق العظيم الذى يعيش حالة ضيق وأنه سيخرج منها سالماً بفضل إيمان الرئيس صدام حسين.

هذه الحالة من الأحلام والرؤى كان صدام يساعد ويدعم نشرها وانتشارها بين الناس معتقداً أنها تدل على إيمانه واعتقاد الناس فيه، رغم أنها كانت تعكس حالة عجز عام، فقد فشلوا فى التغيير وصودرت منهم القدرة على التعبير وتدهورت أموالهم حتى إنهم أصبحوا غير قادرين على ممارسة العيش بكرامة، ولذلك راحوا يلتمسون العون من الأحلام وأولياء الله الصالحين والسيدة العذراء وسيدنا المسيح.

لقد تاجر صدام حسين بالإسلام.. وبالله.. وبالمسلمين مرة واحدة.. حرص وبأداء تمثيلى أن تظهر صوره فى جميع أوضاع الصلاة والعبادة.. وهو يصلى راكعاً وساجداً وواقفاً.. وهو بملابس الإحرام.. وهو يقرأ فى المصحف.. وعندما كان يخطب فى جنوده كان يقول لهم دائماً: «اطمئنوا فإن قتلاهم فى النار وقتلانا فى الجنة».. ما يحز فى النفس الآن أن آلاف الأبرياء من العراقيين وعلى مدى ما يزيد على ربع قرن من الزمان هى عمر حكم صدام.. سفكت دماؤهم باسم الله رغم أن الله برىء من سفك الدماء.. دماء هؤلاء فى رقبة الطغاة الذين لا تشغلهم الرقاب المتطايرة ولا الأجساد التى تتحول إلى أشلاء.. ماداموا يحققون أهدافهم وتملأ خزائنهم بالأموال.. حتى لو صادروا من البسطاء حلاوة إيمانهم بالله.. وجعلوا منه سلعة يبتاعونها فى سوق النخاسة.

بعد أن سقط صدام حسين فى يد أعدائه سقوطاً مهيناً.. وضح لملايين البسطاء فى أرجاء العالم الإسلامى الذين رفعوا أكف الضراعة كى ينصر الله صدام.. أنهم كانوا يدعون من أجل جبان متخاذل لم يحافظ على بلده.. لم يقاتل قتال الشرفاء.. نزل قبوه خائفاً مذعوراً مخلفاً وراءه ملايين الآهات والأحزان التى اعتصرت العالم العربى والإسلامى.. وهى الأحزان التى أفقدت الناس الثقة فى دينها.. شعروا أن الله الذى صدره صدام حسين لهم فى مقدمة الصورة تخلى عنهم، رفع يده من صفوفهم وتركهم يواجهون بشراسة جنوداً لا يرحمون.. يسحقون كل ما يقابلهم.. حتى لو كان كتاباً مقدساً نزل من السماء.

مصير العائلة المنكوبة!

فى صوره العائلية كان صدام حسين يبدو للحظة أبا يعشق أبناءه يقف بين ولديه عدى وقصى وكأنه ـ ورغم كل كوارثهما من وجهة نظر الناس طبعاً ـ يفتخر بهما.. وكان له الحق فقصى كان يده التى يبطش بها وعدى رغم المتاعب التى سببها لعائلته ولوالده شخصياً فقد وصل به الأمر إلى أنه حرمه من بعض عشيقاته.. إلا أنه كان سيفاً فى يد صدام يضرب به من يشاء وقتما شاء.

صورة أخرى ربما صنعها صدام حسين بعناية لمغازلة الإعلام ليس فى العراق فقط ولكن فى الغرب أيضاً.. يستلقى على ظهره ضاحكاً وإحدى بناته تجلس على بطنه والسعادة تغمر وجهها.. صورة ثالثة تجلس فيها إحدى بناته أيضاً فى اجتماع لمجلس قيادة الثورة.. ورغم أنها تعكس حنان صدام الذى لا نستطيع أن نشكك فى صدقه على أبنائه.. إلا أنه يعكس حالة استخفاف عامة بالحكم والشعب والدولة.

صورة خامسة يجلس فيها صدام حسين بين أفراد عائلته الكبيرة الأبناء والبنات وأزواجهن والأحفاد وهو بنفسه يعد لهم الطعام الذى هو عبارة عن أسياخ الكفتة.. وكأنه يريد أن يؤكد للعالم أنه يطعم أسرته بنفسه.

فى كل الصور تشعر بقدرات الممثل عند صدام حسين.. فالصور كانت للإعلام ليس إلا.. ولم يكن صدام وحده هو الذى يفعل ذلك.. فالقذافى فعل ذلك أيضاً فبعد أن أغار الرئيس الأمريكى رونالد ريجان عليه فى مقر إقامته فى طرابلس عام ١٩٨٦.. حرص القذافى أن يبث صورة عائلية له بين زوجته وأبنائه وكانت هذه هى المرة الأولى التى تظهر فيها زوجة القذافى.. ووقتها قال القذافى: لقد أردت أن أقول للأمريكان إننى رب أسرة ولست إرهابياً كما يزعمون.

نعود إلى صدام حسين وعائلته.. التى تشردت ولقيت مصيراً قاسياً.. فعدى وقصى لقيا مصرعهما على يد القوات الأمريكية فى يوليو الماضى فى مدينة الموصل وعرضت صورة جثتهما فى جميع وسائل الإعلام بلا رحمة.. وكما لقى النشر استياء شديداً لدى

لبعض.. فإن الملايين من أبناء الشعب العراقى أعلنوا عن فرحتهم.. فلم يكن صدام وحده هو مصدر الرعب للعراقيين.. لكن نجليه أيضاً كانا أشد منه قسوة.. يد القتل لم تمتد إلى النجلين فقط.. فقد قتل معهما حفيد صدام (مصطفى).

وبينما استطاعت ابنتاه رغد ورنا من الهروب إلى سوريا ومنها بعد ذلك إلى الأردن حيث تقيمان هناك ويتعلم أبناؤهما فى مدارس الأردن.. فإن ابنته الصغرى (حلا) مازالت مختفية لا يعرف أحد عنها شيئاً.. وقد تفضح الأيام مكانها، ولا أحد يستطيع الآن أن يقدر شعور بنات صدام بعد أن رأين أباهن وهو مثل الفأر المذعور بين يد الأمريكان بعد أن عشن معه أيام المجد والعزة والسيطرة والقوة.

مصير بنات صدام حسين المجهول أهون كثيراً من مصير صهريه زوجى رغد ورنا وهما صدام كامل وحسين كامل ابنا عمومته فقد قتلا فى هجوم مسلح على منزليهما فى بغداد نفذه بعض أفراد من عائلة صدام عام ١٩٩٦.. قادهم إليهما الابن الأكبر عدى.. وقد تم الهجوم بعد أيام من عودتهما من الأردن بعد أن فرا إليها مع زوجتيهما عندما شقا عصا الطاعة على صدام حسين.. وقد قتل معهما أبوهما الذى كان ابن عم صدام حسين وقد نجت الابنتان من نفس المصير بعد أن هددت ساجدة والدتهن بأنها ستنتحر إذا تعرضت البنتان لسوء.. وهذا عندما علمت أن القرار صدر بقتل الجميع.

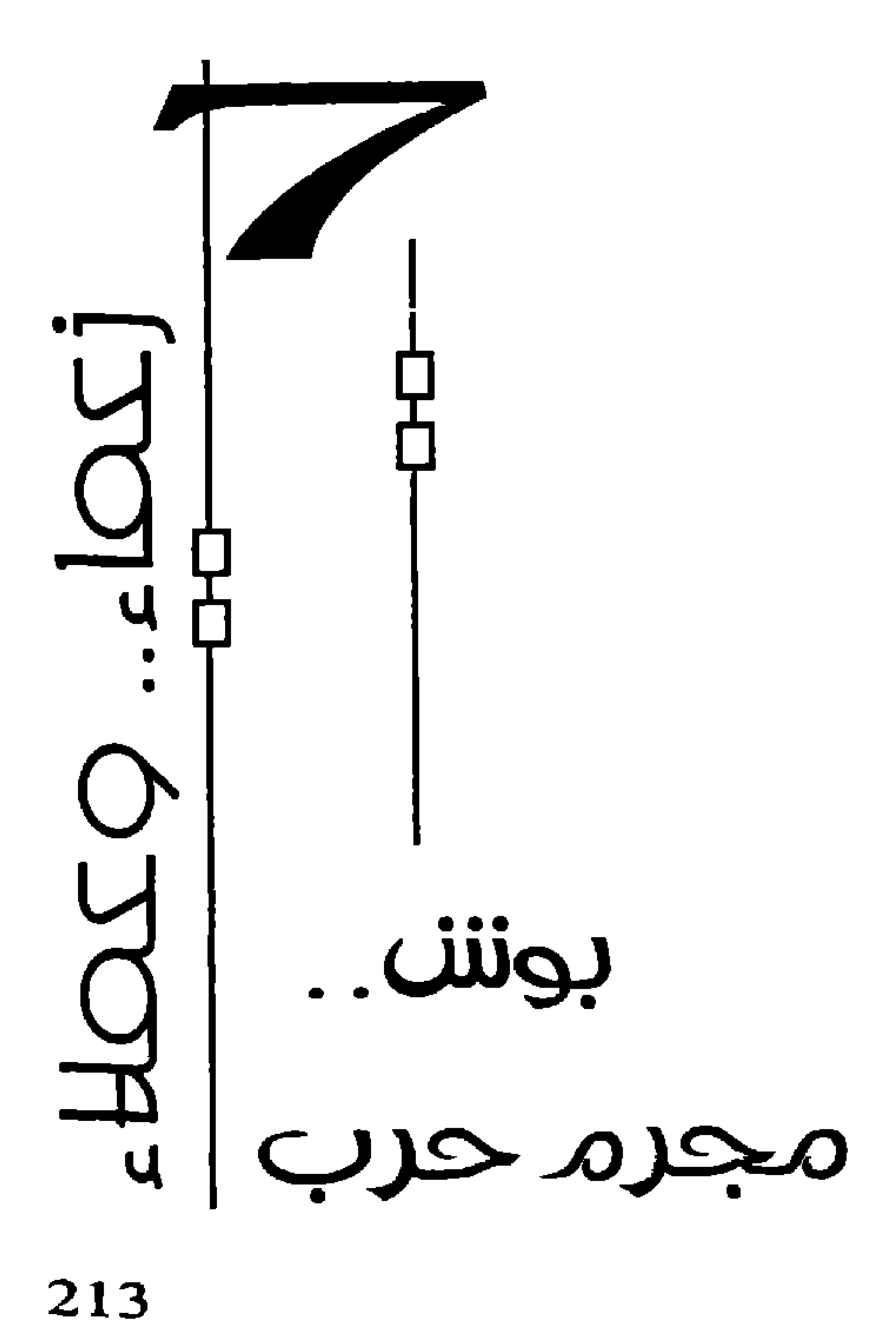
لا يعرف أحد مصير ساجدة صدام الزوجة الأولى للرئيس العراقى الأسير لكن زوجته الثانية سميرة شهبندر تشير الأخبار أنها تعيش فى لبنان مع ابنها (على) الذى تطلق عليه (حسن).. وقد أدلت سميرة بحوار طويل إلى جريدة «الصنداى تايمز» البريطانية.. وأكدت الجريدة أنها قابلتها فى أحد مطاعم بعلبك شرقى لبنان.. لكن عادت السلطات اللبنانية وأكدت فى بيان رسمى أن سميرة لا تعيش فى لبنان، ولا ندرى من نصدق الجريدة البريطانية أم السلطات اللبنانية؟!

وفى تقرير نشرته الشرق الأوسط عن مصير عائلة صدام المأساوى قالت: ولصدام ثلاثة إخوة غير أشقاء من والدته هم: برزان ووطبان إبراهيم الحسن وقد اعتقلا فى

أبريل الماضى، وسبعاوى إبراهيم الحسن الذى لا يزال مختفياً عن الأنظار، كما أن صهر صدام الثالث زوج ابنته (حلا) جمال مصطفى عبدالله اعتقل فى أبريل الماضى، هذا إضافة إلى عدد آخر من أبناء أعمام صدام وأبناء أخواله قد اعتقلوا وأشهرهم على حسن المجيد المعروف باسم (على كيماوى) ويبدو أنه كان الكيماوى الوحيد فى العراق وكان مسئولاً عن تنظيمات حزب البعث فى كردستان العراق أثناء ضرب مدينة حلبجة وغيرها من المناطق الكردية بالأسلحة الكيماوية عام ١٩٨٨.

هذا مصير العائلة كامل.. وقد صنعه صدام بيديه.. وها هو يجنيه الآن. وهو سجين فى غرفة منعزلة بين يدى أعدائه الأمريكان الذين وعد أن يبيدهم فأبادوه.

■ ■ ■


7
زعماء.. وعملاء
بوش..
مجرم حرب

كادت الفرحة تقفز من عينى بوش الصغير وهو يتحدث عن اعتقال صدام حسين، كانت ملامح وجهه التى لم تعرف الراحة منذ شهور مسترخية للغاية، ليس لأنه أمسك بالثعلب الكبير الذى أوهم الأمريكان أنه يريد إبادتهم، ولكن لأنه يعتقد أن صورة صدام وهو مثل الفأر المذعور بين أيدى الضابط الأمريكى يمكن أن تمنحه فترة رئاسة ثانية.. وتقوم بعملية غسيل سياسى لكل ما فعله ليس فى شعب العراق فقط ولكن فى شعبه أيضا.. فعلى يديه فقدت أمريكا جانبا كبيرا من الأساس الذى قامت عليه.. كان بلدا للحرية.. فإذا به يتحول إلى سجن.. يعتقل فيه المواطنون لأنهم يرفضون ما يقوله الرئيس.. ويعذب فيه المعارضون لأنهم فكروا ولو للحظة واحدة أن يخرجوا عن النظام!

عندما سقط صدام.. خرجت مرة أخرى كل ملفات ديكتاتوريته وبطشه واعتدائه السافر على حياة شعبه.. أصبحت الكلمة الأولى لأمريكا.. صدرته للعالم كمجرب حرب.. ومشى الجميع خلفها.. لا نستطيع لأسباب عاطفية هزلية أن ننكر أن صدام حسين من عتاة مجرمى الحروب، لكن جورج بوش أيضا مجرم حرب.. والمستفز فعلا أنه ورغم انتهاكه كل القوانين والمواثيق الدولية.. وسرقته للأوطان ومباركته للصوصية إسرائيل.. يحاول أن يرتدى ثوب البراءة والطهارة والنقاء.. ويدعى أنه نبى الديمقراطية والحرية الجديد الذى أرسله الله لهداية شعوب الشرق الأوسط.. ليس هذا ادعاءً فقد قالها نصا: أنا رسول الله لهداية المسلمين.. لم يوضح بوش إلى أى شىء سيهدى المسلمين.. لكنه أعطى نفسه الحق كاملا أن يقتل وينهب ويدمر ويرهب.. ثم يطالب

الآخـرين أن يعتـرفوا لـه بالحكمـة ومن يرفض فليس له عنده إلا الإبـادة.. فـمن ليس . بوش.. فهو عليه!

انفـرد جـورج بوش بالسـاحـة وحـده.. خـلا المسـرح من كل خـصـومـه. صـدام حـسين محجوز فى غرفة ضيقة فى مطار بغداد.. وأسامة بن لادن مطارد فى جبال أفغانستان.. والحكام العـرب جـميـعـا أعلنوا خضـوعـهم وإذعـانهم التـام.. فلم يعـتـرض أحـدهم على الطريقـة المهينـة التى تم التـعـامل بهـا مع صـدام حـسين.. وكل مـا فـعلـوه ـ لا أكثـر الله من أمثالهم ـ أنهم طالبـوا أن تكون محـاكمـة رئيس العراق المخلوع عادلة، يطلبـون فى ضعف وتخاذل أن يرحم الجـلاد ضحيـتـه.. ألا يقتل القناص النذل فـريسته بعـد أن وقعت فى يده بطريقة أذهلت حتى الذين مازالوا يعتقد أن صدام حسين ولى من أولياء الله الصالحين.

انفـراد بوش بالمسـرح قـد يكمم أفـواه الآخـرين.. يجـعلهـم يتـقـدمـون له بالقـرابين كى يرضى عنهم ويقـربهم إلى جنتـه التى وعـد بهـا من يؤيده ويـناصـره ويقف إلى جواره، لكن ذلك كله لن يمحـو تاريخه الدمـوى.. وتفاصيل حياته التـى تجلب على صـاحـبهـا العـار.. لن تكسبـه احتـرامـا يفتـقـده منذ دخل البيت الأبيض.. ولن تجـعل فقـراء العـالم ينظرون إليـه على أنه مـخلصـهم ومنقـذهم.. سـيظل شبـح ضـحـاياه من أطفـال العـراق وشبـابهـا يطـارده ويؤرق نومه ويقلق منامه!

لم يكتشف الناس فجأة بعـد اعتقـال صدام حسين أن جورج بوش مجـرم حرب.. سفاح قاتل.. ديكتاتور.. ولكنهم عـرفوا ذلك منذ أن ذهب منفردا ليشن حربا ضـد العراق ضاربا بالأمم المتـحـدة ومـجلس الأمن عـرض الحـائط.. فى المظاهـرات التـى خـرجت فى كل دول العـالم ترفض ضـرب العراق رفـع الجـميـع لافـتات تقـول: بوش قـاتل جمـاعـى وبوش مجـرم حـرب ومـحـور الشـر هو البنتـاجـون.. وقبـل أن يقدم المتظاهـرون دليـلا على جـرائم بوش.. أعطاهم بنفسـه مـا يحـتـاجـون.. وأكـدت صـور الـضـحـايا فى شـوارع ومـيـاديـن العـراق أن جورج بوش رجلا بلا قلب.. ودعمت مشاهـد ضحاياه فى أفغانستان صورته الدموية.

فعلى شاشـات التليـفـزيون رأينا الجـثث ملقـاة على الأرض وفـى الصـحـارى وعلى سـفـوح الجبـال وفـى الخيـام والوديان.. ورأينا أطفـالا لا حـول لهم ولا قـوة وهم يبكون بعـد أن فقـدوا

عائلهم.. وقد أصابتهم النيران الأمريكية التى هى ليست صديقة.. يحتاجون إلى من يعالجهم ويداوى جراحهم. لكن لا أحد ينقذهم فالسيد الأمريكى قد قدر.. ولا راد لقضائه وقدره.

لقد رأينا فى أفغانستان والعراق وفلسطين بيوتا وقد تحولت إلى كومة من التراب، وقد دفن تحتها ساكنوها دون أن يهتم بهم أحد ودون أن يطالب بحقوقهم أحد، رأينا الآلاف من الرجال والنساء وقد تشوهت أجسادهم.. بترت أعضاؤهم وشوهت وجوههم وضاع مستقبلهم.. لا لشىء إلا لأن السفاح الأمريكى يريد أن ينتقم ممن مرغوا أنفه فى التراب وجعلوه يركع فى ١١سبتمبر.

أن جورج بوش لا يختلف فى كثير أو قليل عن صدام حسين.. فإذا كان صدام حسين قد حكم شعبه بالحديد والنار فإن جورج بوش يريد أن يحكم العالم كله بالحديد والنار، وإذا كان صدام حسين قد ابتكر وسائل متعددة للتعذيب والانتقام من معارضيه فإن جورج بوش لم يتورع فى اتباع أعنف وسائل وطرق التعذيب للحصول على اعترافات من أسرى جوانتانامو، وإذا كان صدام حسين قد تنكر لكل قرارات المجتمع الدولى.. ورفض كل المواثيق الدولية واتفاقيات جنيف التى حرمت الاعتداء على المدنيين وضرب المنشآت المدنية وإتلاف الحقول والمزارع والمساس بالمؤسسات العلاجية والإنسانية واعتبرت كل خروج على هذه القواعد جرائم حرب، داس بوش على كل هذه القواعد بقدميه وهو فى طريقه إلى بغداد.. ذبح أطفالها وضرب مدنييها فى الأسواق وهدم المستشفيات على رؤوس المرضي، وإذا كان صدام حسين قد اغتصب نساء معارضيه أمام أعين أزواجهم، فإن جنود جورج بوش اغتصبوا نساء العراق ولم يتحرجوا من فعلتهم.. بل نشروا الصور زيادة فى الإذلال وإمعانا فى إهانة شعب العراق الذى قال لا.. وكان يعتقد أنه يؤيد قائدا وزعيما فإذا به يجده هزيلا.. ضعيفا متخاذلا.

لقد خدعنا بوش جميعا.. حاول أن يبدو أخلاقيا وحاول أن يبدو متدينا.. وقامت آلته الإعلامية الشرهة بتصويره رجلا تقيا فهو لا يبدأ يومه إلا بعد أن يقرأ بعض مواعظ الكتاب المقدس القصيرة التى صاغها «أزوالد تشمبرز» المبشر الإسكتلندى الجوال الذى

كان ينشـر تعاليم الإنجيل فى صفوف الجنود البريطانيين فى مصر خلال الحرب العالمية الأولى.. وهو لا يتحرك إلا بتعاليم المسيحية ولذلك قال الصدق فى البداية عندما أعلن أن الحرب التى سوف يشنها على الإرهاب هى حرب صليبيـة فعاد واعتذر بعد ذلك.. لكنه كان قد فعل المصيبة وانتهى الأمر.

حياة جورج بوش ليس فيها ما يشرف.. وحتى لو اعتقد الأمريكان أن اعتقاله لصدام حسين وانقـاذهم من خطره يشفع لـه.. لقد ولد جورج بوش عام ١٩٤٦، نشـأ فى أسـرة تهتم بالدولار أكثر من اهتمامها بالكنيسة، وكان «بريسكون بوش» مؤسس العائلة واضحا للغاية عندما أعلن لأبنائه وأحفاده عقيدته الوحيدة وهى «أصنع الثروة أولا وبعدها انغمس فى السياسة.. أنا تركت لكم الاسم والصفوة ولكن بأصوات المرشحين اثبتوا أنكم تستطيعون الفوز».

كان بوش الصغير نموذجا مثاليا لما أراده جده.. لكنه تميز عنه بالوصولية واستغلال نفوذ والده فبعد أن أخذ منه ثلاثة ملايين دولار لينهض بشركة البترول التى كان شريكا فيها، عاد فى عام ١٩٩٠ وباع كل أسهمه فيها، فعل ذلك بأعلى سعر مستغلا وجود أبيه فى السلطة، ولم يشغل باله ما إذا كانت الشركة ستنهار من بعده أم لا، وبعد أن كون الثروة اتجه إلى السلطة، كون فريقا لكرة القدم الأمريكية فى ولاية تكساس حقق من خلاله شهرة كبيرة مكنته بعد ذلك لأن يصبح حاكما لها عام ١٩٩٤.

وفى عام ١٩٩٨ مارس هوايته فباع أسهمه فى فريق تكساس محققا ١٥مليون دولار من الأرباح أضيفت إليها ١٠٪ من رأسمال الفريق تركها له المساهمون تقديرا له منهم على وجودهم كمستثمرين فى الفريق، ولم تكن الـ ١٠٪ هبة لوجه الله ولكنها كانت صفقة فقد استغل بوش الصغير نفوذه أثناء توليه حكم ولاية تكساس واستولى على قطعة أرض كبيرة بنى عليها استادا ضخما للفريق وقام برفع الفائدة على مبانى الولاية، فكانت الـ ١٠٪ من رأسمال الفريق هدية على خدماته التى قدمها لمستثمرى الفريق، أى أن بوش كان يعمل على طريقة «شيلنى وأشيلك» كما يقول أولاد البلد فى مصر.

لم تخل شخصية بوش الصغير من ملامح الشخصية الانتهازية، فرغم أنه وعد ناخبيه بأنه لن يعتمد على الطاقة الآتية من احتياطى بترول الاسكا وأنه سيساهم فى إنشاء مصادر طبيعية للطاقة، لكن وعوده ذهبت كلها أدراج الرياح، لأن بوش حافظ أكثر على علاقته باللوبى المسيطر على البترول فى أمريكا لأنه وصل إلى كرسى الرئاسة بأموال هذا اللوبى.

الانتهازية فى شخصية بوش لم تبتعد كثيرا عن النفاق والادعاء فى تاريخه وشخصيته، كان ولا يزال يدمج نفاقه بالدين.. وفى ملفاته التى صنعها الإعلام بعناية أنه يستيقظ كل يوم فى الساعة الخامسة والنصف صباحا وينام فى الساعة العاشرة مساء، وأنه يرفض نظرية داروين تماما.. إذ كيف يأتى الإنسان من سلالة قرود وقد خلقه الله فى أحسن صورة، ليس هذا فقط بل أن بوش إنحاز كلية إلى العلاقات الشرعية واعتبرها الوسيلة الأفضل لمحاربة الإيدز، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يقوم بحملة شرسة وقف وراءها بكل قوته من أجل مواجهة ممارسة العادة السرية لدى الشباب والبنات فى أمريكا.

حاول بوش أن يمرر ومنذ ١١سبتمبر أن الله إختاره لحرب ضد الإرهاب وضد محور الشر ولم يتردد فى أن يقول لنواب الكونجرس أكثر من مرة إن دورهم الأساسى الذى ليس لهم دور غيره هو أن ينفذوا مشيئة الرب على الأرض، ولن تتعجب بعد ذلك عندما تعرف أن بوش حرص وبشدة على أن يقول لوسائل إعلامه إنه يحرص على بدء يومه بصلاة صغيرة، كما أنه لابد له من قراءة جزء من الكتاب المقدس كل يوم، كما أنه فى كل اجتماع له مع أعضاء إدارته لابد أن يبدأه بتلاوة صلاة.

وفى سلسلة خداعه حرص بوش على أن يبدو رجلا متدينا قحا.. بل إنه طالب إدارته أن يكونوا مثله، والموقف يبدو جليا مما حدث مع «ديفيد فروم» مؤلف كتاب «بوش الرجل المناسب لتيار اليمين» وهو الكتاب الذى صدر مع الأيام الأولى لعام ٢٠٠٣، المؤلف كان واحداً من كتاب خطابات الرئيس بوش، التحق ديفيد بالعمل فى البيض الأبيض، كان

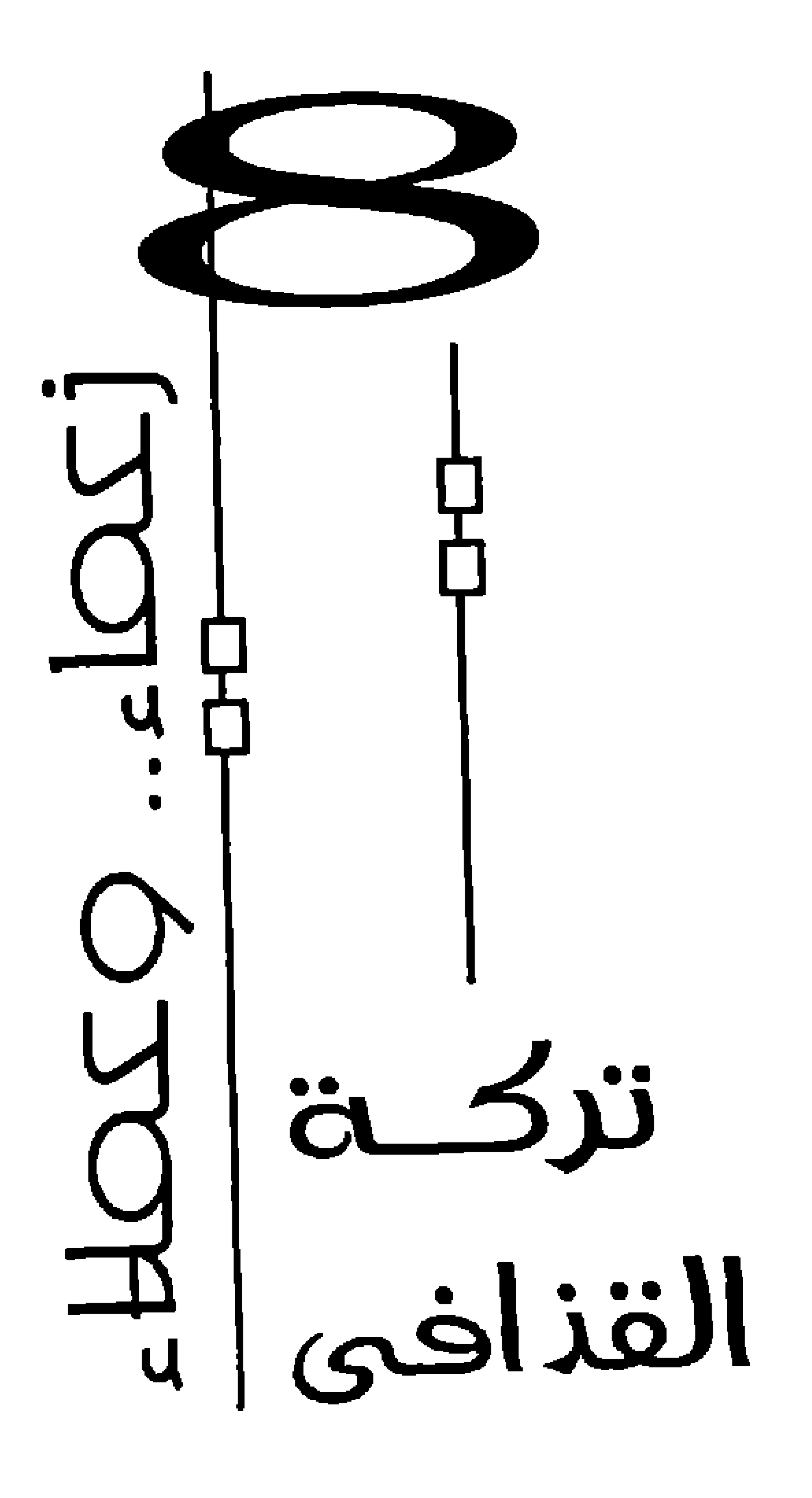
ينتظر أن يستمع تعليقا سياسيا ساخرا أو نكته لاذعة تنتقد سياسة أمريكا التى بدت متأرجحة مع قدوم بوش، لكنه سمع تعليقا مختلفا تماما، فقد كان أول ما تردد أمامه من كلام فى كواليس إدارة بوش التى تحكم أمريكا وتريد أن تتحكم فى مقاليد العالم «افتقدناك عندما تغيبت عن درس الإنجيل».

كان المعنى واضحا للغاية.. فبوش لم يتغير هو فقط ولكنه قرر أن يغير العالم كله ويجعله خاضعا باسم الله، حتى لو كان ما فعله فى أفغانستان والعراق، وما سيفعله بعد ذلك فى دول كثيرة قادمة يخالف أبسط قواعد الأديان التى تكره الحروب وتعتبرها انتهاكا لكرامة البشر واعتداء على آدميتهم.

فى أى شىء يختلف بوش عن صدام حسين إذن.. لقد حاول صدام أن يصور نفسه على أنه خليفة للمسلمين يمكن أن ينقذهم مما يريده بهم الغرب، وها هو بوش يرتدى ثوب مسيح جديد ليخدع به الغرب ويقول لهم إنه سيخصلهم من شرور المسلمين الذين يريدون أن يشنوا عليهم حربا عامة بأسلحة الدمار الشامل.

بوش فى النهاية ليس إلا مجرم حرب.. وكما تجب محاكمة صدام حسين على جرائمه تجب محاكمة بوش على جرائمه أيضا.. لكن من يبعث الروح فى ضمير المجتمع الدولى الذى نام واستراح على الكتف الأمريكى.

■ ■ ■


8
زعماء.. ومواقف
تركة
القذافي

لا أحد يعرف الآن ما هى مشاعر الرئيس الليبى معمر القذافى؟! هل هو سعيد بتصريحاته الأخيرة التى ألقى بها كل تاريخه ونضاله وكلامه عن الثورة والمقاومة فى سلة مهملات أمريكية؟ أم هو حزين لأن الساحة لم تعد ساحته.. والمشهد لم يعد مشهده.. وأن الستار نزل عليه وهو واقف على المسرح.. فكان لابد له أن ينزل بدلا من أن يجد نفسه بين يدى جندى أمريكى يعبث بشعره ولحيته ويفتش فى فمه وبين أسنانه!

الصورة من بعيد تشير إلى أن المناضل القديم تعب.. والأسد العجوز تساقطت أسنانه وقد يعترض البعض فالصورة لم يكن فيها أى نضال ولا حتى ظل لأى أسد.. لكننا مضطرون للتعامل مع ظاهر الصورة.. رغم قناعتنا أن المناضلين لا يركعون بسهولة.

اهتم الجميع بما صرح به القذافى.. وما رماه تحت أقدام أمريكا وإسرائيل من استعداده للتخلى عن كل أسلحة الدمار الشامل التى يملكها، ثم حاول التأكيد أنه أصبح رسولا للسلام فدعا كلا من سوريا وإيران أن تحذو حذوه.. وفوق ذلك ولأول مرة تنازل عن عنفه فى الحديث عن إسرائيل.. وهو العنف الذى كان يميزه ويبعث بالحرارة فى الأحاديث التى كان يدلى بها.. لكن لم يفكر أحد لماذا فعل القذافى ما فعل؟! لماذا قضى على كل أساطيره بجرة قلم؟!.. تعاملوا معه على أن القرار الأخير كان قراره وحده.. وهو ما لم يكن صحيحا بالمرة!

فمنذ سنوات ظهر أبناء القذافى على الساحة السياسية فى ليبيا.. وقد مثل ظهورهم تحولا أساسيا فى بناء السلطة وما يمكن أن يكون عليه مستقبل الجماهيرية.. اعتقد

البعض وقتها أن تقارب أعمار أبناء القذافى قد يسهم بشكل كبير فى زيادة الاحتكاكات والنزاعات بينهم.. لكن هذا لم يحدث حتى الآن على الأقل.. وخاصة بعد أن تم تقسيم المهام على الأبناء وأصبح كل واحد منهم يعرف دوره.. «فمحمد» يشرف على قطاع الاتصالات و«سيف» صرف اهتمامه كله للشئون الخارجية والعلاقات الدولية، «الساعدى» اهتم بالرياضة هذا غير نشاطه الاقتصادى الهائل داخل ليبيا. و«المعتصم» اتجه إلى القوات المسلحة بينما اهتمت «عائشة» بالجوانب الثقافية والاجتماعية!

هذا التقسيم جعل أبناء القذافى يفرسون أقدامهم فى بحر السياسة.. وجعلهم يعلمون أن الأيام مهما طالت فإن السلطة جميعها ستكون فى النهاية لهم.. وهو ما كانت له آثاره.. فمنذ شهور أعلنت بعض الجبهات المعارضة أن القذافى يتجه إلى تعيين ابنته عائشة نائبة له تمهيدا لتولى الحكم فى الجماهيرية من بعده.. ولاقت هذه الشائعة قبولا لدى قطاعات كبيرة من المتابعين للشأن الليبى.. ولم يكن لديهم ما يمنع من تصديقها، خاصة أن القذافى كان قد استعان بحراسة خاصة له من النساء وقال وقتها أنه استعان بالنساء لحراسته لأنه لم يعد فى العرب رجل واحد يمكن أن يعتمد عليه.

عائشة من ناحيتها حاولت أن تنكر أية نية لديها للعمل بالسياسة.. بل إنها أكدت أكثر من مرة أنها لا تهتم بالسياسة من قريب أو بعيد، عائشة تبلغ من العمر ٢٥عاما وحاصلة على الدكتوراه من جامعة السوربون.. ولها حضور ضخم بلباقتها ورشاقتها ونشاطها البارز فى مجال الخدمات الإنسانية وحتى عندما زارت عائشة العراق بقافلة ضخمة لتقديم المساعدات الإنسانية لشعبها أكدت أنها لم تفعل ذلك لأى أغراض سياسية.. بل أقدمت على الزيارة وفى ذهنها المساهمة فى تخفيف الحصار الظالم على الشعب العراقى.. ولم يفت عائشة أن تؤكد أن جمعيتها الخيرية لا تهتم إلا بتقديم المساعدات الإنسانية وبخاصة للدول الإفريقية الفقيرة.. كما أنها تهتم من خلال فروعها التى تمتد إلى دولة عديدة بمكافحة المخدرات.

صفحة عائشة فى المشاركة فى الحكم تكاد تكون طويت تماما.. لكن تبقى صفحة الساعدى وهو الابن الذى زادت سلطاته وسطوته فى ليبيا من خلال سيطرته وثروته التى كونها من خلال استثماراته الداخلية فى الجماهيرية.. حاول الساعدى أن يصل إلى الحكم.. وبالفعل كانت هناك محاولة للانقلاب على والده.. لكنها وقبل أن تكتمل تمت السيطرة عليها. ولأن الساعدى ابن قوى للعقيد فتم الاكتفاء بإبعاده لفترة عن المملكة.. وجاء به أحمد قذاف الدم - الذى قام بعدة أدوار مهمة فى تنسيق العلاقات المصرية الليبية - إلى مصر!

بعض المراقبين للشأن الداخلى الليبى اعتقدوا للوهلة الأولى أن وجود الساعدى فى مصر كان بقصد إفساده.. فهو كان يهتم بأمور والبيزنس أكثر من أى شىء آخر.. وانغمس الساعدى حتى أذنيه فى مصر للدرجة التى أشيع أنه دخل على نساء أحد فنادق القاهرة فى حمامهن الخاص.. وكانت فضيحة لم ينجه منها إلا تدخل بعض المسئولين.. كان علاج الموقف مع الساعدى بدائيا للغاية.. فقد تطلع لأن يخلف أبيه.. فما كان منهم إلا إبعاده التام عن الأدوات التى يمكن أن تؤهله لذلك.. قد يكون ما قيل عن الساعدى مجرد شائعات مثل الشائعة التى التصقت بعائشة.. لكنها فى النهاية تدل على أن أوضاع السلطة فى ليبيا كانت متأرجحة لدرجة كبيرة. وأن القذافى الذى كان يقبض على جميع الأمور بيد من حديد بدأت قبضته ترتخى بشدة.

بعد عائشة والساعدى احتل سيف الصورة كاملة.. فقد ظهر فى مقدمة المشهد الذى استسلم فيه القذافى كلية للأمريكان.. وظهر أنه كان وراء المحادثات والمفاوضات التى أنهاها القذافى بإعلانه تخليه عن أى أسلحة دمار شامل يمتلكها.و لم يكف سيف عن التصريحات.. قال لجريدة الشرق الأوسط السعودية إن ليبيا سوف تدخل فى اتفاقية عسكرية وأمنية مع الولايات المتحدة أملا فى أن تصبح ليبيا فى حماية أمريكا.. وبرر سيف ما حدث بأن ليبيا تعهد بتوفير كل المطلوب منها للمؤسسات الدولية التابعة للأمم المتحدة.. ولذلك فلابد أن يقوم المجتمع الدولى بحمايتها لذلك ستكون هناك اتفاقيات

تعاون مشترك عسكرى وأمنى مع أمريكا.. بل إن هناك عسكريين أمريكيين سيزورون ليبيا قريبا للإطلاع على احتياجاتها من الحماية العسكرية المتنوعة.. ليس هذا فقط بل إن هناك مشاورات سابقة لعقد اتفاقات أمنية وعسكرية متنوعة مع الأمريكان ينتج عنها إجراء مناورات عسكرية مشتركة فى المستقبل.

سيف الإسلام ملأ الدنيا حديثا حاول من خلاله أن يؤكد سلامة نية بلده.. فهى تملك فقط مصانع لإنتاج الصواريخ معظمها من طراز «سكود - بى» قصيرة المدى أى ٣٠٠كليومتر تقريبا، وستبقى هذه على حالها دون أى تفكيك.. أما ورش إنتاج الصواريخ البالستية طويلة المدى فلم تصل بعد إلى مرحلة الإنتاج.. وهذه المشروعات ستتوقف الآن كما ستتوقف مشروعات إنتاج الأسلحة الكيماوية والجرثومية والنووية.

معنى ذلك أن ليبيا لم تكن تملك شيئا ذا بال.. لكنها بالغت فى كرمها وصرح العقيد أنه سيتخلى عن أسلحة لا يملكها من الأساس.. ليس هذا مهما الآن.. فقد حاول سيف أن يؤكد إنسانية الرئيس القذافى فذكر أن ليبيا كانت قد قررت قصف قاعدة عسكرية أمريكية بجزيرة كريت اليونانية عام ١٩٨٦ كرد على القصف الأمريكى الذى حدث ذلك العام لبنغازى وطرابلس وراح ضحية له ٢٠١ قتيل ليبى من بينهم ابنة كان القذافى قد تبناها، لكن القذافى ألغى الهجوم فى اللحظة الأخيرة خشية سقوط الصواريخ على أهداف مدنية فى كريت.. وقرر بدلا من ذلك إطلاق ٢ صواريخ سكود على قاعدة بحرية أمريكية بجزيرة لامبيدوسا فى جنوب إيطاليا.. وقد أطلقت هذه الصواريخ بالفعل لكنها لم تصب أهدافها وسقطت على الشاطىء دون أن تحدث أى ضرر.

وحتى المفاعل النووى الذى تملكه ليبيا أكد سيف أنه سيستمر لكن للأغراض السلمية فقط وسيتم ذلك بإشراف دولى.. كان طبيعيا بعد ذلك أن يقوم رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير بالاتصال تليفونيا بالقذافى وأن يتحدث معه طويلا بل ويعده بأن يزور ليبيا خلال العام الحالى.. وهى الزيارة التى ستعقبها زيارة الرئيس بوش للجماهيرية.. وهى زيارة لن تمر هباء.. فمن المتوقع أن يتم رفع الحظر الاقتصادى عن ليبيا بعدها.

كان طبيعيا أن يقوم سيف بالتحديد بهذا الدور.. تقريب وجهات النظر ونزع فتيل القنبلة التى كان يمكن أن تنسف ليبيا من الأساس.. فقد رأى سيف بعينه مصير ابنى صدام حسين عدى وقصى.. ومؤكد أنه لم يكن يتمنى أن ينتهى مثلهما، سيف هو الأذكى بالطبع.. يختلف تماما عن ابنى صدام اللذين قبعا إلى جوار أبيهما يمارسان إلى جواره الظلم والديكتاتورية.. سيف تعلم واختلط بمجتمع آخر غير المجتمعات العربية وكان له دور بارز سواء داخل ليبيا أو خارجها.. بل أنه كان أحد المشاركين الأساسيين فى المفاوضات مع أمريكا وبريطانيا خلال الشهور العشرة الأخيرة والتى انتهت بمحاولة حماية ليبيا من مصير العراق.

سيف تخرج فى جامعة الفاتح فى طرابلس ويرأس هيئة مسئولة عن تخطيط المشروعات الحكومية الليبية والأهم من ذلك أنه يرأس مؤسسة القذافى للجمعيات الخيرية.. وهى مؤسسة تتكون من جلس تنفيذى يضم عشرة أشخاص يمثلون الجمعية العمومية للمؤسسة، ورغم الكلام الكثير عن هذه المؤسسة إلا أنها ومنذ خرجت للنور لم يتم الإعلان عن أى اجتماعات لجمعيتها العمومية ولا كيف يتم اختيار رئيسها أو مجلسها التنفيذى بما يوحى بأن سيف القذافى هو المتحكم الأول والرئيسى فيها.

لقد خفت قبضة القذافى للدرجة التى سمحت لسيف أن يقود الجماهيرية إلى مصير جديد لم يكن أحد ينتظره أو يتوقعه.. فقد ربى القذافى أبناءه على كراهية أمريكا وبغضها وتمنى الخلاص منها، ففى عام ١٩٨٦.

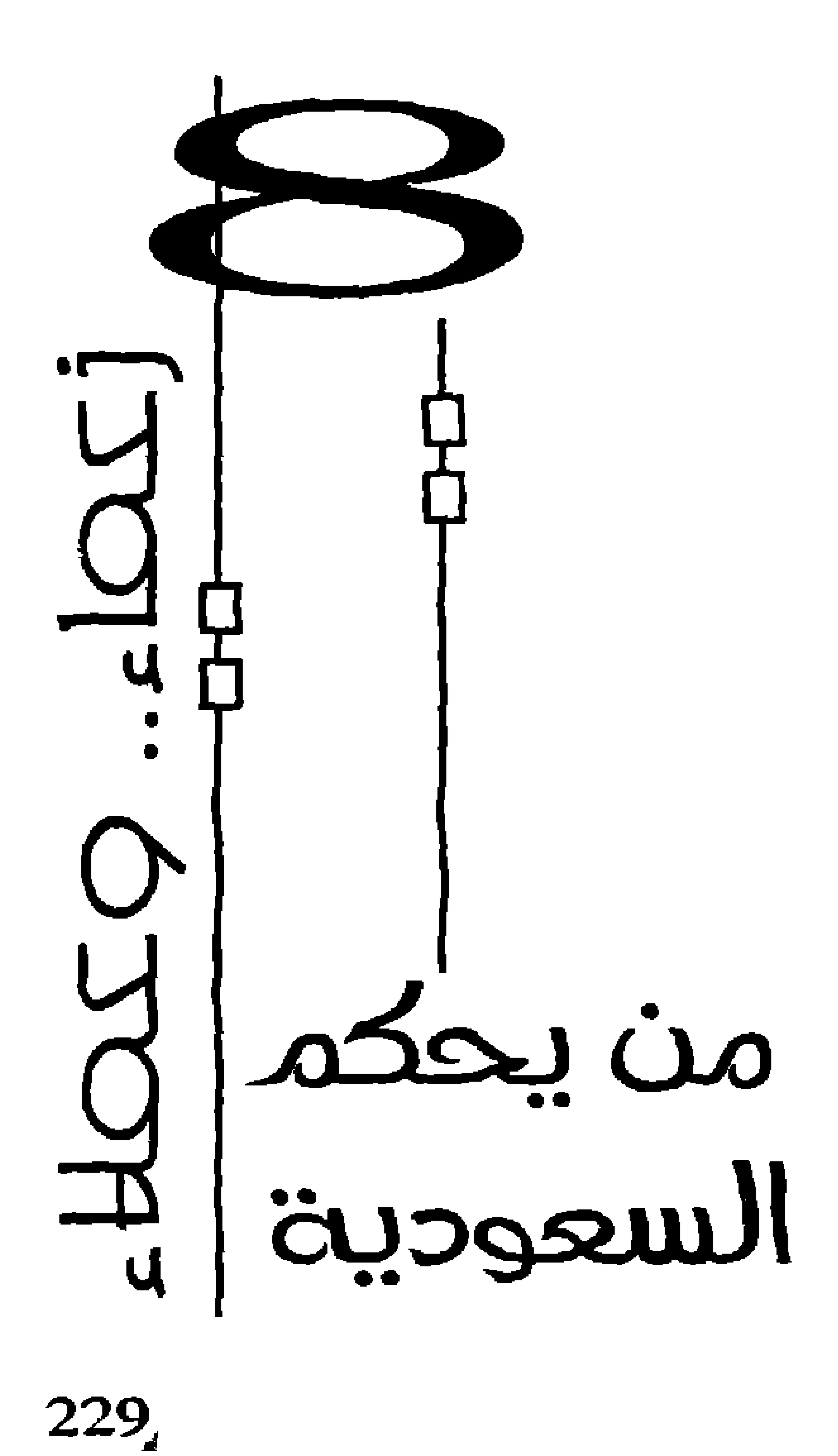
عقدت صفية القذافى زوجة العقيد مؤتمرا صحفيا فى طرابلس توعدت فيه الرئيس ريجان والطيارين الذين أغاروا على طرابلس وبنغازى وقالت: سيأتى اليوم الذى نقتل فيه ريجان نفسه وطياريه الذين قتلوا أطفالنا ونساءنا. ظهرت صفية القذافى خلال المؤتمر وهى تستند على عكاز.. ويبدو أنها كان تطعم أولادها كراهية أمريكا مع طعامهم اليومى.. ولذلك وبعد ثلاث سنوات من مؤتمرها صرحت بتصريحات مرة عن حالة أبنائها النفسية قالت: «إن أبنائى مازالوا يعانون من الكوابيس التى سببها القصف الجوى الأمريكى لمقر إقامة القذافى»!

كان منتظرا أن تنمو مشاعر الكراهية لأمريكا فى قلوب أبناء القذافى.. لكن الظروف الدولية والريح العاتية التى تهب من البيت الأبيض استبدلت بالكراهية الحب الشديد.. وبدلا من أن يضيع أبناء القذافى ضحية الكراهية قرروا أن يحتفظوا بتركة أبيهم لأنفسهم بدلا من أن تدهسها أقدام الجنود الأمريكان وهم يمرحون فى شوارع طرابلس وبنغازى.

لقد نفى القذافى أن يكون قراره بتأثير الصورة المهينة التى ظهر بها الرئيس العراقى صدام حسين وجندى أمريكى يقلبه.. وهو كلام يليق بمناضل قرر فجأة أن يتخلى عن نضاله حتى لو كان مجرد ظاهرة صوتية.. لكننا لا نستطيع أن نصدقه أو نطمئن إليه.. فقد بدا من المشهد العراقى أن أمريكا لن ترحم أحدا.. وكان من العقل ألا يزاحمها أحد.. أو يقف فى طريقها أحد.. وإلا فالنهاية معروفة.

قد يتعجب البعض إذا قلت إن القذافى لم يتراجع.. هو فقط كف عن تصريحاته العنترية.. فلم نر له قبل ذلك معجزة أو تصديا أو معارضة لأمريكا إلا فى خطبه وأحاديثه الفضائية، كان يريح بذلك.. لكنه اكتشف مؤخرا أن الصياح داخل السرب الأمريكى سيكون أكثر مكسبا وريحا ولذلك لم يتراجع فى الانضمام إليه.. أنقذ القذافى نفسه.. واطمئن على مستقبل أولاده من بعده.. ولا عزاء بعد ذلك لكل المهزومين العرب.

■■■


8
زعماء.. وعملاء
من يحكم السعودية

كان المشهد مذهلا..

حريق ضخم شب فى مدرسة للبنات بمكة المكرمة.. تجمع الأهالى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المنشآت والأرواح، حاولت البنات أن يخلصن أنفسهن من ألسنة اللهب المتصاعدة.. تزاحمن على بوابة المدرسة.. لم ترتد واحدة منهن حجابها الذى خرجت به من بيتها، فالفزع الذى حاصرهن لم يمنحهن فرصة للتفكير، عندما اقترين من بوابة الخروج وجدن أمامهن أحد المطاوعة من أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يمنعهن من الخروج... وجدن أنفسهن فى ورطة فالنار من خلفهن وعصا المطوع أمامهن.. ولأن الوقت لم يكن فى صالحهن فقد عدن إلى المدرسة المحترقة وكانت النتيجة أن توفيت خمسة عشرة طالبة وتفحمت جثثهن وأصيبت خمسين طالبة أخرى دون ذنب سوى عدم ارتدائهن الحجاب... رغم أن الإسلام بسماحته من بين سطوره أن الضرورات تبيح المحظورات.

هذه الكارثة المروعة التى هزت مشاعر المجتمع السعودى فعلها «المطوع» مع سبق الإصرار والترصد، فأثناء الحريق ذهب أحد أفراد شرطة مكة التى يرأسها العقيد محمد الحارثى إلى موقع المدرسة، حاول التدخل لإنقاذ الطالبات، لكن المطوع تشاجر مع ضابط الشرطة ومنعه من دخول المدرسة.. بل أمره بأن يغادر موقع الحريق فورا ودون مناقشة.

من بين ما يعكسه هذا الموقف الهزلى قوة رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذين يصل عددهم إلى أربع آلاف فرد، فلديهم من السلطات التى منحتها لهم

السلطات السعودية ما يفوق صلاحيات رجال الشرطة الذين من المفروض أن يحافظوا على أمن المملكة ويحفظوا لها استقرارها.. ولعل المشهد الذى يتكرر يوميا فى شوارع السعودية يؤكد ذلك.. فالمطوع لا يسير فى الشارع إلا ويتبعه اثنان من جنود الشرطة كل مهمتهما تنفيذ أوامر المطوع.. فما عليه إلا أن يشير إلى المخالف بعصاه ولا تمر سوى لحظات قليلة إلا ويقبض على المخالف ويتم اقتياده إلى قسم الشرطة ليلقى هناك ما لا يحب ولا يرضى!

كان حادث مدرسة مكة هو الشرارة التى جعلت المجتمع السعودى كله ينتقض على هذه الهيئة التى أنشأتها المملكة حسب مطبوعاتها الرسمية لتطبيق الشريعة الإسلامية. وأعطتها صلاحيات فى التأكيد من أن النساء محجبات بالشكل المناسب، ومن تطبيق مبدأ عدم الاختلاط بحسم وصرامة فى الأماكن العامة والمجتمعات التعليمية، ومن إجبار أبناء السعودة أو العاملين فيها على أداء الصلاة فى أوقاتها.. وهو أمر يثير السخرية وربما الشفقة.. فالمطوع الذى يتأكد من أداء الناس للصلاة فى أوقاتها.. لا يؤدى هو الصلاة فى وقتها... لأنه ساعتها يكون مشغولا بمطاردة المخالفين.

لقد طالبت أمريكا بعد حادث ١١سبتمبر أن تلغى السعودية هيئة الأمر بالمعروف والتى تعرف فى الصحافة الأمريكية والغربية باسم «الشرطة الدينية».. واعتبرت ذلك إذا اتم خطوة من خطوات الإصلاح التى تحسن بها السعودية صورتها... فقد كان من وجهة النظر الأمريكية أن هذه الهيئة سببا رئيسيا من أسباب بعض التشدد فى المجتمع السعودى والحفاظ عليه، فالإسلام عندها ليس هينا ولا يسيرا.. ولذلك من الطبيعى أن ينتجوا متطرفين. ما طلت السعودية وناورت بل إنها لم تنتبه إلى الطلب الأمريكى.. وكان ذلك لسببين الأول: أنه ليس كل ما تقوله أمريكا لابد أن تخضع له السعودية وتطبقه فهذا ضد سيادتها واستقلالها وسيطرتها على أمورها، والثانى أن السلطات السعودية لا تستطيع بالفعل أن تستغنى عن الخدمات الجليلة التى تقدمها لها هيئة الأمر بالمعروف.. فهى تحفظ لها الأمن وتساعد على استقرار الأمور الداخلية.. وتمنح النظام السعودى شرعيته كاملة تلك التى يستمدها من أنه يطبق الشريعة الإسلامية ويسهر على تنفيذها.

بعد أن أنهت أمريكا مهمتها فى العراق بصورة لم يكن الأمريكان أنفسهم يتوقعونها.. ورغم أن صقور الإدار الأمريكية أعلنوا أن هدفهم القادم سوريا، إلا أن الهدف الحقيقى أمامهم الآن هو السعودية التى يصرون فيما يبدو على تغيير نظامها وإكسابه صبغة مدنية تضمن لهم ألا يأتيهم الخوف منها مرة أخرى.. بعد أن وجدوا أن الـ١٩ متهما فى تفجيرات ١١سبتمبر كان منهم ١٤سعوديا.

الآن تعيد أمريكا شروطها من جديد على السعودية... وفى مقدمتها التخلص من هيئة المطوعين الذين وصلوا بسطوتهم ونفوذهم إلى أن أصبحوا دولة داخل دولة، لم يستطع النظام السعودى أن يناور هذه المرة.. وجاءه حادث حريق مدرسة مكة ثم تفجيرات الرياض التى ساندها بعض العلماء السلفيين الذين يرتبطوا بصلات جيدة مع الهيئة... لتكون سندا له، وحجة يعتمد عليها فى تفريق شمل دولة «المطوعين».. وليس بعيدا أن يستغل النظام السعودى بما عرف عنه من براجماتية بحتة أن يستغل حالة الغضب فى الشارع السعودى الآن من رجال الهيئة ليوجه لهم ضربة قاصمة.

لقد ظهر حمق هذه الهيئة فى حادث حريق مكة... كما ظهر كذلك أنها لم تعد بالقوة التى كانت عليها.. فعلى ما يبدو أن السلطات السعودية بدأت ترفع يدها وبقوة عن ظهر هذه الهيئة.. فبعد مقتل البنات الخمس عشرة واللاتى تراوحت أعمارهن بين الثانية عشر والسابعة عشرة فتحت الصحف السعودية ـ وللمرة الأولى فى تاريخها ـ النار على هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونالت من رجالها ومن أعمالهم وتصرفاتهم.. فأشارت صحيفة «الوطن» إلى أن رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طردوا أولياء أمور البنات والحريق مشتعل فى المدرسة وأغلقوا الباب بعد أن خرجت بعض الطالبات وهن غير محجبات.. صحيفة «الاقتصادية» كانت أكثر صراحة فأشارات إلى أن إلى رجال الهيئة أجبروا البنات على البقاء داخل المدرسة ولم يسمحوا لهن بالهروب لأنهن لا يرتدين الحجاب أو العباءة.

توسعت الصحف فى نقل شهادات الذين حضروا الواقعة ليدينوا رجال الهيئة بشدة، فنقلوا عن رجال المطافئ ورجال الشرطة قولهم إن رجال الهيئة منعوهم من الدخول إلى

المدرسة لأنه لا يجوز للفتيات أن ينكشفوا أمام غرباء، حاول رجال المطافئ والشرطة أن يقنعوا رجال الهيئة أن الأمر خطير.. لكنهم صرخوا فى وجوههم ورفضوا أن يتزحزحوا من أمام بوابة المدرسة.. وأصروا على موقفهم حتى قتلت البنات دهسا أو اختناقا أو سقوطا من نوافذ المدرسة التى اشتعل سقفها بسبب ما كهربائى.

لم يكتف هجوم الصحافة السعودية على رجال الهيئة بالتعريض فهم فى حادث المدرسة، لكن انتقل بعض الكتاب إلى سلوكهم العام، تركى السديرى رئيس تحرير «الوطن» طرح سؤالا لم يتلق عنه إجابة حتى الآن وهو هل أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أكثر حرصا واهتماما منا بزوجاتنا وأخواتنا وأمهاتنا وبناتنا؟ وهو سؤال له مغزاه ودلالاته فى ظل مجتمع ما زال يخجل من المرأة، ويلقى بكل التبعات على عاتق النساء، كما لو أنهن سبب كل الشرور فى هذه الحياة.. مجتمع يرى فى الرجال ملائكة على طول الخط.. والنساء شياطين على طول الخط أيضا..

وجدت الهيئة نفسها فى ورطة... فالمجتمع غاضب منها يكاد غضبه يفتك بها، والصحافة أظهرت أنيابها عليهم تريد أن تلتهمهم.. والسلطة نزعت يديها منهم ولو شيئا ما .. فبعد حادث المدرسة صدر أمر ملكى بتعيين رئيس عام جديد للهيئة.. وهو الشيخ إبراهيم بن عبد الله الغيث، كان الغيث يتولى منصب رئيس الهيئة بالوكالة.. وجاء برتبة وزير إلى هذا المنصب بعد الشيخ عبد العزيز السيد... اعتبر البعض هذا القرار محاولة لامتصاص غضب الشارع السعودى، لكن القرار على ما يبدو ولم يكن كافيا.. فبادرت الهيئة إلى دعوة عدد كبير من الصحفيين التقى بهم رئيسها الجديد وحاول أن يؤكد لهم أن رجاله لم يصلوا مكان الحريق إلا بعد أن تمت السيطرة على الحريق تماما، لم يعجب كلامه الصحفيون الذين استندوا فيما كتبوه إل شهود عيان كانوا موجودين لحظة الحريق، لم يجد رئيس الهيئة أمامه بدا من التراجع.. فقال مستسلما: «لكن ما تأكد أن أى مسئول فى جهازنا قد عرقل أى عمل للإنقاذ فيجب عندها مقاضاته».

لا يتفاعل العاملون فى الهيئة بما يحدث... ويشعرون فى نهاية جماعتهم وهيئتهم قد اقتربت.. فالضغوط ليست خارجية الآن.. والوصاية الأمريكية التى يحاول بوش أن

يفرضها ليست هى المبرر الوحيد للقضاء على المطوعين، فهناك رغبة مؤكدة وملحة فى المتجتمع السعودى ليتخلصوا من سطوة المطوعين الذين أصبحوا سلطة ليس للحفاظ على تطبيق الشريعة الإسلامية، ولكنهم تحولوا إلى سيفا وسوطا وبدا الفساد يدب فى أوصالها، إن عمل هذه الهيئة ليس إنسانيا بالمرة... ولولا مساندة السلطة السعودية لها لما استمرت هذه الفترة الطويلة... لكنها السياسة وألاعيبها.. والقصة طويلة للغاية يصل عمرها إلى مائة عام.

لقد اعتبرت السلطة السعودية ومنذ البداية تحديد عام ١٩٠٣ وهو العام الذى أنشئت فيه هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إن هذه الهيئة سلطة مثل باقى سلطات الدولة لا تقل فى اختصاصاتها عن أى منها فى شىء بل ربما تزيد عليها، بدأت عملها برئيسها الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف آل الشيخ، وقتها كان كل المطلوب منه أن يتابع تطبيق المبادئ الوهابية وهى المبادئ التى انتشرت وزادت واحتدت بعد ذلك لتحرم كل شىء شرب الدخان وبيعه وشراءه، لعب الورق والشطرنج، حلق اللحية وتقصيرها، الموسيقى والغناء ومشاهدة المسلسلات، ممارسة الرياضة بالسراويل القصيرة، العمل فى البنوك، إطالة الثوب، قراءة المجلات، الرهان، المشاركة فى الموالد أو الأفراح، قراءة القرآن على الميت، كل هذه وغيرها من سلوكيات الحياة العادية حرمها الوهابيون، وخرجت هيئة الأمر بالمعروف لتباشر تنفيذها وتنكل بكل من يخالفها أو يخل ببند واحد من بنودها.

عندما اتسعت الدولة السعودية فى منطقتى نجد والإحساء كان من الطبيعى أن تخطط الدولة للحفاظ على مكاسبها.. فمنحت الهيئة صلاحيات مطلقة، ووضعت تحت تصرفها جميع الإمكانات التى تمكنها من أداء وظيفتها، وتحولت الهيئة التى كانت مجرد فرد واحد هو الشيخ عبد العزيز إلى هيئة جماعية رسمية لها طابع مؤسسى.. انتهز الشيخ عبد العزيز الفرصة كاملة فأنشأ عددا من الهيئات التى أصبحت تابعة له شخصيا وأوكل إليها تنفيذ المبادئ الوهابية التى كان يطلق عليها فى خلط متعمد مبادئ

الشـريعـة الإسـلامـيـة.. رغم أن الفـارق واضح وشـاسع بينهـمـا... ومنذ هذه اللحظة وأصبحت للهيئة سلطات الاعتقال والمحاكمة والعقاب للذين يقبض عليهم متلبسين بارتكاب ما ترى الهيئة أنه يدخل تحت بند المعاصى والذنوب... وهذه من وجهة نظر رجال الهيئة لا تعد ولا تحصى.

نمو دور الهيئة وزيادة أنشطتها كان مقدمة طبيعية لينمو حجمها فى المجتمع السعودى، وظهرتت بالتبعية «وظيفة المطوع»... لم يكن لصاحب هذه الوظيفة مهام محددة.. لكن أسندت له مهمة تنظيم حركة الأسواق... هذا التنظيم كان يكفل له أن يمنع الاختلاط بين الرجال والنساء ويمنع التجارة من الاحتيال ويراقب تعليق الصور والتماثيل... ومطاردة أصحاب أماكن اللهو، ومحاصرة وضبط الرجال الذين يلبسون الذهب أو الحرير.. لقد أصبح من حق المطوع أن يتدخل فى كل شىء يخص حياة الناس الشخصية، للدرجة التى انتفت فيها الحياة الشخصية للمواطن السعودى... وهو ما جعل سلطات هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا تماثل سلطات الدولة نفسها... ولكنها تزيد عليها... لدرجة جعلت النظام الحاكم خاضعا تماما.. لا يستطيع أن يبرم أمرا أو يصدر قرارا إلا بعد موافقة رجال الهيئة... فرضت عليهم هذه الظروف أن يجعلوا من أنفسهم دعاة وعلماء ولهم أفكار ومنهج... ولذلك سارعوا بإصدار كتيبات صغيرة مازالت تطبع وتوزع مجانا حتى الآن ليس فى السعودية وحدها، ولكن فى جميع الدول العربية والإسلامية فالهيئة التى فرضت سيطرتها على السعودية وأصبح لا صوت يعلو فوق صوتها... أرادت أن تصل بعنفها ومعاداتها لكل الدولة العربية والإسلامية.. اعتقادا منها أن ما تفعله الصواب وتقربا إلى الله تعالى.

هذا النمو المتصاعد لنفوذ هيئة الأمر بالمعروف.. قابلته عقوبات عديدة.. لقد استخدمتهم السلطات السعودية لتنفيذ أهدافها وتحقيق طموحاتها.. وأجزلت لهم العطاء.. لكنها وقفت أمام رجالها بقوة عندما تجاوزوا.. ووضع السعودية فى حرج سياسى.. وقد تعددت المشاهد التى وقفت فيها السلطات السعودية فى وجه المطوعين!

فى عام ١٩٢٦ كانت الهيئة خاضعة سياسيا لسلطة الأمير فيصل بن عبد العزيز حاكم منطقة الحجاز، وبحماقة رجالها تسببوا فى أزمة سياسية بين مصر والسعودية كادت تعصف بالعلاقات بين البلدين، كانت مصر كل عام ومنذ عهد شجرة الدر يخرج منها الحجاج فى موكب من المنشدين يسمى المحمل، اكتشف السادة المطوعون فجأة ودون سابق إنذار أن هذا المحمل يخالف الدين شكلا وموضوعا.. والنكتة أنهم اعتبروه صنما ولابد من تحطيمه، ولتنفيذ ذلك دخلوا فى معركة مع الحجاج المصريين سقط فيها عدد كبير من الضحايا من الجانبين، امتنعت مصر عن إرسال المحمل عشر سنوات كاملة، واضطرت السعودية لتقديم اعتذار رسمى لمصر وأرسلت وفدا على رأسه عدد من أمرائها كى تعود المياه إلى مجاريها بعد الكارثة التى جرت على يد المطوعين.

بعض اللوم فقط هو ما ناله رجال الهيئة بعد واقعة المحمل، فلم تستطع السلطات السعودية أن تغيرر نظامهم أو تقلل من سلطاتهم... لكن عندما اقتربت أعمال الهيئة من النظام السعودى نفسه وأصبحت تظهر فى الشارع أقوى من الملك وأقدر على أخذ القرارات وتنفيذها، كان لابد من موقف حاسم، وقفه هذه المرة الملك عبد العزيز الذى رأى أن الهيئة خرجت عن الحدود المرسومة لها سياسيا، فأصدر مرسوما مليكا دُمجت به الهيئة مع الراقبة العامة لقوات الشرطة، وسحب الملك كل اختصاصات رجال الهيئة وتضاءل نفوذهم... كانت الرسالة التى أراد الملك عبد العزيز أن يوصلها أن الهيئة تم استخدامها سياسيا لتثبيت أركان الدولة وجعلها مهابة الجانب، ولما كانت الدولة قد استقرت فلا حاجة إذن لهذه الهيئة... التى لابد أن تصبح خاضعة للملك خضوعا تاما وكاملا.

فى أواخر أيام عبد العزيز استردت الهيئة كثيرا من سلطاتها وعادت أكثر قوة وشراسة، أصبحت قناعتهم بشىء كفيلة بأن يتحقق واعتراضهم على شىء يجعل من المستحيل الاقتراب منه.. فى عهد الملك فيصل رفضوا بعنف دخول المستحدثات التكنولوجية إلى المملكة مثل الراديو واللاسكى وغيرها من منجزات الحضارة الحديثة..

كان ذلك فى بداية الثلاثينيات.. وفى الوقت نفسه رفضوا وبشدة تعليم البنات أو دخولهن المدارس... لم يجد فيصل أمامه سوى استخدام الحيل والدهاء.. فلم يكن ليستطيع رغم أنه الملك أن يرغمهم على شىء.. فحتى تدخل المملكة عصر التكنولوجيا والعلم تحايل على رجال الهيئة... وحاول إقناعهم بالمنطق.. دعاهم لتناول طعام العشاء معه، وعندما دخلوا ووجدوا أن الملك يدعوهم للأكل على طرابيزة سفرة رفضوا رفضا تاما وأصروا على أن يأكلوا على الأرض، فالأكل على السفرة ليس من سنة النبى الذى كان يأكل وصحابته الكرام على الأرض، واستجاب فيصل لهم.. لكنه أمر بإبعاد سياراتهم وإحضار مجموعة من «النوق» ليركبها العلماء بدلا من السيارات التى لم تكن موجودة أيام الرسول، وعندما خرج علماء الهيئة ذهلوا من تصرف فيصل.. لكنهم فهموا الرسالة.

أما فيما يتعلق بتعليم البنات.. ففى أحد الاجتماعات التى جمعت رجال الهيئة بالملك فيصل سألهم: هل هناك آية فى القرآن تحرم تعليم البنات؟ لم يرد عليه أحد فليس فى القرآن كله ما يقدم هذا لا المعنى مضمرا ولا مفسرا، فواصل الملك كلامه قائلا: بما أن على كل مسلم أن يحصل العلم فنحن نفتح المدارس، ولا أحد سيمنع الأهل الراغبين فى إرسال بناتهم إليها، ويمكن للآخرين أن يقرروا إبقاء بناتهم فى البيت فلن نجبر أحدا على ذلك.

خرجت البنات لتتعلم فى السعودية رغم أنف رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتدور الأيام ليكون نفس الرجال ليس سببا فقط فى حرمان البنات من التعليم، ولكن سببا فى حرمان من الحياة نفسها، بدعوى حفاظهم على التعاليم الإسلامية من أن تنتهك رغم أنهم بتصرفاتهم يعرضون مبادئ الإنسانية نفسها للإهدار.

ظلت أوضاع الهيئة على حالها... حتى وقعت حرب الخليج الثانية. وكاد أحد رجالها يتسبب فيى أزمة سياسية بين السعودية وقوات التحالف... التى جاءت بدعوة من النظام السعودى وبمباركة علماء السعودية جميعا للدفاع عن الأراضى المقدسة ضد صدام حسين الذين هضم الكويت ويستعد لالتهام السعودية، ففى الرياض دخل أمريكى أسود

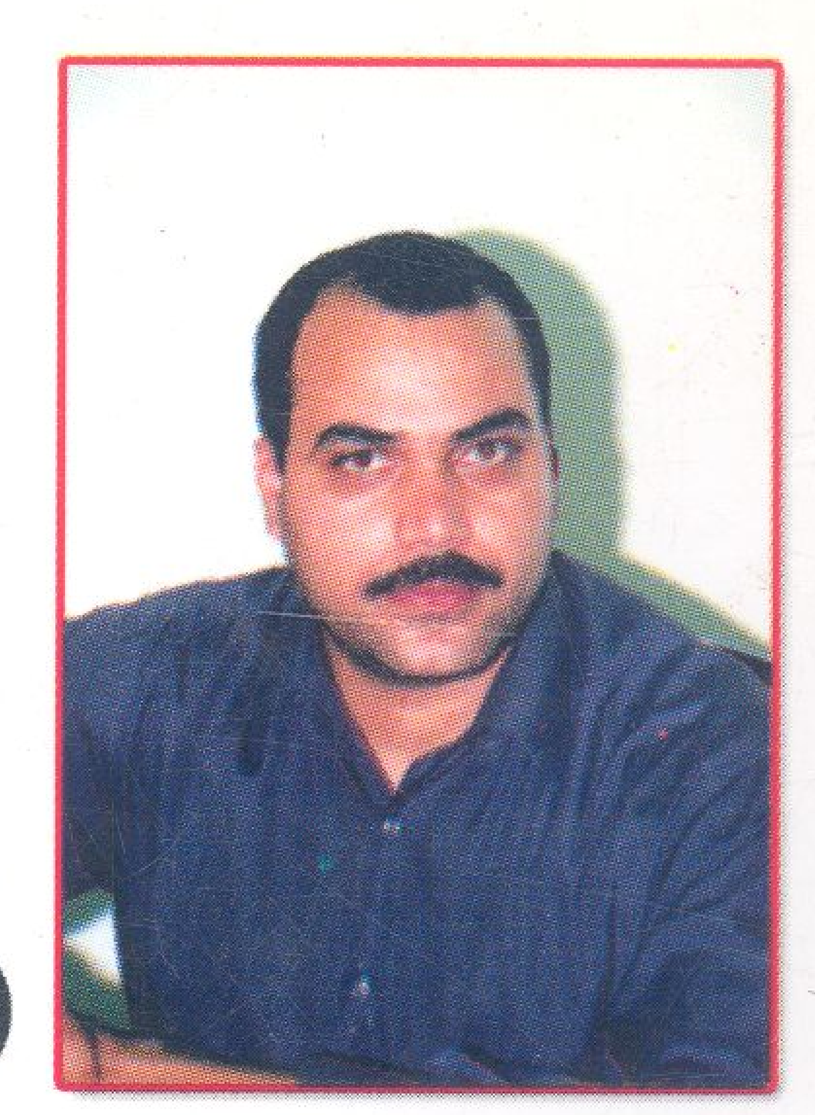
مع فتاة من جنود التحالف إلى أحد المحلات، وعندها شاهد أحد المطوعين هذا المشهد صرخ فى صاحب المحل وقال له: هادول يدنسون المكان... أطردهم.. حظ المطوع التعس أن الرجل الأسود كان يجيد اللغة العربية ويفهمها جيدا... فهم ما قاله المطوع.. فاوقفه... وبدأ يحدثه عن الإسلام ومبادئة العظيمة فى الدعوة لأحكامه التى لابد أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة.

مواقف عديدة عززت هذا الموقف جعلت النظام السعودى يعيد النظر فى نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. لقد كانت المملكة كلها معرضة للخطر.. ولم يكن النظام مستعدا لتحمل سخافات الهيئة... التى يمكن أن تجر وراءها المتاعب.. خاصة أن بعض المطوعين كانوا يطاردون المجندات الأمريكيات السائرات فى شوارع ويعتمدن إهانتهن وضربهن بالعصى على مؤخراتهن، ويبدو أن المملكة قررت من يومها أن تخفف من وطأة الهيئة على الشارع السعودى لكنها وقعت بين نارين.. فهى فعليا تحتاج إلى هذه الهيئة لأنها تساعدها وتمكنها من حكم الشارع السعودى، لكن فى الوقت نفسه فهى تضعها فى مأزق لابد من التخلص منه.. ظلت هذه الازدواجية تحكم النظام السعودى حتى أصبح مفروضا عليه أن يتعامل مع رجال الهيئة لم يعد لدى النظام رفاهية الاختيار إما أن يبقى على المطوعين أو يستغنى عنهم.. المطلوب الآن ليس رغبة أمريكا وحدها.. ولكن المجتمع السعودى نفسه يريد أن يتم التخلص من هذه الهيئة التى حولت حياتهم إلى جحيم.. ونصبت من نفسها حارسا ومنتهكا لخصوصيات الجميع من أكثر من مائة عام.

إن الورطة التى تقف على شفا حفرتها المملكة السعودية الآن لا تحسد عليها.. فلابد أن تأخذ قرارا... ولن ينفع هذه المرة سياسة مسك العصا من المنتصف.. التى لم تجر علينا سوى المشاكل.. ولم نحصد منها سوى الأشواك.

■■■

الفهرس



زعماء وعملاء

الخيانة والفساد على فراش الحكام العرب

يستيقظ الحاكم العربى من نومه يتحسس كرسيه يخشى فى أية لحظة أن يجد نفسه مهزوما ومطرودا وأسيرا..

ولا يملك حتى أن يطلب الرحمة لنفسه.. فقد عاش معتقدا أنه ربنا الأعلى..وإذا به يقف وحيدا منكسرا مخدرا..

يعرف الحاكم العربى نهايته..

ولا يستطيع أن يغيرها أو يبد لها أو يتخلى عنها فهى قـدره..

لكنه تعالى يتكبر فى غرور.. ثم لا شئ..

هذه صفحات من حياة بعض حكامنا.. منهم الزعماء ومنهم العملاء..

نؤيدهم ونعارضهم.. نختلف معهم ونتمنى رضاهم

لكننا لا نستطيع أن نكرههم.. لأنهم قدرنا الذى لا نستطيع أن نخلع أنفسنا منه.. فاللهم ألهمنا القدرة على الصبر !

الباز

Bibliotheca Alexandrina
06435508

Des. By: Art Line 5820833

